



أئمة التتار

الإخوان والتتيسة أمة تلعب في الخفا



ثروت الخرباوي



الإخوان والشيعة
أمة تلعب في الخفاء

تأليف
ثروت الخرباوي



العنوان:
أثممة الشر
الإخوان والشيعة أمة تلعب في الخفاء

تأليف:
ثروت الخرباوي

إشراف عام:
داليا محمد إبراهيم

جميع الحقوق محفوظة © لدار نهضة مصر للنشر
يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين
أي جزء من هذا الكتاب بآلة وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية
أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.

الترقيم الدولي: 3-4603-14-977-978
رقم الإيداع: 16258 / 2013
الطبعة الأولى: سبتمبر 2013

تليفون: 33466434 - 33472864 - 02
فاكس: 33462576 - 02

خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

21 شارع أحمد عرابي -
المهندسين - الجيزة

أئمة التتار

مقدمة

كان لا بد أن نفتح هذا الملف لنعرف أمور الشر المخفية التي ارتدت ثياب الدين، ومن المهم أن نشير أننا لا ننعي على فهم الإخوان للدين، فهم وشأنهم، كل إنسان بفهمه يفرح، كما أننا لا ننعي على الشيعة فهمهم للدين، فكل طائفة بمعتقداتها تفرح، لا تثريب عليهم هنا أو هناك، ولكننا ننعي على أولئك وهؤلاء استغلال الدين لتحقيق مآرب سياسية دنيوية، ننعي عليهم الوقوع في فخ الغرب الاستعماري، ننقم عليهم تسييس دينهم وجعله حزبًا ومشروعًا يدخل في صراع مع باقي المسلمين ليتحكموا هم بذواتهم في الأمة، ولو كان عن طريق الغضب والإرهاب والتحالف مع أئمة الشر في العالم، حينئذ يتحولون هم من دعاة إلى أئمة شر يتشابهون في المشارب مع من تحالفوا معه .

كما أنني لا أعمم في الحكم أو التحليل فأضع كل الإخوان في إناء واحد، وأضع كل الشيعة في بوتقة واحدة، ولكنني أتحدث عن أئمتهم الذين يقودونهم فهم في تقديري أئمة شر، أما الأتباع فمعظمهم يتحرك بدوافع مشاعرية مغلصة حتى ولو كانت خاطئة؛ لذلك فإن كتابي يتحدث عن الأئمة لا الأتباع، القادة لا الجنود، أولئك الذين ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسَتْهُمِ أَنْفُسُهُمْ﴾ .

وهذا الكتاب لم أهتم بتوجيهه إلى الرأي العام فقط، ولكنني حرصت على أن يكون رسالة لقواعد الإخوان وعموم الشيعة، لعل كلمتي تصل إليهم، فيعرف من جهل، وتتظم عقيدة من شط وجنح، وحين أكتب كلماتي هنا أعلم علم اليقين أنها قد لا تكون ذات أثر كبير، ولكنني أتمنى أن تكون لبنة ولو صغيرة في بناء يجب أن نقيمه لترشيد مواقفنا وأفكارنا والبعد بها عن الجنوح.



تقديم

يبدو أن موقف جماعة الإخوان من إيران ملتبس بعض الشيء، فكما يعرف الجميع فإن الإخوان الآن جماعة وحزب وحكومة ونظام - سقط في مصر في 30 يونيو عام 2013 - وقد يمارس الإخوان وفقًا لقواعد السياسة لعبة توزيع الأدوار بين الحزب والجماعة، وقد يزيد الأمر التباسًا أن جيل الإخوان الأول كان موقفه إيجابيًا من إيران وكان يسعى للتقريب بين السنة والشيعة، في حين أن الصورة الظاهرية لغير المتعمق في الفكر الباطني للإخوان توحى أن الجيل الحالي يقف موقف المعارض لأي تقارب مع إيران الشيعية، وإذا وصل الإخوان إلى الحكم في مصر فإن تلبس إبليس سيكون هينًا بجانب التباس الإخوان.

في تاريخ الإخوان نلمح طيف الشيخ حسن البنا المرشد الأول للجماعة أو مرشد البناء كما يطلقون عليه وهو يشد الرحال نحو التقارب بين السنة والشيعة، ونرى عن بعد لقاء جمعه بالشباب - وقتها - الخميني، حين زار الخميني مصر في نهاية الثلاثينيات من القرن العشرين، كان حلم البنا الأكبر هو توحيد المسلمين تحت راية واحدة، على أن يكون هو الإمام والخليفة والحاكم، وأن تكون جماعة الإخوان هي سيدة العالم، كانت أمنيته إذن أن يجمع الله - الشيتين بعدما يظنان كل الظن ألا تلاقيا، ولكن ليس كل ما

يتمناه البنا يدركه، فرغم محاولات ومحاولات آخرين غيره فقد ظلت الفرقة وظل الخلاف سواء من الناحية العقائدية أو من الناحية السياسية، وخلاف ألف وأربعمائة عام لا يمكن أن تمحوه الأحلام والأمنيات ولا حتى العمل الدءوب ولو لمائة عام، إلا أن الأمل ظل باقياً في نفوس الجيل الذي تعلم من البنا وتلقى منه وعرف منهجه وسبر غوره.

انتقل فكر التقريب إلى الأستاذ عمر التلمساني رحمه الله، حين أصبح التلمساني المرشد الثالث للجماعة كانت خريطة الدنيا على وشك أن تتغير، وبعد ثلاث سنوات من توليه موقع المرشد قامت الثورة الإسلامية في إيران، وأذكر حين كنا طلبة بالجامعة ننتظم في سلك الجماعة الإسلامية التي كانت تسيطر عليها أفكار الإخوان، أو على وجه الدقة كنا من المقربين من الجماعة الإسلامية، وبالتالي من قادة الإخوان وقتها أن ارتفعت مشاعرنا إلى عنان السماء، حين قامت الثورة الإسلامية في إيران، ورغم فرحتنا الفياضة التي كانت تعتمد على المشاعر في المقام الأول تحركت جماعة الإخوان بشيء من الهدوء نحو الثورة الإسلامية الكبرى والتي تعتبر فاتحة الثورات في الشرق، وإن تأخرنا نحن في ثوراتنا إلا أن ذلك كان بسبب تأخرنا كأهل سنة في الفقه السياسي، كان هدوء حركة الإخوان نحو ثورة إيران في بدايتها هو الهدوء المحسوب حتى يتبين لها الخيط الأبيض من الخيط الأسود من فجر ثورة إيران، فالرئيس السادات لم يكن مرحباً بهذه الثورة، ثم سرعان ما تفككت الخطوات الإخوانية البطيئة وتسارعت بعض الشيء حين رحبت بالثورة الإسلامية وبقائدها آية الله الخميني، فقد أعطت تلك الثورة الثقة للإخوان أنهم قد يستطيعون إسقاط نظام الحكم في مصر وإنهاء حكم العسكر، وشاء

الله بعد أكثر من ثلاثين سنة أن تقوم الثورة المصرية بسواعد الشباب والكبار، وبعد أن اتضح للإخوان نجاحها انضموا إليها فيما يسمى في عالم السياسة في العصر الحديث (ركوب الثورات والاستيلاء عليها).

نترك هموم ثورتنا الحالية لتتكلم عن هموم الماضي وهموم المستقبل، يخبرنا الأستاذ يوسف ندا بأن وفدًا من الإخوان ذهب إلى إيران لتوجيه التهئة لهم بالثورة، وبغض النظر عما حدث وعن كيفية استقبال الإيرانيين للإخوان إلا أن هذه الخطوة كانت إشارة لرغبة الإخوان في تفعيل علاقتها بإيران ذات الثورة الإسلامية، ولكن بعد اغتيال الرئيس أنور السادات عام 1981 اضطر الإخوان إلى التمهل، فجريمة قتل السادات كانت جريمة مرتكبة من فصيل إسلامي، وكانت البلاد بعدها تسير في خطى متزايدة نحو مواجهة إرهاب تستر بالدين وحمل السلاح، وفي أوقات الأزمات الضخمة يكون شعار الإخوان هو (في التأيي السلامة وفي العجلة الندامة) ولا شك أن ذكر إيران والإخوان في هذا الوقت كان من شأنه أن يثير زوابع وعواصف ضد الجماعة التي من باب الحفاظ على كيانها تؤثر السلامة في بعض الأحيان.

وفي يناير من عام 1982 صرح الأستاذ عمر التلمساني - رحمه الله - لمجلة «المصور» ب: «أنا - أي الإخوان - أيدنا الخميني سياسيًا لأن الثورة ساعدت شعبًا مقموعًا على التخلص من حاكم مستبد واسترداد حريتهم، ولكن من وجهة النظر الفقهية فإن المذهب السني شيء والمذهب الشيعي شيء آخر» كان الأستاذ التلمساني يعرف حساسية الأمر بالنسبة للحكومة المصرية؛ لذلك لم يرد أن يزعمها فأرسل في النصف الأول من تصريحه رسالة لإيران مفادها «نحن معكم لا عليكم أيها الأحباب ولو من باب

السياسة والحرية»، ثم أرسل في النصف الثاني من تصريحه رسالة أخرى إلى أهل الحكم في مصر مفادها «نحن أهل سُنَّة ونختلف عن هؤلاء الشيعة ونخالفهم»، لذلك استمر منهج الإخوان الداعي إلى التقريب وهو منهج من تلقى على حسن البناء، واستمرت الجماعة بمعاييرها الأصلية - في انتقاد الخلافات الطائفية بين الشيعة والسُّنَّة.

في هذه الآونة كتب الأستاذ التلمساني في مجلة «الدعوة» مقالة توضح سعي الإخوان نحو التقريب المذهبي الذي سيؤدي حتمًا إلى التقارب السياسي فقال: إن التقريب بين المذهب السني والمذهب الشيعي يعد الآن مهمة ملحة للفقهاء، وأضاف قائلًا في ذات المقالة «إن الاتصالات بين الإخوان المسلمين ورجال الدين الإيرانيين لم يكن الهدف منها أن يعتنق الشيعة المذهب السني ولكن الهدف الأساسي الالتزام برسالة الإسلام في توحيد الفرق الإسلامية والتقريب بينها بقدر المستطاع». ولا أعلم أن أحدًا ممن عاصروا البناء من الإخوان قد شذ عن هذا الفهم؛ ولذلك استمر هذا التراث التقريبي في نفوس شيوخ الإخوان أصحاب الرعيل الأول رغم اتساع رقعة الخلاف بين مصر وإيران، فإيران التي كانت تكره السادات كراهية التحريم أطلقت على أكبر ميادينها اسم (خالد الإسلامبولي) وقد صاحب هذا أن اتسعت أطماع إيران في التسيد على المنطقة، في الوقت الذي لم تملك فيه السياسة المصرية إلا الغيرة بعد أن تقلص دورها الإقليمي مع الوهديات التي قذفنا فيها نظام حكم عقيم.

ومن جانب آخر كانت جماعة الإخوان أمرًا ضروريًا في السياسة الإيرانية، فالإخوان ظهروا بصورة البوابة التي سيدخل منها النظام الإيراني إلى المنطقة،

ويومًا ما قد يحكم الإخوان، وأهل إيران من دهاء السياسة، لذلك عكفوا على دراسة جماعة الإخوان وتاريخها وأفكارها، ولعل أهم الدراسات التي كتبها الباحثون الإيرانيون عن الإخوان هو كتاب «إيران والإخوان المسلمين» للباحث الإيراني عباس خامه يار، وقد - تناول في كتابه هذا بالتفصيل العلاقات بين إيران وجماعة الإخوان المسلمين قبل ثورة الخميني وبعدها .

وفي النصف الأخير من حكم مبارك العقيم تحرر الإخوان نوعًا ما وخرجوا من قوقعة الحذر، فكانت تصريحات وحوارات يوسف ندا والتي تحدث فيها عن الشيعة وقام بتوصيف الخلاف بيننا وبينهم من الناحية العقائدية على أنه خلاف فرعي من الممكن أن نتجاوز عنه من أجل المصالح العليا، وبذلك نفى يوسف ندا الخلاف العقائدي وتوالت تصريحاته بأن خلاف السنة والشيعة هو خلاف سياسي، وقبل هذه التصريحات كانت تصريحات الأستاذ مهدي عاكف المرشد السابق للجماعة والتي عبر من خلالها عن عدم ممانعته للمد الشيعة في البلاد العربية والسنية، قائلًا إنها لن تكون ذات تأثير ملحوظ لأنها بلد واحد وسط دائرة شديدة الاتساع من البلاد السنية، ولكن هل أتت هذه المحاولات التقريبية - ولو من الناحية السياسية - على هوى الإخوان الجدد؟ لم يكن الأمر رومانسيًا أو عاطفيًا بل كان دراميًا كأشد ما تكون الدراما، فالأخ الجديد ابن سيد قطب الفكري، محمود غزلان، صهر خيرت الشاطر، لم يرق له تصريحات والده التنظيمي الأستاذ يوسف ندا، فأرغى وأزبد، وهاجم الأستاذ يوسف ندا ولم يوقره، ويبدو أنه لم يتحرك من ذاته ولكن كان هناك من يحركه ويحدد مساره، وبذلك اتضح الصورة، فريق من الإخوان يرحب بالتقارب مع إيران وهو فريق العجائز، وفريق من

الإخوان الجدد الذي يكفر الشيعة ويفسق من يتعامل معهم ، وبعد حين ظهر أن هذا الخلاف مفتعل وسيكشف الكتاب اللثام عن هذا الافتعال.

ومع ذلك فإن الصورة ليست بهذه البساطة، والمعايير التي ستحدد سياسة الإخوان ليست هي المشاعر أو الخلافات العقائدية، فالمسألة أكبر من ذلك، ففي عام 1982 أطلق الأستاذ مهدي عاكف المرشد السابق للإخوان - وقت أن كان مسئولاً مع الحاج مصطفى مشهور عن تكوين التنظيم الدولي - عدة تصريحات أثارت قدرًا من الاستياء عند حسني مبارك إذ قال في مقابلة له مع وكالة الأنباء الإيرانية بأن الإخوان يؤيدون أفكار ومفاهيم الجمهورية الإسلامية، كان المقصود طبعًا من تصريحه هو أن الجماعة تؤيد الثورة الإيرانية والسياسة الخارجية لإيران، وقد وضح هذا عندما استرسل قائلًا: إن أفكار آية الله الخميني خصوصًا فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية هي امتداد لتوجه الإخوان نحو مكافحة الاحتلال.

ولا أظن أن هذا التصريح كان عشوائيًا، إذ إن جماعة الإخوان كانت قد بدأت مع الثورة الإيرانية في تكوين تنظيم لها هناك، تنظيم الإخوان في إيران، وقد أطلقت جماعة الإخوان في إيران على نفسها اسم (جماعة الدعوة والإصلاح) وأصبح هذا التنظيم جزءًا من التنظيم الدولي للجماعة وإن ادعى أنه يحمل استقلالية عن الجماعة الأم في مصر، وبشعب فطنة الإيرانيين ودهاء قادة الإخوان هناك لم يلفت تنظيمهم نظر أحد في العالم العربي أو الإسلامي لأنه كان يدير نفسه بذكاء وحرص، فلم يسع إلى الاستعراض أو الاصطدام بالنظام الإيراني أو محاولة هدم ثوابت الدولة الإيرانية ولم يسع إلى الدعوة للمذهب السني، فقد كان هذا من الخطوط الحمراء التي لم

يتجاوزها الإخوان هناك وإن قام فرع الإخوان هناك بدور كبير في التقارب بين الحكومات الإيرانية وجماعة الإخوان في مصر.

تأسست جماعة الإخوان في إيران عام 1979 على يد مجموعة من الدعاة السنيين المتأثرين بالحركة الإسلامية في مصر والدارسين لحركة الإخوان وتاريخها وكان إعجاب من أسسوها بجماعة الإخوان قد بلغ حدًا كبيرًا حتى إن معظم أفكارهم أخذوها من رسائل الشهيد حسن البنا، وقد كان منهم الشيخ ناصر سببحاني رحمه الله أحد علماء السنة في إيران؛ ولذلك أخذت جماعة الإخوان هناك طابعًا علميًا وكانت حركتها، وما زالت، تتسم بالهدوء والحذر، فهم يعملون في وسط مجتمع شيعي، ورغم أنهم لم يحصلوا هناك على رخصة قانونية فإنهم يعملون وفقًا لسياسة الضوء الأخضر، أما المراقب الحالي لجماعة الإخوان هناك - وهو منصب يقابل منصب المرشد - فهو الأستاذ «عبد الرحمن بيراني» والذي يمارس دورًا كبيرًا في إدارة دفة إخوان إيران.

قطار الإخوان والشيعة يسير بسرعة يتغني الوصول إلى محطة تمكين الإخوان، وتمكين إيران، بمساعدة الأمريكان، في إحدى اللوغارتمات السياسية المعقدة التي سنحاول فك طلاسمها في هذا الكتاب.



حاشية الكتاب

كان الصبي حسن مندفعًا ناحية المعرفة، قال في مذكراته: «ظللت حتى السابعة عشرة دارسًا وباحثًا في المعرفة» وذات يوم وعندما شب عن الطوق وأصبح شابًا يافعًا تقابل مع أحد العلماء فجلس عليه واتخذهُ أستاذًا له، يسمع منه تفسير القرآن ويتلقى منه ما لديه من علم، ثم التقى بمعلم آخر وضع له معالم الطريق، وفي الإسماعيلية حظ رحاله، ويبدو أنها تركت أثرًا كبيرًا في نفسه، إذ بعدها قام بتأسيس جماعته، كان يطلق على رفاقه في الجماعة «الإخوة» أخذ يعلمهم، ويربيهم، لم يكن مهتمًا بتأليف الكتب ولكنه كان مهتمًا بتأليف الرجال..

ظل يجوب البلاد لينشر دعوته، فقد كان يسمي طريقته وطريقة أتباعه بـ «الدعوة» ثم كان أن أنشأ مقرًا دائمًا للدعوة، كان الشيخ حسن صاحب قدرة خطابية رائعة، وكان يملك قدرًا كبيرًا من التأثير على أتباعه، ومع ذلك فقد وضع لهم أسس العمل معه، وكان الأساس الأول هو الطاعة والثقة، وقد أقنعهم بأن طريقه هو طريق الحق، وطوع آيات القرآن لتتوافق مع أفكاره، ولمنطقه العذب وحلو حديثه أقنعهم أن طاعته هي السبيل الوحيد لدخولهم الجنة.

كتب الشيخ حسن مجموعة من الرسائل، وأرسل الدعوة إلى البلاد

والأمصار لينشروا دعوته، فقد كان كل همه كسب أنصار جدد، إلا أنه أدرك أن طريق الدعوة وحدها لن يساعده كثيرًا، فالحق الذي يراه لن يحكم إلا إذا كانت هناك قوة تحميه، لذلك أنشأ نظامًا خاصًا، أخذ أفراد هذا النظام يتدربون بجدية على القتال حتى أصبحوا ماهرين فيه، ثم تحركت كتيبة الاغتيالات هذه فقتلت عددًا كبيرًا من الأفراد والمسؤولين، وكان من قتلهم رئيسًا للوزراء، وسيق أحد القتلة ويدعى طاهر إلى السجن ثم إلى ساحة الإعدام حيث تم القصاص منه.

استطاع الشيخ حسن بوسائل عديدة تغييب عقل أتباع جماعته، فاعتبروه إمامًا ملهمًا لا يقترب الخطأ منه أبدًا، وعندما مات بكوا عليه وأسرفوا في البكاء، ومن بعد موته استمروا في سياسة الاغتيالات فتعقبهم الحكام ووقفوا ضدهم.

الشخص الذي كنت أتحدث عنه في هذه الحاشية ليس حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان، ذلك أنني كنت أتحدث عن شخص آخر جاء في زمن آخر ودنيا أخرى، هو الشيعي الشهير «حسن بن علي بن محمد الصباح» وهو إسماعيلي المذهب، وقد كان متميًا في صغره كأهله للإثني عشرية، ثم تقابل مع شيخين كبيرين فأقنعاه بأن يحط رحاله في المذهب الإسماعيلي، فتفقه فيه، ثم أنشأ جماعته «جماعة الدعوة» التي عُرفت تاريخيًا باسم «الحشاشين» ومنها أنشأ فرقة الاغتيالات التي قامت باغتيال الكثيرين، كان منهم الوزير نظام الملك السلجوقي الذي كان بمثابة كبير للوزراء وبالمعنى الحديث «رئيس وزراء».

ثم إنني لست صاحب هذه المقاربة، ولكن صاحبها هو سيد قطب!!
حيث روى عنه في مذكراته «المستشار الدمرداش العقالي» القصة الآتية:
(كان سيد قطب خال زوجتي آمنة نصير، وهو من قرية موشى التابعة لأحد
مراكز محافظة أسيوط، وكان أحمد محمد موسى ابن شقيقته وشقيق زوجتي
من أتباع حسن البنا وأحد المنخرطين في صفوف الإخوان المسلمين، وكان
سيد قطب إذا جاء إلى قريته والتقى مع ابن شقيقته الإخواني ومعه عدد
كبير من رفاقه أتباع حسن البنا، كان يكثر من سباب حسن البنا أمامهم،
وفي بعض المرات سمعته يسأل ابن أخته هذا: «ماذا فعل بك حسن الصباح
وجماعة الحشاشين؟»).

كان سيد قطب كثيرًا ما يعقد مقارنات بين جماعة الإخوان المسلمين،
وجماعة «الحشاشين» الشهيرة الذين كان يتزعمهم «حسن الصباح» والذي
كان سيد قطب يرى - في ذلك الوقت من أواسط الأربعينيات - شبهًا كبيرًا
بينه وبين حسن البنا زعيم الإخوان المسلمين، فكان ابن أخته حين يسمع
خاله سيد قطب يقول ذلك عن جماعته وزعيمها، يدخل في شجار عنيف
معه، لم يكن ينتهي إلا بتدخلنا لإنهائه).

هذه المقاربة تلفت الأنظار، لا شك في ذلك، ولكنها توقعنا في حيرة
بسبب هذا التقارب الكبير، سيقول بعضنا إن التاريخ يكرر نفسه، ولكن
البعض سيقول إن التاريخ لا يكرر نفسه ولكننا نكرره في أنفسنا.



الفصل الأول

Why not?

(أشهر مرابي في التاريخ هو اليهودي «شيلوك» الذي رسم شكسبير شخصيته في مسرحية «تاجر البندقية» كان شيلوك يقرض الناس بالربا الباهظ، ولكنه كان يكره تاجرًا شريفًا يمارس تجارته بشرف، وإذ وقع التاجر الشريف الطيب «أنطونيو» في ضائقة مالية اضطر إلى اللجوء لشيلوك الكريه حتى يقترض منه مبلغًا كبيرًا، وحين مد يده إلى شيلوك قال له: أنا أكرهك وأعرف أنك خبيث، لك أن تفرض ما تشاء من فوائد ربوية على القرض مهما كانت قيمتها، فهناك بعض السفن ستأتي في المساء محملة ببضائع لي، سأعتد سأسدد لك القرض بفائدته، ولكن شيلوك فكر في الانتقام، فأقرض التاجر الشريف أنطونيو بلا فائدة على الإطلاق، ولكنه اشترط عليه أن يوقع عقدًا معه عند المحامي، يسمح فيه بأن يقطع شيلوك من جسد أنطونيو رطلًا من اللحم من المكان الذي يختاره ذلك المرابي الشيطان إذا لم يقيم بالسداد في الميعاد المتفق عليه، ووقع أنطونيو البائس على العقد، وكان من سوء حظه أنه لم يستطع سداد الدين في الموعد، فقد جاءت له الأنباء الحزينة تخبره أن سفنه غرقت، يا لها من نكبة! وجاء وقت القصاص، ورفع شيلوك الشيطان قضيته أمام «الدوق» يطلب اقتطاع رطل اللحم - محل الاتفاق - من جسد

أنطونيو، لم تنته القصة عند هذا الحد، فشكسبير هو «فارس الحكمة» ولديه القدرة على تغيير دفة الحوادث، فعندما تأزمت القصة، وصار أمرًا مقضيًا أن يهلك التاجر الطيب أنطونيو لا محالة، ظهرت زوجة صديق «أنطونيو» الوفي وتنكرت في ثياب الرجال، وارتدت روب الحمامة، وترافعت عن أنطونيو، واستطاعت إنقاذه، فقد استفادت من ثغرة في العقد دلفت منها إلى حكم البراءة، حيث إن العقد نص على حق شيلوك في قطع رطل اللحم، ولكن لم يرد فيه حق شيلوك في إراقة دم أنطونيو، فقالت له وهي متخفية في زي المحامي: خذ رطلًا من لحمه دون أن تريق دمه وإلا عوقبت وفقًا لقوانين مدينة البندقية، وستكون عقوبتك القتل ومصادرة أموالك، فأسقط في يد شيلوك، ونجا أنطونيو من مؤامرتة).



ضاق الشعب ذرعًا بهذا الحاكم الغني المتغطرس، ياله من حاكم مستبد جهول، أغلق أذنيه جيدًا فلم يسمع صيحات الشعب وآلامه، ظن أن جهازه الأمني المنيع سيحميه «فليصرخ من يريد الصراخ، ولينفعل من يريد الانفعال، فقد خلق الله لي أذنًا من طين وأخرى من عجين» هكذا كان لسان حال هذا الحاكم الطاغية، ومع إحساسه بقوة راهن على أمريكا ورئيسها، أمريكا معي حيثما أكون، وأينما تكون مصلحتي فثم وجه أمريكا «لقد تلقيت وعودًا منهم بحمايتي وحماية نظامي كله» كان هذا الوعد طبيعيًا ومنطقيًا، فهو حليفهم القوي في المنطقة، وهو أيضا أحد الكنوز الاستراتيجية لإسرائيل، فكيف يفرطون فيه؟!

اندلعت الحوادث تترى في البلاد، كان بعضها بسبب سوء الإدارة والفساد، وكان البعض الآخر بفعل فاعل، حرائق، كوارث، المئات يموتون حرقاً في حوادث مفجعة، والضحايا يسقطون وهم مخضبون بالدماء، يشتكون إلى الله هذا الحاكم وأعوانه، والمسئولية التي من المفترض أن تكون في رقبة هذا الطاغية المتبلد لا تحرك ضميره، يبدو أن السنوات الطويلة التي قضاهما جالساً متيسباً على كرسي الحكم جعلت من جسده جداراً عازلاً يفصل بين قلبه وشعبه، فهو ذلك الرجل خالي البال الذي لا يهتم، ينام ملء جفونه وشعبه يتحطم، أما هو ففي النعيم يقيم، وكيف لمن كان في النعيم أن يطرف له جفن؟ الحكم من بعده سيؤول إلى ابنه لا شك في ذلك، أمريكا العظمى وعدته بهذا، مسئول الأمن القومي بتلك الدولة العظمى قابله في اجتماع خاص بنيويورك، كان معها في اللقاء الرئيس الأمريكي، وقتها قال له ذلك الرجل المتحكم في أمن العالم: أمنك وسلامتك علينا، أعدك بأن ابنك سيكون خليفتك في الحكم، نحن نضع الآن تصوراً لكيفية تلك الخلافة، الأفضل أن تكون في حياتك، لأنك إذا مات لا قدر الله فلن يسمح العسكر بتولية ابنك وسينقضون عليه، كما أن الشعب لا يتقبل توريث الحكم لابنك، سيحتاج هذا الأمر إلى جهود مضيئة، ولكننا سننجح.

ظهر من حوارهم أن أمريكا عارفة ما يحدث داخل البلاد، ولكنها لا تعيرها التفاتاً، «مصلحتنا أن تظل في الحكم، فأنت أفضل من يرعى مصالحنا» كانت هذه هي كلمات الرئيس الأمريكي له، ولكن سقف المعارضة ارتفع في البلاد بشكل غير مسبوق، - ظهرت الحركات الاحتجاجية في البلاد، ولكن لا ضير فكل الأمور تحت السيطرة: «لدينا جهاز أمني لا مثيل له»

كان مجرد ذكر هذا الجهاز الأمني - يثير الخوف والرعب في النفوس، كانت هذه الأجهزة تستخدم التعذيب المفرط وهي تستجوب المتهمين السياسيين، حتى أن البعض كان يسقط قتيلاً من جراء التعذيب، وقتها كان من السهل تليفق التقارير الطبية التي تسند الوفاة لسبب آخر غير التعذيب، ورغم الخوف والرعب الذي سيطر على قطاع كبير من الشعب فقد امتلك البعض الشجاعة والقدرة على التضحية، استمر سقف المعارضة في الارتفاع، بدأت الطبقة المتوسطة تخرج من مكائنها في مظاهرات احتجاجية على تلك الوهدة التي وقعت فيها البلاد سياسياً واقتصادياً وأمنياً، كان الليبراليون والعلمانيون والطلبة هم الوقود الذي أجمح حالة الغضب، يا له من حاكم كنود ذلك الذي لا يبالي بالبطالة والتضخم واستشراء الفساد، ولا يلتفت لغضبة شعبه، إن الشعوب إذا غضبت خرجت، وإذا خرجت سقطت الأنظمة، لن تنفعه أمريكا، ولن تبكي عليه.

أما المفاجأة الكبرى فهي أن يد أمريكا لم تكن بعيدة عن تلك الاحتجاجات التي حدثت في البلاد، أمريكا التي تساعد الحاكم وتدعمه، بل ظلت تدعّمه عمره كله، فجأة ترتب للإطاحة به!! - يا الله ما الذي يحدث في هذا الكون؟ ما هذا العالم الغريب!! في السياسة قد يستعصي الفهم في بعض الأحيان، وفي السياسة أيضاً قد لا تكون الصورة الخارجية هي الصورة الحقيقية، فللحقيقة أحياناً أكثر من وجه، وقد تكون كل الوجوه زائفة ما عدا الوجه الخفي الذي لا يراه أحد، الثورة قادمة قادمة، وإذا لم يكن من الثورة بد فمن الغباء أن تكون أمريكا بعيدة عنها.

قبل الثورة بأعوام قليلة بدأت أمريكا في تقديم يد المعاونة لبعض الحركات

الاحتجاجية، كانت هذه المعاونة تتم في الخفاء، كل شيء في الخفاء، بعيداً عن العيون، حتى عن عيون بعض الكبار في البيت الأبيض، هذا نظام سيسقط حقاً، كل علوم السياسة والاجتماع تؤكد ذلك، وقد كان للخطايا التي وقع فيها «الطاغية» أكبر الأثر في دفع الأمور ناحية الحاققة، هذه هي منظمة العفو الدولية «التابعة أصلاً للأجهزة المخبرانية البريطانية» تضع التقارير التي تدين إهدار هذا الحاكم الطاغية لحقوق الإنسان، والنظام الأمريكي يهتم - ظاهراً - بهذه الحقوق، ويتحدث كثيراً عن الديمقراطية، والتداول السلمي للسلطة، اللسان الأمريكي بارع في الكلام عن الحقوق، والنظام الأمريكي بارع في هضم هذه الحقوق! أمريكا أمة التناقضات.

كانت تقارير «العفو الدولية» بمثابة حجر ثقيل، أمسكته جهات أمريكية كثيرة وأخذت تلوح به في وجه هذا الحاكم المستبد، بدأت الأصوات في أمريكا ترتفع: كيف لأمريكا راعية الحريات أن تدعم هذا الطاغية؟! ولكن الرسائل السرية التي كان يرسلها كبير مستشاري الأمن القومي في أمريكا لهذا الحاكم كانت مطمئنة: «لا تجزع نحن معك، تلك الأصوات التي تهاجمك في الإعلام الأمريكي لا تستهدف شيئاً إلا الرأي العام فقط، إلا أن الناخب الأمريكي في النهاية معنا في سياسة دعمك لأننا كتبنا من خلال رجالنا في الصحافة، وتحدثنا من خلال رجالنا في الإعلام المرئي، أن بديلك هم الجماعات الإسلامية المتطرفة».

هدأ بال الحاكم وقر عيناً بهذا الذكاء الأمريكي في معالجة الحوادث والأحداث، وزاد هدوءه باله عندما قرأ التقارير التي قدمتها له جهاته الأمنية: «الأمور مستقرة ولا تهديد للحكم، هذه المعارضة ما هي إلا مجموعة قليلة

ليس لها أي تأثير» ولكن الحاكم الذي ظن أنه فهم السياسة الأمريكية أوصى رجاله وإعلامه بتصدير صورة معينة، ليس القصد أن يتم تصدير الصورة للشعب في الداخل - فالشعب لا يهتم في شيء - ولكن النظام الأمريكي كان هو مقصده: «أمريكا لا تحب الإسلاميين، هل هناك من يشك في ذلك؟! قولوا إن البديل لي هم تلك الجماعات المتطرفة، اكتبوا هذا في كل مكان، واتركوا هؤلاء الإسلاميين مساحة صغيرة للحركة، يجب أن تعلم أمريكا يقينًا أن مصالح إسرائيل مهددة، إذا ما وصل هؤلاء إلى الحكم (تكون الطامة كبرى حين يظن الغبي أنه ذكي، هل هذا رأيك أيها الطاغية؟) أمريكا لا تحب الإسلاميين!! والإسلاميون يهددون مصالح إسرائيل!! يا أخي يجب أن تعلم أن كل شيء تحت السيطرة، الآن ثبت عليك قول الشاعر: يقولون هذا عندنا رأي.. ومن أنتم حتى يكون لكم رأي!«.

الأمر في أمريكا مختلف عن الذي يدور في ذهن البسطاء، فقد كانت هناك ثمة اتصالات بالإسلاميين تجري في الخفاء، لا شيء في العلن أبدًا! وفي دائرة «البيت الأبيض» كانت هناك قلة هم من علموا بالاستراتيجية الكامنة وراء اتصالات المخابرات الأمريكية المستمرة برموز إسلامية، أعلاهم هو ذلك الرجل صاحب اللحية البيضاء والذي سيصبح المرشد فيما بعد، كانت المعلومات سرية للغاية وليس من المقدر أن تصل هذه المعلومات لكل رجال السياسة في إدارة الحكم، إذ كانت قاصرة على الرئيس الأمريكي وعدد محدود من المخابرات، ففي أروقة المخابرات لا تقدم المعلومات إلا على أساس «المعرفة على قدر الحاجة» وعلى ذلك أدى بعض الموظفين في درجات عادية لدى وزارة الخارجية، والبتاجون، والمخابرات المركزية،

عملهم في إطار من السرية الجزئية أو التامة، وصلتهم التقارير الطبية التي تفيد أن الطاغية - كما كانوا يطلقون عليه - مريض بالسرطان، وأن جسده منهك بفعل المرض، وأن الذي يقيه على قيد الحياة الرعاية الطبية الكبيرة التي يلقاها، الآن يجب ترتيب الأمور ليصل إلى الحكم حليف آخر، حليف سيبدو من صورته الظاهرة أنه من خصوم أمريكا، ومن أعداء إسرائيل، ولكن لا شيء في السياسة محرم، والضرورات تبيح المحظورات، فلتستمر سياسة «الأقوال» في طريقها الذي لا ينضب، فالأقوال لا تغير واقعاً، وحين يصل الإسلاميون للحكم لن يتغير شيء، وستستمر الحروب الكلامية، فقد تكون لهذه الحروب ضرورة أمريكية.

خطة المخابرات الأمريكية لمساعدة الإسلاميين للوصول إلى كرسي الحكم كانت تحت عنوان (Why not?) كبير مستشاري الأمن القومي هو العقل المدبر لها، والمتمم لآلياتها، كانت محاور الخطة الرئيسية تقوم على ضرورة استخدام «البطاقة الإسلامية» لزرع الفتنة في المنطقة وتقسيمها، وفي سبيل التمهيد لذلك طلب مستشار الأمن القومي رسمياً من لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ إجراء «دراسة مستفيضة» على الأصولية الإسلامية نظراً لما لها من «أثر سياسي متعاظم» في أنحاء كثيرة من العالم، ووفقاً لما نشرته صحيفة «واشنطن بوست» فإن مستشار الأمن القومي كان قبل ذلك قد وجه الأوساط الاستخبارية رسمياً لعمل دراسة متعمقة على هذه الظاهرة.

لم يكن من السهل أن يلمح أحد أن خطة (why not?) أقيمت على فكرة استقرأها الفيلسوف والمؤرخ الإنجليزي الشهير برتراند راسل المتوفى عام 1970، كتب فكرته في كتابه الشهير «أثر العلوم في المجتمع» الذي خرج

إلى النور عام 1951، قال برتراند راسل: «يتزايد سكان العالم حاليًا بمقدار 58 ألف نسمة في اليوم الواحد، ولم يكن للحرب - حتى الآن - أثر عظيم على الحد من هذه الزيادة، لقد ثبت أن الحرب مخيبة للآمال في هذا الخصوص حتى الآن، لذلك يجب أن يبحث أصحاب العقول الراجحة عن وسائل بديلة للحرب بين الدول، حيثئذ سيكون من السهل أن يتحول جزء كبير من العالم إلى قطعان من الفلاحين التي خبرها الأجداد في القرون الوسطى، ويكون من السهل على الدول الصناعية الكبرى أن تقود العالم».

فكرة «ترييف العالم» وجعله سلة غذاء للدول الصناعية الكبرى، هي الفكرة التي استحوذت على عقل الإدارة الأمريكية، يجب أن يتحول البشر في معظم العالم إلى قطيع من الفلاحين الأجراء، أو العبيد، كل عملهم هو إعداد «مائدة الطعام» للسيد الصناعي الكبير.

كيف تطورت فكرة برتراند راسل وأصبحت خطة كاملة؟ كان ذلك عام 1975 حيث (خرج إلى الوجود «مشروع مجلس العلاقات الخارجية الأمريكية لحقبة الثمانينيات» وهو استقراء خططي للمستقبل جاء في ثلاثين مجلدًا، أما الذين شاركوا في هذا العمل الضخم فهم أكبر العقول الاستراتيجية في أمريكا، كان منهم ساير وسفانس، وأنطوني سلومون، وهارولد براون، وبريجينيسكي).

يتلخص هذا المجلد الضخم في كلمتين، هما «التفكيك المنضبط» لاقتصاد العالم، فكرة التفكيك هذه تقوم على إشاعة الفوضى الاجتماعية، والحروب الإقليمية بين الجارات، والحروب الأهلية في الدولة الواحدة، وسيترتب على

هذا زيادة نسبة الوفيات في العالم، فيما يشبه الإبادة، وستكون هذه الإبادة بيد سكان كل منطقة، لا بيد الدول الصناعية الكبرى، ولكي يؤتي المشروع ثماره يجب أن يكون تفكيك دول المنطقة عن طريق إشاعة الفتن الدينية والعرقية والحدودية، فلينقسم الشرق الأوسط إلى «سنة» و«شيعة» ثم فلينقسم العالم السني إلى أنصار الدولة الإسلامية وخصومها، ومن الأفضل تضخيم الروح العنصرية بين أبناء الدولة الواحدة، وليكن ما يكون.

ثم ماذا بعد؟ ما الذي سيحدث، وكيف سيستفيد «العالم الصناعي العملاق» من هذا الأمر؟ ستقوم حروب في المنطقة لا شك. وفقاً لنبوءة خطة التفكيك - وستشتعل فتن طائفية وعرقية حينما يتم تغذية مدخلاتها، وأكبر تغذية ستكون بتولية الإسلاميين الحكم في بيئة صالحة للاضطراب والاشتباك العقائدي، ولكن هل ستجني أمريكا من تلك الحروب أرباحاً؟ الربح هو الذي يدير العقلية الأمريكية، هو المسيطر على طريقته في الإدارة، سواء كان الحكم عندهم «جمهوريًا» أو «ديمقراطيًا» فهو هو، أمريكا في كل الأحوال هي المرابي «شيلوك» بصورته الحديثة المتطورة، هي المرابي الذي يريد اقتطاع أرطال اللحم من جسد العالم، وفي الشرق جسد على أتم الاستعداد لتقطيع لحمه، أذكر الآن وأنا أكتب هذه السطور مقالة كتبها الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل عن أمريكا قال فيها - وفق ما بقي في ذاكرتي من أفكار هذا المقال - عبارة صارخة موحية، هي «أمريكا ليست دولة بالمفهوم الذي نعرفه للدول والأمم ولكنها شركة استثمارية كبرى، تدير نظامها بعقلية التاجر الرأسمالي الكبير» لذلك فإن خطوات أمريكا في السياسة لا تبحث إلا عن الربح، ولا تتجنب إلا الخسارة، فكيف ستكسب من سياسة تقسيم الشرق وتقطيع لحمه؟

كانت طريقة الاستفادة واضحة في المجلدات التي احتوت على نبوءات أمريكا «الدولة الراسبوتينية» إذ ورد في مجلدات النبوءة «إن النظام المالي والاقتصادي العالمي يحتاج إلى إصلاح كامل بما يضمن وقوع قطاعات دواليبه الرئيسية، مثل الطاقة وتخصيص الأموال والطعام، تحت إدارة عالمية واحدة، على أن يتولى الإشراف على تلك الآلية المستحدثة - فريق من المديرين التجاريين المستقدمين من شركات النفط متعددة الجنسيات والبنوك الأنجلوأمريكية، وتهدف إعادة التنظيم على الوجه المذكور إلى القضاء على مفهوم الدولة - الوطن - وخلق مفهوم آخر يقوم على إشراف عالمي موحد يكون في يد الأمم المتحدة وصندوق النقد الدولي». الأمم المتحدة وصندوق النقد الدولي هما في الحقيقة جهتان مخلوقتان من رحم أمريكا الشيلوكية.

«ولكي يتحقق مفهوم الإشراف العالمي يجب أولاً تقسيم العالم إلى مناطق أو تكتلات منفصلة ذات عملات إقليمية، ويتولى صندوق النقد الدولي مهام الإدارة الاقتصادية لهذه المناطق، ويجب عليه أن يفرض شروطه، ولكي يستطيع فعل ذلك ينبغي أن يدخل عالم الشرق الأوسط في أزمات اقتصادية طاحنة تستنفد موارده وثرواته، حينئذ تكون لصندوق النقد الدولي سيطرة شبه مطلقة على تدفق العملة الأمريكية والأوروبية، ولن يتم ذلك إلا إذا تم تقسيم دول الشرق إلى مناطق صغيرة متحاربة».

استطردت النبوءة الراسبوتينية في شرح النتائج، فقالت (سينشغل العالم الشرق أوسطي بنفسه، وسيندمج في صراعاته، ولن يلتفت لتطوير نفسه وتحديث معارفه، وسيعود حتماً للوراء عشرات السنين، وبذلك سيظل في حاجة شديدة إلى دعم أمريكا له عن طريق مؤسساتها، وسيظل تابعاً ذليلاً

لا يستطيع أن يرم أمراً إلا من خلالنا، وسنضع الرؤساء ونستقدم الحكام كما نشاء، وسيجبرهم صندوق النقد الدولي على اتباع السياسات الاقتصادية التي نريدها، وتتوقع دراسات البنك الدولي ووثائق صندوق النقد الدولي الرسمية أن الأثر المترتب على هذا البرنامج سيتمثل في انخفاض حاد ومفاجئ في أعداد السكان بدول العالم الثالث، وفي هذا الإطار، يتوقع «التقرير العالمي» الصادر برعاية وزارة الخارجية الأمريكية - بلوويكر - أن هذه السياسة حين يتم تنفيذها على مستوى العالم ستؤدي إلى انخفاض بنحو 3 مليارات نسمة من تعداد السكان العالمي بحلول عام 2000).

انتهت الخطة المرسومة وجاء وقت التنفيذ، الآن جاءت ساعة الجدد، وما كان يتم في الخفاء جاء الأوان ليصبح في العلن، فحين ظهر أن الطاغية سيرحل سيرحل، أعلن مستشار الأمن القومي عن رؤيته على الملأ، فقال: إن واشنطن سترحب بقوى الصحوة الإسلامية في الشرق الأوسط؛ لأن القوة الإسلامية - كفكرة عامة - أيديولوجية معارضة بطبيعتها للقوى السائدة في المنطقة.

وبعد هذا التصريح أرسل مستشار الأمن القومي للطاغية رسالة مفعمة بالمحبة: لا تقلق نحن معك ولن يستطيع أحد تحريكك من فوق كرسي الحكم، نحن نرتب لكي يكون ابنك هو الحاكم القادم، إلا أن قلب الطاغية ارتجف لأول مرة، وكرسي الحكم من تحته ارتجف، وها هي الثورة تشتعل في البلاد، خرجت الجماهير في مظاهرات صاخبة في ذات التوقيت في كل المحافظات، وقفت المظاهرات في الميادين الكبرى، لن يحركها أحد حتى يسقط الطاغية، كانت الهتافات الغاضبة تطالب بسقوط النظام، وترفع

شعارات «العيش والحرية والعدالة الاجتماعية» يبدو أن هذا الشعار كان موحداً في كل الثورات، فقد كان هو بعينه نفس الشعار الذي هتفت به الجماهير الثائرة إبان ثورة الشعب الروسي عام 1917، لم تكن الثورة آنذاك «بلشفية» ولكنها كانت لكل الشعب ثم استولى عليها الشيوعيون، ذكر الكاتب الروسي العبقرى فيكتور كرافتشينكو في كتابه الفريد «آثرت الحرية» أن شعار ثورة الشعب الروسي كان «العيش والحرية والعدالة الاجتماعية» ولكن كان للثورة مرحلة ثانية استطاع فيها لينين وحزبه الشيوعى الاستيلاء على الثورة وتحويل مسارها!

الثورات مثل البركان، لا يستطيع أحد التحكم في فوهتها إذا انطلقت، لذلك حينما تحركت مظاهرات ضخمة ضد الطاغية في أواخر يناير، وازدادت حدة في فبراير، قامت الثورة على «الطاغية» ونظامه، لم يستطع الأمن على كثرته إيقاف هذا الغضب الهادر، فكان أن سقط الطاغية، ومن بعده آل الحكم إلى زمرة الإسلاميين، لندخل إلى المرحلة الأولى من تجريف البلاد.

انتظر لا تغادر هذه الصفحات سريعاً، بل عد لقراءتها مرة ثانية، فالحديث لم يكن متعلقاً بثورة مصر ضد نظام مبارك، ولا بثورة تونس ضد حاكمها بن علي، ولا بثورة اليمن ضد رئيسها علي عبد الله صالح، ولكنني كنت أتحديث عن الثورة الإيرانية التي نشبت عام 1979 وترتب عليها حكم الملالي وآيات الله، أبطال هذه الحكاية الحقيقية هم شاه إيران محمد رضا بهلوي، والرئيس الأمريكى جيمى كارتر، وبريجنسكى كبير مستشارى الأمن القومى الأمريكى فى ظل حكم كارتر، وما زالت له حتى الآن هيمنة على سياسات الإدارة الأمريكية، جنباً لجنب مع كيسنجر الداهية، يبقى أن تعلم أن الجهاز الأمنى

لبهلوي والذي كان يثير الرعب في النفوس هو السافاك، والابن الذي كان محمد رضا بهلوي يريد توريث الحكم له هو ولي عهده الشاب وقتها «رضا بهلوي» ابن الإمبراطورة التي أوردت زوجها موارد التهلكة «فرح ديبا».

أما طائفة الإسلاميين التي وصلت إلى الحكم من بعد بهلوي فهي مجموعات الملاي وعلى رأسها «الإمام الخميني» ومعها جماعة «فدائيو الإسلام» الشيعية التي أسسها نواب صفوي الذي كان قريبًا من الإخوان المسلمين، وقطعًا ستعلم أن الشيخ صاحب اللحية البيضاء الذي تواصلت معه أمريكا عن طريق أجهزة مخابراتها هو الخميني الذي أطلق على نفسه بعد أن وصل للحكم لقب «المرشد الأعلى»! وكان من تخطيط المخابرات الأمريكية لدعم الثورة الإيرانية التي أطلقوا عليها «الإسلامية» ترتيب لقاء بين الخميني الذي كان في منفاه في فرنسا، وبين بعض قيادات الإخوان المسلمين، كان على رأسهم «يوسف ندا» رجل المخابرات البريطانية صاحب الأدوار العالمية الغربية التي كان يتحرك لها بأوامر من قياداته في المخابرات، ومن بعد هذا اللقاء كان الدعم الإخواني لثورة الخميني، إذ لم يعرف العالم السني تأييدًا لهذه الثورة الشيعية من حركة تنتسب لأهل السنة غير الإخوان!

وقد كان بريجنسكي كبير مستشاري الأمن القومي في عهد كارتر هو صاحب خطة تسليم الحكم للإسلاميين والمشراف على تنفيذها⁽¹⁾.



(1) انظر كتاب «رهينة في قبضة الخميني» للكاتب الأمريكي روبرت دريفس طبعة سنة 1980 .

متى بدأت إرهابيات الثورة الإيرانية؟ لم تبدأ من الشارع الإيراني، ولم تبدأ من المساجد، إذ كانت الاحتجاجات خافتة الصوت والأثر، ولكن بدأت إرهابيات الثورة الخمينية من معهد «تافستوك» البريطاني والذي يضم نخبة متميزة من علماء «السلوك» وقد كان هذا المعهد - من خلال خبرائه - متخصصاً في تصنيع الرأي العام، وتشكيل الوعي في الاتجاه الذي يريدون، وذلك من خلال وسائل غسيل مخ جماعية، والبرمجة الاجتماعية، والسيطرة على الجماهير من خلال إحداث حالة من الهلع يسهل على الناس فيها قبول الأفكار المطلوبة، وقد كان لهذا المعهد أكبر الأثر في إنشاء مراكز على غرارها في أمريكا، مثل معاهد كارنيجي، وروكفلر، وستانفورد، ومورجان، إذن ماذا فعل معهد تافستوك بخصوص ثورة إيران؟

(بدأت فرق من الأخصائيين النفسيين الاجتماعيين من معهد تافستوك في تحديد خصائص «الثورة» معتمدين في ذلك على أجهزة الكمبيوتر وعدد كبير من الملفات المتعلقة بتجارب سابقة تخص عملية الغسل الشامل للأدمغة في إيران. كيف سيستجيب الإيرانيون إلى دعوة تصدر من ملا عاجز طاعن في السن تحركهم للثورة؟

كيف سيستجيب لذلك أهل الريف، أو العمال المهرة أو الطبقة الوسطى، أو المفكرون؟ وأي أسلوب أنفع للطلاب للزج بهم في الثورة؟ وما هي نقاط الضعف لدى الشرطة والقوات المسلحة؟ كل ذلك كان لابد من تحليله ووضعها في الاعتبار، وقد كان الفريق الذي أسندت إليه تلك القضية رجالاً مخضرمين في أساليب الحرب النفسية المتقدمة؛ نظرًا لأن خبرة المخابرات السرية البريطانية تعود إلى أيام الحرب العالمية الثانية، وخذ لذلك مثلاً الخبير

«مارفنزونيس» الأستاذ بجامعة شيكاغو الذي ألف كتاب (النخبة السياسية في إيران) فقد استقدم أمثال هذا الخبير لوضع تقارير إيضاحية لطريقة التصرف التي يمكن أن تسلكها الطبقات الإيرانية ومجموعات معينة من الشعب تجاه تفعيل الاحتجاج ونقله إلى خانة الثورة⁽¹⁾.

لابد أن غطرسه الشاه وثقته في قوته وظنه أن إيران في عهده هي جزيرة الاستقرار في المنطقة، كان لها أكبر الأثر في نجاح الثورة، كما أن ثقته التي كانت في غير محلها - في جهازه الأمني السافاك - كانت هي التربة الخصبة التي تحركت فوقها الثورة، وكان اغترار الرجل بأمريكا هو المسار الأخير في تابوت جنازته! ولأن «السياسة خداع» فقد مارس الرئيس الأمريكي كارتر عملية خداع الشاه على أعلى مستوى إذ قال في عام 1978 وهو يناصر الشاه: إن إيران هي جزيرة الاستقرار في الشرق الأوسط المضطرب. فهل من بعد تصريحات كارتر هذه مكان للقلق؟! في السياسة يجب أن يتحول جسدك كله إلى عيون، فلا أمان للدول العظمى، ولا أمان للأصدقاء والرفاق، ولكن بهلوي كان يجهل هذا، لذلك غفل عن الذي كان يجري في السر، ووضع في بطنه «بطيخة أمريكاني» ومن الغريب أن فريق بريجنسكي كان ينفذ على قدم وساق - وقت تصريحات كارتر المطمئنة للشاه - خطة (why not?) والتي كانت تستهدف الإطاحة بالشاه صاحب التاج من فوق الحافة واستبدال العمام السوداء به.

وقع الشاه في غفلة، والغافل لا مستقبل له، ولكنه تنبه بعد فوات الأوان

(1) رهينة في قبضة الخميني، روبرت دريفس طبعة 1980 ص 21.

وبعد أن جرفه السيل الأمريكي، فيذكر الكاتب الراحل أنيس منصور أنه عندما ذهب لزيارة الشاه في مستشفى القوات المسلحة - وكان ذلك قبل أن يلفظ الشاه أنفاسه ويقضي نحبه بسويغات - همس الشاه في أذنه وأنفاسه لهثى من فرط المرض: «قل للسادات ألا يثق في أمريكا أبدًا فحينما كان كارتر يرافق زوجتي في البيت الأبيض وكأنه صديق حميم، كان في ذات الوقت يخطط للتخلص مني».

و حين لا تحسب حسابًا لشعبك فإنك مغادر بلا شك، لذلك فإن أمريكا ومخابراتها لم يكن في إمكانها التخلص من الشاه لو كان متحصنًا بشعبه، لو كان عادلاً و شريفًا، ولكن الحكام في معظم دولنا يتحصنون بأمنهم وجيشهم، ومن فوق هذا وذاك «أهمهم أمريكا» فإذا تأمر عليه جيشه وجهازه الأمني، وتخلت عنه أمريكا، فإن الشعب الذي ضج منه سيخلعه كما يخلع الرجل خاتمه، لذلك أخذ موقف الشاه بهلوي يزداد سوءًا بعد سوء قبل عام من الثورة حين سكت عن الفساد، وأصم أذنيه عن استقبال أصوات شعبه المطحون، ثم عمد إلى تغيير بعض الوزراء من أصحاب الكفاءة والشعبية بآخرين، كما كان الحال مع رئيس الوزراء عباس أمير هويدا، ليعين بدلًا منه جمشيد آموزيجار الذي شغل من قبل مناصب وزارية متعددة مثل الداخلية والمالية والمياه والنفط، وحين وضع آموزيجار قدمه على رأس الوزارة اتبع سياسة تحويل الاستثمارات إلى الزراعة بعيدًا عن الصناعة والتكنولوجيا المتطورة، وفوق ذلك كله اتخذ آموزيجار موقفًا معاديًا مستفزًا تجاه رجال الدين الملاي وكأنه يريد إثارتهم وتحريك مشاعرهم ضد الشاه! وكان من سياساته الغريبة التي انتهجها وقف الأموال التي كان يدفعها النظام آنذاك

إلى رجال الدين، وعلى ما يبدو كان أموزيجار مصممًا على إدخال الشاه في عيش الدبابير!! وبذلك خرج رجال الدين «الملالي» من كهوفهم وسراديبهم، وهجروا تحالفهم السري مع الشاه الذي أخذ يناصبهم العداء من خلال رئيس وزرائه، وبهذا ضمنت المخابرات الأمريكية، ومعها معهد تافيستوك البريطاني، دخول رجال الدين إلى رقعة الثورة التي بدأت تزداد اتساعًا، ولعل الصورة واضحة الآن، فرئيس الوزراء الجديد «أموزيجار» البهائي ذو الأصول اليهودية، الذي تلقى تعليمه في أمريكا، والذي تخرج في جامعة «كورنيل» بنيويورك، كان مبعوثًا خفيًا لتأجيج حالة الغضب ضد النظام كانت تصرفاته الظاهرة تبدو للذي يرى الصورة الخارجية وكأنه يدافع عن نظام سيده الشاه ضد «القوى الظلامية»، في حين أن الصورة الخفية تختلف كثيرًا في تفاصيلها، ويبدو أن معهد تافيستوك «السلوكي» كان بارعًا في توجيه أموزيجار لاتخاذ قرارات بعينها، من شأنها أن تزيد من حالة الغضب وتوسع من رقعته، وكان أسوأ ما فعله «أموزيجار» ضد الشاه، وأفضل ما فعله لصالح الثورة، هو قيامه عام 1978 بإصدار أوامر للشرطة بالإغارة على منزل الزعيم الديني «آية الله شريع تمنداري»⁽¹⁾ كان هذا الزعيم الديني صاحب شعبية كبيرة، وهيمنة روحية على الشيعة، فقد كان مرجعًا دانت له بالتبعية شيعة إيران والعراق ولبنان وباكستان والهند، فإذا بأموزيجار البهائي يوجه إهانة شديدة للشيعة باقتحام منزل رجل دين من طراز رفيع!! كانت

(1) مرجع شيعي إيراني، تولى المرجعية عام 1961 كانت له أدوار سياسية في إيران والعراق، دخل في خصومة مع الخميني بعد الثورة بسبب اختلافهما في الرأي بشأن ولاية الفقيه فحدد الخميني إقامته ومنعه من مغادرة بيته إلى أن مات عام 1986 عن واحد وثلاثين عامًا.

تصرفات أموزيجار دافعًا كبيرًا للثورة عن طريق إثارة سلوك المتدينين ودفعهم للغضب، وكان أن أقال الشاه أموزيجار في أغسطس عام 1978 إلا أن هذه الإقالة لم تساعد على تهدئة الشارع ولا تهدئة الملاي وتسكين نائرتهم.

كل ذلك كان مدعاة لتفجر السخط العام، وقد بدا الشاه مع ذلك وكأنه غير مبالي بالبركان الذي ينشط على مقربة منه شيئًا فشيئًا، يكفيهِ اطمئنانًا أن صديق طفولته «حسين فردوست» هو الذي يدير جهاز المخابرات الإمبراطورية «السافاما» وقد كان قبلها وكيلاً للجهاز الأمني الخطير «السافاك» وفردوست رجل أمن من طراز رفيع، ومعه لا يمكن أن يخشى الشاه على ملكه، ولكن في عالم السياسة لا ينبغي لحاكم أن يثق في صديق طفولته ثقة مطلقة، بل ينبغي أن يسير معه بعيون مفتوحة، فالقلب قُلْبٌ، والنفس قلابة، إلا أن الشاه لم يكن عارفًا بعلوم النفس البشرية وخباياها، فظل على حاله يثق ثقة كاملة في جهاز السافاك، وجهاز السافاما، وكان ذلك هو أكبر أخطائه جميعًا، ولا شك أن آلام الشاه كانت مضمّنة إلى حد كبير، لم يكن ألم الجسد الذي استشرت فيه الأورام السرطانية هو الذي يقض مضجعه ويسهر ليلاليه، ولكن ألم الخيانة هو الذي يدوم ولا ينقطع، تهون آلام الجسد أمام آلام النفس، فالآلام الجسد منها كانت تخدرها المسكنات، ولكن آلام النفس لا تُسكّن لها.

كان الخائن الآخر الذي اغتتم الفرصة وطعن الشاه هو صديقه «بهبهايان» الذي كان يستثمر له أمواله في أوروبا، كانت ثروة الشاه طائلة، وبهبهايان رجل تجارة جاذق، وتابع أمين للشاه، ولكن هذا الصديق المخلص انتهك صاحبه، إذ بعد الثورة - وفقًا لشهادة الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل -

قال للشاه: لقد ضاع من ثروتك سبعين مليون دولار، صرخ الشاه: ويلك، أين ذهبت؟ هل وقعت في بلاعات المجاري!! ولم يتلق الشاه إجابة فقد هرب صديقه بهبهايان وسكرتيرته وهو يحمل معه الملايين والمجوهرات، وكأنه وقع على كنز «علي بابا» ولكننا لم نكن نعلم أن علي بابا لص، نعم كان علي بابا لصًا ولكننا فرحنا بسرقاته لأنه كان يسرق من لصوص.



هل التاريخ يكرر نفسه؟ لا أظن، ولكننا لانتبر من أخطاء السابقين فنقع في مثل ما وقعوا فيه، فنكرر نحن التاريخ ولا يكرر هو نفسه، في مسرحية يوليوس قيصر لشكسبير يقع قيصر مضرجًا بدمائه من طعنات المتآمرين الذين دعوه لاجتماع في مجلس الشيوخ، وكانت لحظة فارقة، ودهشة مذهلة أصيب بها قيصر عندما تقدم منه صديق عمره «بروتس» ليطعنه الطعنة القاتلة، تخرج صوت يوليوس قيصر وهو ينظر بأسى وألم إلى صديق عمره، وأغمض عينيه حتى لا يرى الحقيقة وهو يقول: حتى أنت يا بروتس!! Even you, Brutus أراد بروتس أن يبرر لنفسه فعلته فقال: إني أحبك ولكنني أحب روما أكثر، فارتسمت ابتسامة ساخرة على وجه قيصر الحزين وقال: إذن فليمت قيصر.

ليس قيصر فقط هو الذي تعرض للخيانة، بل ظل البشر يكررون قصص الخيانة، ولا يزالون يكررون، فنظن أن التاريخ يُعيد نفسه، ولكننا نحن الذين نستعيده ولا يستعيد هو نفسه، فمنذ ما يقرب من عشرين قرنًا قام يهوذا الأسخريوطي التلميذ المقرب للسيد المسيح بالاتفاق مع اليهود على

تسليمه لهم مقابل صرة من المال، وفي العصر الحديث وفي مصر أرض الكنانة قام بدران الصديق المقرب من أدهم الشرقاوي بتسليمه للإنجليز، وغير هذه القصص كثير وكثير، حتى كأنك قد تظن أن في كل عصر المئات من النسخ المكررة من قيصر والمسيح وأدهم الشرقاوي، والمئات من النسخ المكررة من بروتس ويهوذا ويدران!

ترى هل كان حسين فردوست صديق العمر للشاه هو بروتس العصر الحديث؟ ولد فردوست عام 1918 في طهران من أسرة عريقة في المجال العسكري، إذ كان والده ضابطاً في قوات الدرك وكان هو مولعاً منذ صغره بالعسكرية، وعندما حل عام 1925 التحق فردوست ابن السبع سنين بمدرسة «نظام» الابتدائية، وهي مدرسة كانت مخصصة لأبناء الصفوة، وفي العام نفسه التحق الطفل الصغير محمد رضا بذات المدرسة، ولأن الطفل الصغير رضا لم يكن له أصحاب، وكان والده قد أصبح إمبراطوراً لإيران وأعطى لنفسه لقب «بهلوي» وابن الإمبراطور ينبغي أن يكون له أصدقاء من أبناء «طبقة النبلاء والعسكريين الكبار» فلذلك وقع الاختيار على الطفل حسين فردوست كي يكون صديقاً لابن الإمبراطور، وكان من ضمن معايير اختيار فردوست لكي يكون صديقاً لابن الإمبراطور أنه كان من أذكى تلاميذ المدرسة.

ومنذ ذلك الحين أصبح فردوست صديقاً لمحمد رضا ومخزناً لأسراره، وعندما توجه محمد رضا إلى سويسرا عام 1931 من أجل الدراسة رافقه فردوست ليكون رفيق رحلته وتابعه الأمين ومساعدته في تحصيل الدروس، وكانت العلاقة بينهما قد صارت وثيقة إلى حد كبير بحيث لا تستطيع على مدار تاريخ محمد رضا بهلوي أن تجد له صديقاً إلا فردوست هذا فقط، هو

الصاحب الوحيد المقرب المتفاهم المحب، وفي عام 1936 عاد الصاحبان من سويسرا ليلتحق فردوست بعدها بالكلية العسكرية ليستكمل مشوار أسرته العسكرية.

ولأنه لا شيء يبقى على حاله في هذا العالم، والله سبحانه وتعالى يُغيّر ولا يتغير، جاء عام 1941 المؤلم للإمبراطور الأب رضا بهلوي، ففي هذا العام دخلت قوات الحلفاء إلى إيران فقامت هذه القوات بنفي الإمبراطور رضا خان بهلوي من البلاد، وحولت مسئولية الجيش إلى الابن محمد رضا بهلوي، الذي قام بتشكيل لجنة عسكرية عليا لدراسة تقدم الحلفاء، وكان من الطبيعي أن يكون فردوست الصديق الصدوق لمحمد رضا عضوًا رئيسيًا في هذه اللجنة العليا.

كان نفي الإمبراطور مقدمة لخلعه من الحكم وتولية ابنه الشاب الصغير، وحدث هذا بالفعل، وأصبح الابن محمد رضا إمبراطورًا لإيران، وحين نظر الإمبراطور حوله وقع في حيرة، بمن يستعين؟ وعلى من يستند في رحلة الحكم؟ إلا أن حيرته لم تدم طويلًا، فقد كان برفقته الصديق المخلص حسين فردوست فكان أن جعله مديرًا لمكتبه ومستشارًا له وأنيسًا لوحده، ولم يخيب فردوست ظن الشاه الجديد فاضطلع بدور كبير في رفع معنوياته ودعم نفسيته، ثم ارتقى لدور أكبر من ذلك فكان أن أصبح بين ليلة أو ضحاها همزة وصل بين الشاه قليل الخبرات وبين البريطانيين.

ولم يمر عام على تولية الشاه الشاب الجديد حتى قام فردوست بتأسيس الحرس الملكي لحماية الشاه وقصوره، ومع مهام حراسة الشاه وقصوره

وحكمه كله وضح أن ثقة الشاه بفردوست أصبحت متنامية فوصلت إلى مدى لا سقف له، وكان من ناتج هذه الثقة أن أسند له الشاه ملفات أخرى فأصبح ممثلاً له إبان حركة تأميم النفط، وبعد انقلاب عام 1953 أدرك الشاه - بتوصية من بريطانيا - أن تأسيس جهاز أمني سري سياسي له أهمية قصوى للحفاظ على حكمه، فكان فردوست هو أحد الكبار الذين قاموا بتأسيس السافاك، وتلقى من أجل ذلك، هو وآخرون، تدريبات مكثفة في المخابرات البريطانية، ومن وقتها أصبح فردوست وكيلاً للسافاك وأصبحت المخابرات البريطانية هي المشرقة المباشرة على السافاك، وعندما استشعر الشاه أن الأمور في إيران سريعة التآزم فكر ودبر، ثم طلب من صديق عمره فردوست أن ينشئ جهازاً مخابراتياً تكون سلطاته أعلى من السافاك نفسه، على أن تكون مهمته الرئيسية التجسس على الملالي والطبقات العليا في المجتمع بكافة أشكالها السياسية، فأنشأ فردوست جهاز «السافاما» الذي كان بمثابة السياج الأمني للشاه، كان هذا الجهاز هو أعلى قمة الهرم الإداري لجميع المؤسسات الأمنية والمخابراتية في البلاد بما في ذلك السافاك، لذلك كان السافاما هو عين وأذن محمد رضا بهلوي.

ولكن من الذي قال إن حسين فردوست كان بروتس الذي طعن قيصر العصر الحديث محمد رضا بهلوي؟

أدرك الشاه متأخراً الدور الذي قام به صديقه فردوست في تأجيج الثورة، عرف متأخراً أن فردوست كان يؤلب عليه كبار ضباط الجيش والمخابرات، وكان يقول لبعض من يثق فيهم من تلك القيادات «لقد قرر الأمريكان التخلص من الشاه، علينا أن ننجو بأنفسنا، أتراك تلحق بنا؟».

أدرك الشاه وأخته الأميرة «أشرف» بعد قيام الثورة أن الجنرال فردوست كان هو الخائن الأكبر، كان هو يهوذا الذي سلمهم لثورة الخميني، وقد ذكرت الأميرة أشرف في كتابها «وجوه في المرأة» الذي سجلت فيه أحداث الثورة وأسبابها أن المساجد قبيل الثورة مباشرة كانت هي المسرب الذي تخرج منه المظاهرات المناوئة للشاه، ثم أضافت الأميرة أشرف وهي تبدي تعجبها: «الغريب أن السافاك، وهو البوليس السري الذي يعمل لمصلحة الشاه - والمفترض أن يكون المصدر المخبراتي الذي على دراية ومعرفة بكل شيء فضلاً عن (السافاما) الذي كان تحت قيادة مباشرة من فردوست لم يعد أي منهما تقارير عن المدى والأسلوب الذي اتبعه الملالي في استغلال المنابر لتقويض العرش، وكان فردوست هو القناة التي تصل من خلالها المعلومات الحيوية العليا إلى أخي، وإنني على قناعة بأن فردوست كان يخفي معلومات حيوية عن الشاه، وأنه بجانب ذلك كان يجري مداولات مكثفة مع الخميني خلال السنوات الأخيرة للنظام».

سقط الشاه، خرج من الرقعة، ومن سقوطه عرفنا أنه كان مجرد قطعة يحركها لاعب خارجي، وإذا خرج الشاه من اللعبة كان لابد أن يدخل «الفيل صاحب اللحية» بدلاً منه ليحركه أيضاً اللاعب ذاته ولكن بطريقة مختلفة، ففي كل حين تتغير قواعد اللعبة وقوانينها، ومن لا يدرك تلك القواعد لابد وأن يخرج، وقد يخرج حتى ولو كان مدرّكاً ما دام دوره الذي كان يؤديه قد انتهى، وحين أتاحت الفرصة للشاه الذي سقط أن يقول للتاريخ رأيه، كتب مذكراته «إجابة للتاريخ» وكان مما قاله فيها:

(أصبحوا ضحايا الآن، لقد أراد لي الأمريكيون حقاً أن أزاح بعيداً عن

السلطة، وهذا بالتأكيد ما كان يريد مناصرو حقوق الإنسان في وزارة الخارجية، وقد سبقهم إلى ذلك بوضوح السكرتير فانس، وأقول بوضوح: «لأنني لم أكن أخبر بأي شيء على الإطلاق، فلم يبلغ علمي أي شيء مثلاً عن الشقاق الحاصل في إدارة كارتر بسبب السياسة الإيرانية، ولا أي شيء عن آمال بعض المسؤولين الأمريكيين التي علقوها رهينة بقيام «الجمهورية الإسلامية» لتكون لهم حصناً منيعاً أمام الغزوات الشيوعية».

لم يكن فردوست وحده هو أداة أمريكا والمخابرات البريطانية في تنفيذ خطة «بريجنسكي».

عرف الشاه وشقيقته القوية الأميرة أشرف أن بلاط الحكم كان قد امتلاً عن آخره بنسخ متكررة من بروتس، أو يهوذا، ولم يكن في طوق الإمبراطور أن يتجنب طعناتهم، حتى بهبهايان الصديق الذي كان يستثمر الأموال كان أحد الطاعنين، إذن فليمت القيصر رضا بهلوي.



يقول العرب إن المستحيلات ثلاث «الغول والعنقاء والخل الوفي» ولكن التاريخ والحوادث الإنسانية أثبتت أن الخل الوفي يسعى بيننا، فكيف تستقيم الحياة بلا خل وفي؟!

هذا هو سابع المستحيلات، الدنيا بغير الصديق الوفي تختفي، لذلك كان في التاريخ واحد فقط من كان خائناً للمسيح، ولكن باقي التلاميذ كانوا أوفياء، وكان لموسى عليه السلام هارون، وكان لسيدنا محمد ﷺ أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والصحابه أجمعون، وفي التاريخ أيضاً تلك الصداقة العميقة التي جمعت

ما بين كاتبى ألمانيا العملاقين «جوته» و«شيللر» وقد وصلت حالة التفاهم بينهما فكريًا وإنسانيًا إلى حد مذهل، وكانت صداقة الشاعر الصوفي جلال الدين الرومي بالدرويش الهائم «شمس الدين التبريزي» مثالًا للحب بين الصديقين إلى درجة التفاني، إذ عندما التقى الرومي بشمس الدين الدرويش الجوال بدا وكأن كل واحدٍ منهما استغنى عن الدنيا بالآخر، لذلك ولكي يكرر الناس التاريخ في أنفسهم كان للشاه «الصديق الوفي» ففي ليلة مظلمة بينا الشاه في منفاه أخبره أحد الأصدقاء بأن محكمة أمريكية قد تم استدعاؤها ليلاً - على عجل لتحكم بتسليم الشاه للخميني كي تساومه في قضية الرهائن، تخير الشاه، كيف يتصرف؟! هو الآن في بيت عتيق في بنما سمحت له به أمريكا، وبنا حليفة تابعة للأمريكان «الصديق الغادر» ألا يوجد صديق وفي في هذا العالم؟! برق في ذهنه خاطر، هناك أنور السادات رئيس مصر، هو رجل وفي وصديق مخلص، وله أخلاقيات نادرة في هذا الزمن، أظنه لن يتوانى عن مساعدتي.

توجه الشاه وأسرته إلى المطار فوراً، وركب الطائرة إلى القاهرة بعد أن كان قد اتصل بالسادات، وفي المطار التقى بالسادات وبكى في حضنه وهو يقول: هل تصدق أن أمريكا كانت تعتبرني خازوقاً؟ لقد عرفت هذا في الطائرة التي أقلتني إلى هنا، حيث أطلقوا على طريقة خروجي من إيران بعملية خروج الخازوق⁽¹⁾.

دخل الشاه مستشفى المعادي، وخصص له السادات قصر القبة الرئاسي ليقيم فيه وأسرته، ولكن القدر لم يمهل له ليرى ما الذي سيحدث في بلاده،

(1) مقال محمد حسنين هيكل «عرش الطاووس وكل الدروس المنسية».

كان عمره قد انتهى في الموعد والطريقة التي حددها الله سبحانه وتعالى، وكان الفيل الأسود صاحب اللحية والعمامة قد دخل إلى الرقعة، ليحركه اللاعب الخارجي بالطريقة التي يشاء، وليثير أشد القلاقل في الخليج العربي، وليجعل القوس الخليجي في احتياج دائم لشرطي العالم الذي لا يتحرك إلا بالوقود والمال، ليحميه من بلطجي المنطقة الذي يرفع راية «الشيعة» فتقع قلوب العالم السني - ومركزه المملكة العربية السعودية - خوفاً من حيل الشيعة ودهائهم ورغبتهم العارمة في تشييع أهل السنة، وفي الخليج أدرك أهلها أن الجيش الأمريكي سيتخذ الخميني ذريعة لتوسيع تواجدته في المنطقة، ولكن ما قيمة الإدراك وقواعد اللعبة لا تحفل بالشعوب ولا الحكومات؟ ما قيمة الإدراك وخريطة العالم لا تهتم إلا بالقوي؟ فالرأي رأي القاهرة الغلاب كما قال أبو القاسم الشابي في قصيدته الرائعة «فلسفة الثعبان المقدس» والتي قال فيها أيضاً:

كان الريحُ الحيُّ روحاً حالماً

غضُّ الشبابِ معطرُ الجلبابِ

يمشي على الدنيا بفكرةٍ شاعرٍ

ويطوقها في موكبٍ خلّابِ

والكونُ من طهرِ الحياةِ كأنما

هو معبّدٌ، والغابُ كالمحرابِ

والشاعرُ الشحروزيُّ رقصٌ منشداً

للشمسِ، فوق الوردِ والأعشابِ

شَعَرَ السَّعَادَةَ وَالسَّلَامَ وَنَفْسُهُ
سَكَّرَى بِسِحْرِ الْعَالَمِ الْخَلَابِ
وَرَأَى ثَعْبَانُ الْجِبَالِ فَعَمَّه
مَا فِيهِ مِنْ مَرَحٍ وَفَيْضِ شَبَابِ
وَانْقَضَ مَضْطَغْنَا عَلَيْهِ كَأَنَّهُ
سَوَطُ الْقَضَاءِ وَلَعْنَةُ الْأَرْيَابِ
بُغْتِ الشَّقِيُّ فِصَاحٍ فِي هَوْلِ الْقَضَا
مُتَلَفَتَا لِلصَّائِلِ الْمُنْتَابِ
وَتَدَفَّقَ الْمَسْكِينُ يَصْرُخُ نَائِرًا
مَاذَا جَنَيْتُ أَنَا فَحَقُّ عِقَابِي؟
لَا شَيْءَ إِلَّا أَنَّنِي مُتَغَزَّلُ
بِالْكَائِنَاتِ مَغْرَدٌ فِي غَابِي
أُيَعَدُّ هَذَا فِي الْوُجُودِ جَرِيمَةً
أَيْنَ الْعَدَالَةِ يَا رِفَاقَ شَبَابِي؟
لَا «أَيْنَ» فَالْشَّرْعُ الْمُقَدَّسُ هَا هُنَا
رَأَيْ الْقَوِيَّ وَفِكْرَةَ الْغَلَابِ
فَتَبَسَّمِ الثَّعْبَانُ بِسَمَتِ هَازِي
وَأَجَابَ فِي سَمَتٍ وَفَرَطٍ كَذَابِ
يَا أَيُّهَا الْفِرَ الثَّرَثَرُ إِنَّنِي
أُرْثِي لثَوْرَةِ جَهْلِكَ الثَّلَابِ

والغُرُيعُ عذره الحكيم إذا طغى
جهلُ الصُّبَا في قلبه الوثابِ
إني إلهٌ، طالما عبد الورى
ظَلَّيْ، وخافوا لعنتي وعقابي
وتقدّموا لي بالضحايا منهم
فَرَحِين، شأن العابد الأوابِ
إني أردتُ لك الخلود مؤلّها
في رُوحِي الباقي على الأحقابِ
فأجابه الشحرورُ في غصص الردى
والموت يخنقه: إليك جوابي
لا رأيَ للحقِّ الضعيف ولا صدَى
والرَّأي رأيُ القاهرِ الغلابِ
فأفعل مشيئتك التي قد شئتُها
وارحَم جلالك من سماعِ خطابي

ولكن هل يجوز الاستسلام لأصحاب اللعبة؟ أم ينبغي مقاومتهم ولو بتبصير الشعوب بخطورة ما يجري في المنطقة، فالشعوب مهما كانت لها كلمة إذا اتحدت، وما تسيدوا علينا إلا بتفرقنا، وخطورة خطة why not التي ترمي إلى تحويل المنطقة كلها إلى كتلة ملتهبة شديدة التمزق تعروها دُجى الفتنة والاحتراب، بدأت ويبدو أنها ستستمر، كانت بدايتها بتنصيب الخميني والملاي على إيران فقد كانت هي أنبوبة الاختبار، كان في أفكارهم أن

الخميني سيؤدي إلى تفسخ الشرق الأوسط بأكمله، ومن بعده يأتي الإخوان في مصر - ودول ثورات الربيع - من السجن إلى القصر، فتستحيل المنطقة إلى حلبة مصارعة حرة دموية، فإذا ما تم لهم ذلك كان من السهل على الثعبان المقدس أن يبتلع الشحرور المغرد، ومن المفارقات الساخرة أنه عند خروج الشاه من إيران وحين بدأ السيد الأمريكي المتخم بالطعام في إعداد الوليمة، صرّح كارتر بأن الخميني صديق لأمريكا وأن صداقة أمريكا لإيران ستستمر، وفي ذات الوقت وقف المبعوث الأمريكي في الأمم المتحدة ليصف الخميني بـ «القديس» وحيال هذا الترحيب صمت مندوبو العرب وكأنهم يقولون للثعبان المقدس «ارحم جنابك من سماع خطابي».



في عالم السياسة - وفي العوالم الأخرى أيضًا - لا تنخدع بالظاهر، لكن تمهل وانظر واستبصر وحلل واجمع المعلومات ما استطعت، وقتها ستعرف أن الظاهر ليس هو الحقيقة دائمًا، وكم خدعت المظاهر البراقة عيون وعقول الدهاة، ولكنها لا بد أن تنكشف يومًا ما، فالظاهر الخادع يعيش دهرًا ثم يتبدد بددًا فتتكشف الحقائق خلف دخانه.

حين جاءت حقبة الثمانينيات كنا نسمع ونرى أفواجًا من الحجيج الإيراني وهم يتظاهرون في موسم الحج وعند الكعبة الشريفة ضد أمريكا وإسرائيل، ويقدر ما تعجبنا من مظاهرة سياسية تنطلق في موسم الحج وعند الحرم أكبرنا موقف هؤلاء الشيعة الذين يناصرون أمريكا وإسرائيل العداء، إيران هي العدو الأكبر لأمريكا شيطان العالم الرجيم، ولكن الشيطان كان يمد يده

في الخفاء لإيران يداعبها فتستيم له ويلهج لسانها بالتسييح له، ولم لا وهو الذي يمدّها بالسلاح في حربها ضد العراق؟ ومن عجب أن العالم استيقظ ذات يوم ليرى تلك المظاهرات الإيرانية التي تهاجم أمريكا وإسرائيل، ثم انكشف له في ذات الوقت أن سيلاً من الأسلحة وقطع الغيار كان يشحن من أمريكا عبر إسرائيل إلى طهران.

ففي عام 1985، وأثناء الولاية الثانية للرئيس الأمريكي الممثل الكاوبوي راعي البقر رونالد ريغان، كانت أمريكا تسير في خطوات ثابتة نحو القضاء على أسطورة الاتحاد السوفيتي والمد الشيوعي، وكان حكم ميخائيل جوروباتشوف للاتحاد السوفيتي يمثّل الخطى هو الآخر نحو القضاء على الاتحاد السوفيتي الذي كان قد أصبح هشاً خاوياً، ولا بد أن العمليات المخبرانية التي قام بها فريق العمل الذي يترأسه السيد «ويليام جي كيسي» مدير المخابرات الأمريكية كان له الدور الأكبر فيما تحقق بعد ذلك من انهيار للاتحاد السوفيتي وتفككه.

وقتئذ تم تنفيذ خطة أطلقوا عليها «إيران - كونترا» والتي أصبحت فيما بعد فضيحة كبرى أطلق عليها الإعلام العالمي «إيران كونترا جيت» تشبيهاً لها بفضيحة «ووتر جيت» التي أطاحت بنيكسون من قبل من حكم أمريكا، كانت هذه الخطة - الفضيحة - عبارة عن مخطط سري يستهدف بيع أسلحة أمريكية لإيران التي تتظاهر ضد أمريكا وتغضب من إسرائيل، وتصب جام غضبها على الرعاية الأمريكية لإسرائيل خاصة رعاية التسليح، هل يصدق هذا أحد؟! القط سيعقد صلحاً مع الفار ويقوم بتزويده بالأسلحة ليفرض سطوته على المنطقة كلها ويؤازره في حربه التي كانت تشحذ أستها ضد العراق، أما

الهدف الاستراتيجي الظاهر لبيع الأسلحة لإيران فهو أن يستخدم ناتج البيع في تمويل حركات «الكونترا» المحاربة للنظام الشيوعي في نيكاراغوا.

ومع توابع صفقة بيع الأسلحة هذه انكشفت أشياء أخرى؛ إذ ظهر أن العلاقات الوثيقة السرية بين إيران وإسرائيل كانت في أعلى مجاليها، وكان الشيخ صادق طباطبائي المقرب من الخميني هو حلقة الوسط بين إيران وإسرائيل، وكان قد نفذ إلى عالم المخابرات الإسرائيلية والتعاون معها من خلال شخص يدعى يوسف عازر وهو عميل مخبراتي تعامل مع المخابرات الإسرائيلية والجيش الإسرائيلي كثيرًا، وكانت الفضيحة الكبرى هي أن السلاح سيتم تسليمه لإيران عن طريق إسرائيل، أو بمعنى أصح أن إسرائيل كانت هي وسيط هذه الصفقة التي مهد لها طباطبائي ويوسف عازر.

سقط القناع عن الصفقة وأكدها أبو الحسن بني صدر أول رئيس لجمهورية إيران الإسلامية بعد الثورة، فحين استعادت قناة الجزيرة تلك الأحداث لتوثيقها جلست مع الرئيس السابق أبو الحسن الصدر بعد أن انفض السامر عنه، كان البرنامج هو «زيارة خاصة» وكان التاريخ هو 10 / 1 / 2005 ، أما المذيع فهو الإعلامي سامي كليب اللبناني الأصل الفرنسي الجنسية.

سأل سامي كليب سؤالاً صريحاً يستعيد الفضيحة: «هل كنت على علم بوجود علاقات معينة مع إسرائيل لأجل الحصول على السلاح؟»

فأجاب بوجه جامد القسّمات: «في المجلس العسكري أعلمنا وزير الدفاع أننا بصدد شراء سلاح من إسرائيل، عجبنا كيف يفعل ذلك، قلت: من سمح لك بذلك؟! قال: الإمام الخميني، قلت هذا مستحيل!

قال: أنا لا أجروء على عمل ذلك وحدي. سارعت للقاء الخميني وسأله: هل سمحت بذلك؟

قال: نعم. إن الإسلام يسمح بذلك، وإن الحرب هي الحرب. صعبت لذلك، صحيح أن الحرب هي الحرب، ولكنني أعتقد أن حربنا نظيفة، والجهاد هو أن نقنع الآخرين بوقف الحرب والتوق إلى السلام، نعم هذا الذي يجب عمله وليس الذهاب إلى إسرائيل وشراء السلاح منها لحرب العرب، لا لن أرضى بذلك أبدًا. حينها قال لي: إنك ضد الحرب، وكان عليك أن تقودها لأنك في موقع الرئاسة».

لم يكن أبو الحسن الصدر مدركًا - رغم ثقافته وممارسته المحترفة للسياسة - أن هناك عدة عوامل مشتركة تتشابه بها إيران مع إسرائيل، ويجتمع بسببها الشامي مع المغربي، فإذا ما أمعنا النظر في حالة «القوقعة» أي العزلة السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تعيشها كل من إيران وإسرائيل ضمن المحيط العربي، سنلاحظ أنها في حالة غربة ثقافية وسياسية وإثنية، الإسرائيليون «الغزاة» محاطون ببحر من العرب، ودينياً محاطون بالمسلمين الذين يرفعون شعارات دينية مثل «خير خير يا يهود.. جيش محمد سوف يعود».

وإيران الفارسية ذات اللسان الفارسي والعقيدة الشيعية والتاريخ المعادي للعرب والمسلمين، تعيش بجوار وفي معية أمة عربية عقيدتها هي «الإسلام» السني وحين تتشابه الظروف تجتمع المصالح، ومن بعد توثقت الصلات الإيرانية الإسرائيلية وانعقدت بينهما صفقات وصلات، وما زالت تلك الصلات لا تنفك قائمة.

و حين كانت الدنيا تعلم بعمق العلاقات التي كانت قائمة بين شاه إيران رضا بهلوي وإسرائيل لم يكن هذا يثير استغراب أحد، بل كان يثير الحق والغضب في دوائر عربية كثيرة حتى أن الزعيم المصري جمال عبد الناصر كان قد قطع العلاقة بين مصر وإيران بسبب صلتها ودعمها لإسرائيل، ولكن علاقة إسرائيل بإيران الثورة الإسلامية، إيران الشيعية، إيران التي تتظاهر ضد إسرائيل، كانت من الأمور المخفية، ولكن الله شاء أن تنكشف، لنعرف بعد ذلك أن جماعة الإخوان التي كانت تتظاهر ضد إسرائيل وتهتف ضدها، ويقف قادتها ليهتفوا «على القدس راجحين شهداء بالملايين» هي جماعة عقدت صلات قوية مع أمريكا وإسرائيل، ووصلت للحكم في مصر عن طريق أمريكا ومن خلال تعهداتها بالحفاظ على مصالح إسرائيل، ثم شاء الله أن تنكشف جماعة الإخوان وينزل الستار على المسرحية التي كانت تقودها ضد إسرائيل، كانت مجرد حرب كلامية ومسرحية خادعة، وكان المشهد الختامي للمسرحية حين كتب محمد مرسي الذي أجلسوه على حكم مصر خطاباً مفعماً بالمشاعر الجياشة قال فيه : عزيزي وصديقي العظيم شيمون بيريز رئيس دولة إسرائيل .

وفي دولة الإخوان سقط الحياء كما سقط من قبل من دولة إيران الشيعية الإسلامية .



كانت إيران هي أنبوبة الاختبار، وحينما نجحت التجربة هناك كان لابد من البدء في تعميمها، ولكن أمريكا قبل التعميم آثرت أن ترسل رسائل

مشفرة للمنطقة، فكانت تصريحات كونداليزا رايس عن شرق أوسط جديد، وعن فوزى منظمة، سمع الشرق هذه التصريحات وتساءل الخبراء عن تلك الفوضى المنظمة، ما هي؟ وهل ستسفر عن شرق أوسط جديد؟ الشرق الأوسط الجديد هو «جغرافية جديدة للمنطقة» ولكي تتغير الجغرافية، يجب أن تعم الفوضى، وحين تتغير الجغرافية سيتغير التاريخ.

لكن فلتتظر أمريكا قليلاً قبل أن تعمم تجربة الفوضى الخلاقة: «يجب أن نتأكد من أن الأدوات التي في أيدينا ستؤدي إلى تحقيق مخططنا حرفياً دون أي نسبة من الفشل» ولتكن هناك تجربة معملية سابقة على «العرض الجماهيري الكبير».

وقع الاختيار على السودان، فهي دولة كبيرة المساحة، تقع شمال شرق إفريقيا، وجنوب مصر، وفي عام 1989 قامت هناك حركة انقلابية على الرئيس الصادق المهدي، أطلقت على نفسها اسم «ثورة الإنقاذ الوطني» وبعد حين عرف العالم أن هذه الثورة المصنوعة هي «ناتج إخواني» أشرف على إدارتها أحد كواد الإخوان في جيش السودان هو «عمر البشير» الذي أصبح رئيساً للبلاد، ومن بعد أن تولى البشير أخذ «السودان تحت حكم الإخوان» خطاً قائماً أدى إلى حروب أهلية، وفتن، وقمع للحريات غير مسبوق، ومصادرة للحريات، وذات يوم عندما جاء البشير زائراً لمصر في بداية التسعينيات كان من حظي أن قابلته مع مجموعة من الإخوان، حيث أتى لنا زائراً في نقابة المحامين ثم خرج منها إلى مقر جماعة الإخوان، وفي مقر الجماعة لقي احتفاءً كبيراً، واحتضنه المرشد حامد أبو النصر وقال له: الحمد لله أن جعلنا نصل للحكم في السودان، فهذه بشرى يا بشير الخير بالنسبة لنا في مصر.

ضحك الحاضرون وقال البشير: وسنحكم العالم إن شاء الله، ونحن ننتظر أوامر فضيلتك فأنت إمامنا ومرشدنا.

وجاءت الأوامر فعلاً ولكن كانت من أمريكا، فزاد الشقاق بين شمال السودان وجنوبها، وأصبحت الحرب الأهلية جريمة شارك الإخوان في صنعها، وحاصرت أمريكا البشير الذي وضعت على الحكم، ولكنها كانت محاصرة المتبوع للتابع، ونجحت التجربة وانقسم السودان إلى دولتين، وفي الطريق سيناريوهات انفصال آخر.

وفي شهر إبريل من عام 2013 جلس رئيسان يتتمان لجماعة الإخوان يقرآن القرآن في أحد مساجد الخرطوم، كان أحدهما عمر البشير، وكان الثاني هو محمد مرسي.. الذي وقع اختيار أمريكا عليه لكي يكون رئيسا لبلاده مصر بعد ثورة قامت فيها، لقد قامت أمريكا بتعميم التجربة.

الفصل الثاني

المطية

تحمل السير الشعبية في كل الحضارات حكمة الشعوب، وخبراتها المختزنة في ضميرها، والسير الشعبية المصرية غنية بالحكايات والنوادر، فالشعب المصري - وهو من أقدم الشعوب - مرتبط جارب كثيرة لا تعد ولا تحصى، فأصبحت لديه خبرات متراكمة تظهر عند اللين بشكل، وفي الشدة بشكل آخر، وكأننا أمام شعبين وبلدين متناقضين، ولكنها في الحقيقة يكملان بعضهما، ولا تقوم مصر إلا بهما، وقد تحار الألباب في فهم طبيعة هذا الشعب الصامت على طواغيته معظم التاريخ، فيظن الراثي أن شعب مصر يلين في موضع يجب أن يشتد فيه، ولكن خبراته هذه أتاح له فرصة أن يقاوم من لا يستطيع مقاومته عن طريق ابتلاعه، فإذا لم يستطع ابتلاعه لفظه، تمامًا مثل هذا الكائن الخرافي الذي هبط من السماء كجرم صغير لا يكاد أحد يراه، فإذا بكائنات أرضية تراه فتظن أنه فريسة شهية لها فتحاول أن تبتلعه، ولا تكاد تفعل ذلك حتى يبتلعها هو فتصبح بضعة منه، فيكبر رويدا رويدا، ومع استمرار الغافلين في محاولات ابتلاعه، وقيامه بابتلاعهم، إذا به ينمو نموًا مطردًا حتى يصبح أكبر من كل الكائنات، ولكن مع نموه ينوء

بهذا الحمل الثقيل فتصبح حركته بطيئة، ولكنها واثقة، وخذها مني حكمة «إنك لا تستطيع أن ترى الشعوب إلا من خلال سيرها الشعبية وأمثالها» فهي تحتوي على ملخص وافٍ لعلم نفس الشعوب والجماعات، فماذا عن الشعب المصري، هذا الشعب ينتظر ويرتقب، ويدون في ذاكرته، فإذا ما وثق في أحد رفعه إلى السماء، وإذا أدرك أنه كان يخدعه خسف به الأرض، وهكذا هو عبر التاريخ، وقد ورد في قصصه وأمثاله الكثير من الحوادث التي تناقلتها الأجيال واستخرجت منها كنوز الحكمة، ومن أمثاله العجيبة المثل القائل «إحنا دافينه سوا» ولهذا المثل قصة عمرها مئات السنين، تروى بشكل واحد مع اختلاف بعض التفاصيل، أما القصة التي عرفتها نقلًا من الآباء والأجداد فهي أنه (كان هناك محتالان من عتاة النصابين والحرامية، واحد منهما اسمه نائل اللثيم، والثاني اسمه عطية أبو المفاهيم، ضج الناس من أفعالها اللثيمة، وخصالها الذميمة، ولما كان أمرهما قد ذاع واشتهر، والتحذير منهما في كل مكان قد انتشر، فقد وجد أن لا مفر من الهرب، فسرقا حمارًا وحفنة من الذهب، وخرجا من المدينة في الليل البهيم، وحملها الحمار إلى قرية بعيدة، اسمها قرية البرسيم، كان أهل هذه القرية من أطيب الناس خلقًا، وأكثرهم تدينًا، وعلى أعتاب القرية نفق الحمار ومات، فقد أهلكاه في المسير دون طعام أو شراب، حزن اللصان حزنًا شديدًا، فقد كان لهما هذا الحمار سندًا وقيمة، فكرا في تركه والسير على الأقدام، ولكن برق لنائل اللثيم بارق، وخطر في عقله خاطر، فقال لصاحبه عطية: لقد صبر معنا هذا الحمار أميالًا كثيرة، وحملنا دون شكوى أو اعتراض، ومن حقه علينا أن ندفنه هنا، فقال عطية: ولم نكلف أنفسنا المشقة؟ رد نائل: هذا حقه، لقد كان هذا الحمار صابرًا

معنا، فهو أبو الصبر، وعندما ندفنه هنا، سندبر أمرًا يجعلنا في ثراء وغنى، وقد نحكم هذه القرية في الحال أو في الاستقبال، ونملك أراضيتها بلا جدال، ثم همس في أذن صاحبه بكلمات وهممة، فانفجرت أساريره، وأخذ الصاحبان يحفران الأرض بهمة عالية، ثم دفنا الحمار في الحفرة العميقة، وأقاما على الحفرة سورًا من طوب الطين، وبعد أن انتهى من الدفن، سمعا من بعيد أصواتًا آتية، فجلسا يبكيان ويقولان «لا إله إلا الله، أبو الصبر حبيب الله، لا إله إلا الله، أبو الصبر حبيب الله» اقترب الناس منها وقالوا لهما ما هذا، ومن أنتما، وماذا تفعلان؟ قال اللص نائل اللثيم وهو يبكي، نحن من أتباع الشيخ أبو الصبر، وهو من أولياء الله، وقد كانت له كرامات وكرامات، يشفي المريض، ويزوج العانس، ويفك الأعمال، وقد مات هذا الصباح، وكان قد أوصانا أن ندفنه في هذا البلد، وقال لنا إنها قرية الخير والمدد، وأهلها من أهل الجنة، وقال إنه يريد أن تمتد كراماته لأهلها، فسافرنا من بلدنا البعيدة ونحن نحمله على ظهرنا، وعندما حط بنا الرحال في هذا المكان على حدود قريتك، وقف النعش ولم يتحرك، فعرفنا أنه اختار مكان دفنه في هذه البقعة، فدفناه، وقرأنا عليه القرآن، ثم أخذنا في الذكر والنواح.

صدق الناس الطيبون قصة المحتالين، وقالوا لهما سنبنني معكما مقامًا كبيرًا يليق بالشيخ أبو الصبر، وبالفعل تم بناء المقام، ثم اتسع البناء وأصبح مسجدًا والمقام في أوسطه، وحوله سور جديد من حديد، وعندما كان أهل القرية المجاورة يأتون لهذه القرية فيسألونهم عن هذا المقام الذي له قبة عالية، كان أهل القرية يقولون لهم: «تحت القبة شيخ» فذهبت مثلًا، وجاء الرزق الحرام يسعى للصالحين، فهذه نذور، وتلك صدقات، وأخرى هبات لفك السحر

والأعمال، وزواج العانسات، وشفاء المرضى، وبين ليلة أو ضحاها أصبحت بركة القرية في هذا القبر، وزاد مال اللصين بلا حصر، وأصبح لها هيمنة على شئون القرية، وعلى العمدة والأعيان والخفراء والأغنياء والفقراء والرجال والنساء، بحيث أصبح القرار قرارهما، والقول قولهما، ومن أجل إحكام السيطرة ارتديا ثياب الدراويش، وأصبحا لا يسيران في القرية إلا وهما يرتديان أسماً بالية، دليلاً على الزهد والتسك، وأمام الناس كانا لا يفتر ثغراهما عن ذكر الله، والحديث عن كرامات الشيخ الولي أبو الصبر، وفي يوم من الأيام قال نائل اللئيم لصاحبه عطية أبو المفاهيم: سأتركك بضعة أسابيع، وأسافر إلى أهالي، لأعطيهم ما يكفيهم من المال والذهب ويكفي، وسأودع عندهم صكوك الأراضي التي اشتريناها من القرى الأخرى، وغاب المسافر أكثر من شهر، ثم عاد من مهمته وقد ظهرت النعمة عليه من تورد وجهه، وزيادة وزنه، فسأل صاحبه: كم أتى لنا من المال في غيابي؟ قال عطية أبو المفاهيم: لم يدخل لنا دائق ولا خردلة، فبحلق فيه صاحبه غير مصدق، وهم أن يبطش به، فناح عطية وهو يقول: أقسم لك على صحة كلامي بحياة سيدي الولي أبو الصبر، فرد عليه نائل اللئيم، وقد نفد منه الصبر، سيدي أبو الصبر! «أحنا دافنيه سوا» فذهبت هذه العبارة مثلاً من الأمثال العامية المصرية، لم تنته الحكاية عند هذا الحد، فقد انكشف أمر اللصين، إذ استيقظا صباح يوم الجمعة، فأفطرا جنباً وفحلاً من البصل والثوم، ثم ارتديا ثياب الدراويش للذهاب إلى مسجد القرية الكبير، وفي الطريق بال الاثنان أمام شجرة، فارتد البول إلى ثيابهما وترك فيها رائحة الصنان القدرة، ثم دخلا إلى المسجد لصلاة الجمعة، وفي المسجد شم المصلون رائحة كريهة تنبعث منهما، فقد اختلطت رائحة البول مع البصل

والثوم، فأدركوا أنها غير طاهرين، وفهموا بهذا أنها من الدجالين، فقام الناس بضربهما، فنأح عطية ونائل اللثيم من أثر الضرب، وقالوا للمصلين: ما الذي فعلناه؟ ألا تدركون أننا من أتباع سيدي أبو الصبر، قال الناس لهما: راثحتكما كريمة، وهذا يخالف السنة الشريفة. فأقسم نائل اللثيم أن راثحته زكية، فقال لهما إمام المسجد وهو يوبخهما: «أبوك البصل، وأمك التوم، منين تجيك الريجة الحلوة يا مشثوم» فذهبت مثلاً، وعندما اشتد الضرب عليهما، هربا من المسجد، وركب نائل على حمار كان ينتظر صاحبه على جانب الطريق، وقال وهو يضرب برجليه بطن الحمار، ينبغي الفرار «اركب المطية يا عطية» فصارت مثلاً.



في أحد مساجد الخرطوم بالسودان في الأيام الأولى من شهر إبريل عام 2013 جلس الرئيس المصري محمد مرسي مع رئيس نصف السودان عمر البشير يقرآن القرآن، نعم نصف السودان فقد أصبح السودان دولتين في ظل حكم الإخوان له، كانت بعض الروائح قد تصاعدت تؤكد أن السودان قد يتفرع منها دولة ثالثة، وكان قارئ القرآن بالمسجد قد أكد لعمر البشير أن مصر ستمنح السودان منطقة «حلايب وشلاتين». لا تثريب على مرسي حينما قرر منح البشير هذه العطية، فهما أخوان في تنظيم واحد يجتمعان معاً فيه، والتنظيم الأم لهما هو «التنظيم الدولي لجماعة الإخوان» وتحت راية القرآن من الممكن أن يفعل الساسة ما يريدون، وبالقرآن يستطيع بعضهم خديعة الأمم، وقد كانت جماعة الإخوان أكبر خديعة تعرض لها الشعب المصري عبر تاريخه، ولكن الخديعة لا تدوم.

نعم قد يخدعك بعض الناس بعض الوقت، ولكن ليس في إمكان أحد أن يخدعك كل الوقت، وحين ظهرت جماعة الإخوان على ظهر الأرض ظن الناس أنهم من أهل الله وخاصته، فالمظهر قد يخفي حقيقة الجوهر، وكلنا ننظر في الوهلة الأولى للشعارات دون أن نبحت عن المحتوى، فنظن أن فئة من الفئات أو طائفة من الطوائف هم من أولياء الله وهم يخفون في نفوسهم أمرا ويظهرون أمرا آخر كأنه قبة عالية مزخرفة بالنقوش، فنقول كما قال أجدادنا «تحت القبة شيخ» وما هو شيخ ولكن مسخ مشوه، نظرنا السطحية هذه قد تقودنا إلى التهلكة إن لم نكتشف الخداع مبكرا، أمعن النظر في الأقوال، ثم راقب الأفعال، ولا تبحت عن مبرر إذ زاد انفلات الأفعال على الحد وبلغ السيل الزبي، واعلم أنه - «ليس كل من ركب الحصان خيالا» وليس كل من أطلق لحيته وقرأ القرآن ورفع الأذان وصلى أمام الناس، مؤمنا حقا، ولنا في رسولنا ﷺ أسوة حسنة، فقد علمنا أن العبادة الفارغة من مضمونها مردودة على صاحبها فقال «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه» ولعل أبا يزيد البسطامي هو الذي قال: لو رأيت الرجل يطير في الهواء أو يسير على الماء فلا تركنوا له حتى تنظروا وقوفه عند الأمر والنهي، وتجنبه الحرام، والكذب أعلى الحرام.

فما هي قصة الإخوان، وما موضعهم من الحكاية التي أوردتها؟ تبدأ قصة الإخوان مع حسن البنا الذي ولد عام 1906 في قرية المحمودية التابعة لمديرية البحيرة القريبة من مديرية الإسكندرية، وكان أبوه يعمل في تصليح الساعات بعد أن وفد إلى مصر من بلده الأصلي «المغرب» وعبر تاريخي كله قرأت، وأزعم أنني فعلت، كل ما أخرجته المطابع عن حسن البنا، ولكنها

كانت قراءة بعين واحدة، وقراءة العين الواحدة لا تبصر الحقيقة إذ هي قراءة متحيزة، تحذف وقت الاستقبال ما تريد، وتثبت في القلب ما تريد، لا تثبت فقط ولكن الحب يثبت ويضخمه، وقد أحببت هذا الرجل وشغفت به، وفتت كبدي نهايته المأساوية، إلا أنني بعد سنوات من القراءة والبحث كنت أمج مغالاة الغالين، ولا أنزه نفسي عن أنني كنت في الفترات الأولى من حياتي قد وضعت الرجل في مكانة أولياء الله الصالحين الصديقين الذين لم يقترب الخطأ من حياضهم أبداً، بهرني بذاكرته وفراسته وهمته العالية، حتى قلت في نفسي إن هذا رجل لم يقع في هفوة قط وكأنه أرقى من الصحابة أجمعين، ولعل الحب ومراتب الهوى هي التي جعلتني من المشدودين للبنا والمشدوهين به، إلا أنني بعد أن استقام عودي أدركت أن الإنصاف للرجل إنما يكون بتأديمه أي رده إلى آدميته فقد خلقنا الله من طين؛ لذلك لا ينبغي أن نحول أنفسنا أو نحول من نحبهم إلى ملائكة نورانيين، وتنزيه البشر إنما يكون بتعدد معايهم وإبعادهم عن الكمال لأن الإقرار بنقائصنا هو في ذاته الإقرار بكمال الله .

انضم حسن البنا في بداية شبابه إلى إحدى الطرق الصوفية وهي الطريقة الحصافية وظل منتسباً لهذه الطريقة طوال حياته، ومن هذه الطريقة أخذ نقطة الانطلاق، حيث تعلم من شيخها، وأخذ من شيوخها حلمي زكريا وحسن خربك وغيرهما، ومنهم عرف السمع والطاعة والثقة في الشيخ، وأدرك أن وسيلته في إقامة تنظيم قوي محكم يدين له بالولاء لا تكون إلا بطاعة الأعضاء كما يطيع المريد شيخه، ففي الصوفية يكون المريد بين يدي شيخه كالميت بين يدي من يغسله يقلبه كيف يشاء، وهكذا أصبح البنا في مستقبل أيامه وهكذا أصبح الإخوان بين يدي البنا.

استمر البناء في الطريقة الحصافية لم يغادرها بروحه أبداً، وإن كان قبلها قد انقطع عن استكمال حفظ القرآن، إذ توقف عن هذا وهو في الرابعة عشرة من عمره رغم أنه كان يتمتع بذاكرة لا قطة قوية، وكان من أثر ذلك أن فشل البناء في الالتحاق بالأزهر الشريف، فقد كانت شروط الالتحاق توجب حفظ القرآن كاملاً، وهو لم يكن كذلك، فالتحق بمدرسة دار العلوم المتوسطة التي كانت تشترط أيضاً ذات الشرط، ولكن حسن البناء قال في مذكراته إنه وجد واسطة توسطت لدى مدير المدرسة فتم قبوله بها على وعد أن يحفظ القرآن كله بعد ذلك.

وتخرج الشاب حسن البناء في مدرسة دار العلوم المتوسطة بتفوق، ولسبب ما لا نعرفه ولم يكتب أحد عنه ولم يزد في مذكرات البناء، لم يستطع استكمال تعليمه في مدرسة دار العلوم العليا، فعمل كمدرس للخط العربي في مدرسة ابتدائية بمدينة الإسمايلية، وكان اختيار حسن البناء لهذه المدينة غريباً، وكان الأغرب أن أحداً من الباحثين لم يبحث عن سبب هذا الاختيار! إذ كان من المتبع وقتها أن الطالب الذي يتخرج بتفوق يكون صاحب الحق في اختيار المحافظة التي يعمل في مدارسها، وكان من المؤلف أن يختار هذا المتخرج مدرسة في المدينة التي يسكن فيها، فالاغتراب يباعده بينه وأهله، كما كان يقطع من راتبه ولا يوفر له حياة كريمة، خاصة أن حسن البناء وفقاً للرسائل التي كان يرسلها لأبيه وهو في الإسمايلية، والتي جمعها شقيقه جمال البناء في كتاب، كان يشتكي من الفاقة، لا شك أن هذا الاختيار يضعنا أمام علامات استفهام محيرة، فهل كان اختيار هذا المكان متفقاً عليه مسبقاً مع جهات ما؟ خاصة أن مدينة الإسمايلية كانت مقراً لشركة قناة السويس وإدارتها الأجنبية، علم ذلك عند الله!

وبدأ البناء في الإسماعيلية عام 1928 بناء جماعته، جماعة الإخوان، كان حسن البناء يحمل ذكاءً فطرياً يعرف أن المصري متدين بطبيعته يرتجف قلبه عند ذكر الرسول ﷺ ويحب آل البيت حبا جما، فلم يتجه البناء للذين يذهبون للمساجد، وإنما ذهب أول ما ذهب إلى من لا يذهبون إلى المساجد، وفي المقاهي كانت غزوته الدعوية الأولى «غزوة المقاهي» فقد فوجئ البسطاء - من الحرفيين وصغار التجار الأميين - من رواد المقاهي البلدية برجل من الأفندية يرتدي ملابس أفرنجية يقف متكئاً على أحد المقاعد يخطب فيهم خطاباً دينياً بسيطاً، واستمر على ذلك أياماً حتى اشتهر أمره بين الناس وتحدثوا عن «خوجة» الخط العربي الذي يعظهم في المقاهي، ومن المقاهي إلى المساجد الصغيرة كان مراحه ومغداه، وبعد أيام معدودات نجح البناء في أن يجمع حوله عدداً من رجال الإسماعيلية من أصحاب الحرف البسيطة، ظل يتزاور معهم ويبيثهم خواطره الإيمانية فترة، ثم آن الأوان لتكون البذرة الأولى للجماعة.

كان الاقتراح اقتراحه وكانت الفكرة فكرته: علينا أيها الإخوان أن ننشئ جمعية لنا، فلتكن جمعية الإخوان المسلمين، واستقبل الجمع الذي معه اقتراحه باستحسان، فهو قائدهم وهم رجاله، فكان عام 1928 هو عام التأسيس الرسمي لجمعية الإخوان المسلمين، كان كل غرضها الظاهر هو الدعوة لله، وكان الداعية هو الشاب حسن البناء، وحين بدأ البناء في إنشاء مسجد بالمدينة يعلوه مقر للجماعة (وقبل أن يتم بناء المسجد بقليل وقد أوشكت النقود المجموعة أن تنفذ، وأمامنا بعد مشروع المسجد مشروع المدرسة والدار وهي من تمامه بل كلها مشروع واحد تصادف أن مر البارون دي بنوا مدير شركة

القنال ومعه سكرتيره المسيو بلوم فرأى البناء فسأل عنه وأخذ عنه معلومات موجزة، وبينما أنا في المدرسة إذ جاءني أحد الموظفين يدعوني لمقابلة البارون بمكتبه بالشركة فذهبت إليه فتحدث إلي عن طريق مترجم بأنه رأى البناء وهو يود أن يساعدنا بتبرع مالي وهو لهذا يطلب منا رسماً ومذكرة للمشروع، فشكرت له ذلك وانصرفت ووافيته بعد ذلك بما طلب ومضى على ذلك شهور كدنا ننسى فيها البارون ووعدته ولكنني فوجئت بعد ذلك بدعوة ثانية منه إلى مكتبه، فذهبت إليه فرحب بي ثم ذكر لي أن الشركة اعتمدت مبلغ خمسمائة جنيه مصري للمشروع، فشكرت له ذلك، وأفهمته أن هذا المبلغ قليل جداً ولم يكن منتظراً من الشركة تقديره لأنها في الوقت الذي تبني فيه على نفقتها كنيسة نموذجية تكلفها 500000 خمسمائة ألف جنيه أي نصف مليون جنيه تعطي المسجد خمسمائة جنيه فقط، فاقتنع بوجهة نظري وأظهر مشاركتي فيها ولكنه أسف لأن هذا هو القرار، ورجاني قبول المبلغ، على أنه إذا استطاع أن يفعل بعد ذلك شيئاً فلن يتأخر. وشكرت له مرة ثانية وقلت إن تسلم المبلغ ليس من اختصاصي ولكنه من اختصاص أمين الصندوق الشيخ محمد حسين الزملوط الذي تبرع وحده بمثل ما تبرعت به الشركة وسأخبره ليحضر لتسلمه، وقد كان. وتسلم أمين الصندوق المبلغ⁽¹⁾.

والذي يلفت النظر في هذه الفقرة التي رواها لنا حسن البناء، أن مبلغ التبرع كان قدره خمسمائة جنيه مصري، أي ما قيمته وقتها خمسمائة وخمسة جنيهات من الذهب، هل تعلمون كم يوازي هذا المبلغ الآن وفقاً لسعر

(1) مذكرات الدعوة والداعية لحسن البناء.

الذهب؟ يساوي مليونًا ونصف مليون تقريبًا! في الوقت ذاته فإن ما ذكره البنا عن قيمة تبرع الشركة لبناء كنيسة هو من الأمور التي بثها في مذكراته حتى يُسيغ لنفسه - أمام الناس في الحال والاستقبال - قبوله هذا التبرع من تحتل وضع يده على البلاد قهراً، إلا أنه وقع في مبالغة ممجوجة حينما ذكر أن الشركة تبرعت لكنيسة بنصف مليون جنيه، وهو مبلغ تُبنى به وقتها مدن كاملة، ويبدو أنه عقد هذه المقارنة ليهون بها من قيمة المبلغ الذي تلقاه وقلة أثره، حتى إنه ذكر أن أحد المتبرعين تبرع للمسجد بخمسمائة جنيه أيضاً، وكأن هذا المبلغ كان متوافراً لدى عموم الناس يدفعونه لأنه من فضل أموالهم! إذن ما الذي دعاه إلى ذكر قصة هذا التبرع «المشبوه»؟ لم يذكر البنا هذه القصة إلا لأنها كانت حديث الساعة في مدينة الإسمايلية، تحدث بها كل الناس، وحدث بين الإخوان بسببها شقاق أدى إلى انشقاق بعض الإخوة الذين انضموا للجماعة، فكان على البنا أن يكتبها - ما دامت قد أصبحت معروفة - بطريقة تبرئه، فكانت طريقة سرده تبدو وكأنه يدافع عن نفسه.

ولكن السؤال المهم هو: من الذي عرض التبرع؟ هل الشركة هي التي عرضته من تلقاء نفسها حباً في فعل الخير؟! أم أن حسن البنا هو الذي طلب ذلك وقدم من أجل هذا رسماً هندسياً شفعه بالطلب؟

الإجابة نلجأ فيها للمنطق والاستقراء، فإذا كانت الشركة هي التي بادرت بالتبرع دون أن يقدم لها البنا طلباً بذلك لكان عليه وفقاً للخلق القويم أن يقبل التبرع دون أن يعاتب المتبرع بقلة التبرع، ودون أن يعايره بأنه تبرع في موضع آخر بمبلغ أكبر، هذا أمر لا يحدث أبداً في هذا الظرف الإنساني، ولكن المساومة التي حدثت لا تكون إلا عندما يكون هناك عرض

يتدارسه طرفان، يقول أحدهما للأول سأدفع لك مبلغاً قيمته كذا، فيقول الثاني للأول هذا مبلغ بخس لا يكفي للمطلوب الذي سأقدمه لك، وتنتهي المساومة بوعده بدفع مبلغ آخر في المستقبل، وقبول من المساوم للمبلغ، إلا أنه لكي يوضح أنه غير راضٍ عن القيمة قال للمتبرع إنه سيرسل له المختص كي يستلم المبلغ! وقد حدث!! مع أن البنا كرئيس للجمعية، وكشخصية عُرِف عنها أنها شخصية مركزية، ظل عمره في إدارته للجماعة يجمع كل الخيوط في يده، لذلك كان في إمكانه ومن حقه أن يستلم المبلغ بنفسه، خاصة أن الجمعية وقتها لم يكن لها لائحة تضبط ما يتعلق بالاختصاصات.

تشير هذه القصة فروضاً كثيرة متشابكة؛ إذ إن البنا حين كتبها لم يقم بصياغتها بشكل منطقي، ولكنك، لركافة العرض، تشعر أنك أمام تلفيق في تلفيق، ومن التلفيق الواضح هذه الفقرة الأخيرة من قصة هذا التبرع، تعود البنا في حياته أن يقذف حجراً واحداً ليجنّي به أكثر من ثمرة، لذلك فإن رفضه استلام المبلغ بنفسه يأتي في سياق إظهار الغضب من قلة قيمة التبرع، إلا أنه أيضاً كان حريصاً على أن يكون خبر هذا التبرع في أقل عدد ممكن من جماعته حتى لا يحاجه به أحد، فالمفروض أن المسجد قد انتهى تشييده، وقد يظهر في المستقبل أحد السياسيين ويتهم البنا بتلقي تمويل من الإنجليز والفرنسيين، ويظهر من أجل ذلك إيصال استلامه للمبلغ، لذلك يجب أن يوقع شخص آخر غيره على إيصال الاستلام، ولكن الله أراد أن تشيع قصة التبرع عند الإخوان وغيرهم، لذلك بحث البنا عن طريقة يبرر فيها سبب هذا التبرع وقلة قيمته وعدم جدواه، وأنه كان من تلقاء الشركة لا بناء على طلب منه، وكان من أجل الخير وبناء مساجد للعبادة، وقتها من الممكن أن نستسيغ القصة.

ولنا أن نسأل أنفسنا: هل الشركات التابعة للاستعمار الباغي تبادر إلى التبرع لأشخاص في الدولة المستعمرة لفعل الخير؟! التاريخ المصري يجيب علينا قائلا: «لم يسبق لشركة قناة السويس التي كانت تابعة للإدارة الأجنبية أن تبرعت في الإسماعيلية أو غيرها لأي عمل من أعمال الخير، وإنما كانت هذه الجهات تقوم بالاتصال بالعملاء وتكليفهم بمهام، وسداد مكافآتهم وفقا للمهام المسندة إليهم وقد تعيدنا هذه الإجابة إلى السؤال الأول الذي طرحناه وهو: لماذا اختار البنا مدينة الإسماعيلية ليعمل في مدرستها الابتدائية بدلا من أن يعمل في مدرسة المحمودية التي هي بلده! أظن الإجابة واضحة، ولعلنا نتوسع ونقول إن عدم استكمال البنا تعليمه في المدرسة العليا - رغم تفوقه - قد يكون في الغالب الأعم لهذا السبب، وكأن هناك من كان كامنا في مكان لا نراه ولم يسجله التاريخ قال للشاب الصغير حسن البنا: كفى تعلما فقد بدأ وقت الجدد، هذا وقت عملك المرسوم لك!

ولسنوات قليلة ظلت الجمعية في حضن مدينة الإسماعيلية إلى أن قبض الله للبنا أمرا وتم نقله إلى القاهرة، فانتقلت الجماعة معه وإن ترك في الإسماعيلية إخوانه الذين بدأ معهم، تركهم وهم يشتجرون فيما بينهم أيهم يكفل الجماعة ويكون مسئولا عنها في تلك المدينة الصغيرة؟

وفي القاهرة كانت أيام حسن البنا وجماعته في مرحلتها الثانية، كان كل همه هو أن يُنشئ شُعبا لجماعته في كل أنحاء البلاد، وتفرعت الجماعة وتشعبت حتى تشعبت بها الأقاليم، وبطريقته الدمثة الحماسية نجح البنا في أن يضم إلى جماعته أقطابا من العلماء مثل الشيخ «طنطاوي جوهرى» أحد عباقرة المصريين في القرن العشرين، وفي القاهرة أيضا كان من اليسير على البنا أن

يلتقي يوميا بالشيخين رشيد رضا ومحب الدين الخطيب، ومعهما التقى بحافظ وهبة مستشار الملك عبد العزيز آل سعود، ثم سافر إلى الحج، ويحكي رفاق البنا في هذه الرحلة أنه التقى فيها بالملك السعودي ملك المملكة الناشئة، ومن بعد هذا اللقاء أصبح شعار الجماعة هو «المصحف والسيفين» وشعارها الآخر هو «الله أكبر والله الحمد» وكأن البنا عهد على نفسه أن ينتقل إلى كل الأشجار ليقطف من كل شجرة ثمرة.

وشيئا فشيئا اتجهت بوصلة البنا الدعوية إلى طريق آخر، فمع مؤتمرات الإخوان ورسائل البنا كانت السياسة، وكانت شمولية الجماعة، فمع اختلاط مفهوم الجماعة عند البنا مع مفهوم الدعوة والإسلام والدعوة كان ولا بد أن يتجه البنا بجماعته ناحية الشمول فالإسلام الشامل لا يقيمه في ظنه إلا جماعة واحدة على شرط أن تكون هي الأخرى شاملة، مع أن الإسلام ليس هو الجماعة!

ولأن للسياسة طرقها ووسائلها، حاول البنا أن يقترب من الملك فؤاد، وحين مات نعاها البنا، وكتب في صحيفته يمهد الطريق للملك الجديد عبارة كررها التاريخ كثيرا هي: «مات الملك عاش الملك» ثم قام هو وجماعته بتنظيم استقبال حافل للملك الجديد فاروق، هتفوا بحياة المليك الجديد، وبإيعوه، وكتبوا في مجلتهم عن المجد الذي ينتظر الإسلام من خلاله، واستمرت علاقة البنا بالملك طيبة فترة ثم سرعان ما تعكر الماء بينهما ثم دخل الوفد في دائرة الخلاف، وراهن البنا حيناً من الدهر على رئيس الوزراء إسماعيل صدقي الملقب «عدو الشعب» فناصره ووقف معه ضد رغبة الشعب كله، وسرعان ما أصبحت كل الأحزاب في خلافات مع البنا وجماعته، فأصبح يمجح الحزبية

ويكره الأحزاب فلا حزب عنده إلا جماعته التي من شأنها أن تقيم شرع الله، وتعود لنا بدولة الخلافة ولا حزبية إلا للإسلام.

يقول البعض إن الخطأ الأكبر للبنا هو أنه دخل في أتون السياسة، أما أنا فأقول إن الخطأ الأكبر له هو تأسيسه للنظام الخاص عام 1939، فبعد وفاة الشيخ طنطاوي جوهرى الذي كان يرفض العمل المسلح، أنشأ البنا تنظيماً مسلحاً لجماعته المدنية، كان هذا التنظيم سرياً لا يعرف أحد عنه شيئاً حتى من قيادات الجماعة.. وأطلق عليه النظام الخاص، ولا أظن أبداً أن شخصية مركزية مثل شخصية حسن البنا، تدرس على أن تكون كل الخيوط في يده، يترك الحبل على الغارب للنظام الخاص يفعل ما يشاء دون علمه، بل إن تحقیقات الإخوان أنفسهم في حضرة البنا وفقاً لما أورده عبد العزيز كامل في مذكراته، وهو من هو قريباً لحسن البنا وحباً له، أثبتت مسئولية البنا عن اغتيال المستشار الخازندار الذي كان قد أصدر حكماً على بعض الإخوان، وكان اغتيال النقراشي باشا رئيس وزراء مصر هو الرصاصة التي انطلقت فيما بعد إلى قلب حسن البنا فأودت به.



قبل أن أدخل إلى قلب جماعة الإخوان، وبعد أن دخلت، وإلى اللحظة التي أكتب فيها هذه الكلمات، وحلم الخلافة واستعادتها هو الذي يسيطر على قلب الجماعة، عشنا في هذا الحلم وانغمسنا فيه حتى النخاع، رسمنا في ضمائرنا صورة وردية له، ما أجمل هذه الصورة وما أبهاها، أمن الممكن أن يتحول الحلم إلى حقيقة؟ الحلم الذي استولى على قلبي وقت أن كنت صغيراً وأنا أحث الخطى

للدخول إلى تلك الجماعة، هو أن ننشئ خلافة مثل الخلافة الراشدة، ولكن أحيانا تكون أحلام الصغار كبيرة، وأحلام الكبار صغيرة، أحلام الصغار غالبا طاهرة خالية من المنافع والمصالح والدنيا، ممتدة بلا حدود، لا تعرف المستحيل، فهم في سنهم هذا في أوج العاطفة الدينية البريئة، أما أحلام الكبار سدنة المعبد ففيها مآرب أخرى، ولكي يستمر ركب الصغار في مسيرتهم وراء السدنة يجب أن يظلوا على حلمهم الوردي، لا تبديل له، لذلك يظل الكبار على تصدير ذلك الحلم بصورته النقية إلى الأذهان وإلا انفض الجمع من حولهم.

وبعد سنوات وحين يكبر الصغير أو يقترب من دائرة الكبار يجد أن الأمور كانت مختلفة، ويكتشف أنه كان يعيش في حلمه الخاص، أسطوره الذاتية، وأن السدنة لهم رؤية أخرى وعالم آخر ليس من السهل أن يلج فيه الصغار، فإذا كبروا ذات يوم ودخلوا عرفوا، وإذا عرفوا إما أن يقبلوا الواقع الذي كانوا يجهلونه، وإما أن يتمرّدوا عليه، فإذا تمرّدوا عاشوا زمنا على وهم، أن يكون حلمهم هو حلم الجماعة كلها بصغارها وكبارها، ولكن ذات يوم يطولهم اليأس.

الحقيقة التي تظل مخفية زمنا هي أنهم لا يريدون خلافة إسلامية، ولكنهم يريدون خلافة إخوانية، الخلافة التي يريدونها كبار الإخوان هي خلافة على شكل الخلافة الأولى ورسمها، دون أن تكون على منهاج النبوة، ويالها من مسافة شاسعة تلك التي بين الشكل والمنهج!

لم تكن عقولنا حين كنا صغارا قد استوت على سوقها ونضجت، فلم نر إلا حلمنا ولم نر العالم كله، لم ندرك أن الواقع الآن غير واقع العصور الأولى، والأحكام تتغير بتغير الزمان، وشكل أنظمة الحكم في العالم في زمن

الخلافة يختلف عن شكل أنظمة الحكم في واقعنا، فإن كان لا ضير من أن ننشد توحيدها للأمة «واعتصموا بحبل الله جميعاً» إلا أن هذا الاعتصام ينبغي أن يكون أول ما يكون في مقاصد الشريعة، فكيف تعود الخلافة على شكل الخلافة الأولى وهي تخاصمها في العدل والمساواة والحرية، ستكون آنذاك كبيت العنكبوت، أو ستصبح «خلافة ضراراً» كمسجد الضرار، ستعود بنا إلى خلافة «الرجل المريض».

ولأننا وقعنا تحت دائرة استخدام المصطلحات في غير موضعها، فقد أطلقنا عبر تاريخنا مُسمى الخلافة على شيء آخر لا علاقة له بالخلافة، الخلافة فقط كانت هي الخلافة الراشدة، وانتهت بقتل سيدنا علي رضي الله عنه، أما ما جاء في واقع الأمة بعد ذلك فلم يكن خلافة، ولكنه كان «حُكم أسر» حيث حكمت الأسرة الأموية ثم العباسية وكانت نهاية حكم الأسر على يد الأسرة العثمانية، ولكننا كنا نطلق عبر تاريخنا على حكم الأسر هذا، دولة الخلافة! لذلك فإن حلم السدنة هو أن ننشئ حكم «الأسرة الإخوانية» التي ستكون استعادة لا للخلافة الراشدة ولكن لحكم الأسر التي حكمت تحت راية الخلافة، ولكي نكون أسرة ونحن لا يجمعنا أصل واحد، فيجب أن تكون هناك رابطة تجمعنا، ولتكن رابطة الأخوة في الله، وما أعظمها من رابطة، وللأخوة في الله أحكام، لذلك فإن البناء القاعدي الأدنى في الجماعة هو «الأسرة» فنعيش ردحا من الزمن على أننا فعلاً أخوة، وأننا في أسرة هي أقرب إلينا من حبل الوريد، أخى في الأسرة أفضل عندي من أخى في الدم، ولكن أخوة الإخوان لا تدوم لأنها في حقيقتها ليست أخوة في الله، ولكن في التنظيم، بحيث إذا خرج واحد من التنظيم خرج من دائرة الأخوة.

عندما نشأت جماعة الإخوان عام 1928 كان حكم الأسرة العثمانية قد انقضى، إذ كان مصطفى أتاتورك قد فصح عراها، وساعده في ذلك الضعف الذي اعترى الدولة العثمانية، وحين أنشأ حسن البنا الجماعة وضع لها «خارطة طريق» غيرت الدنيا ولم تتغير الخارطة، زالت دول وقامت حروب عالمية وظهرت دول جديدة تسيدت العالم ونشأت «عصبة الأمم» ومن بعدها «الأمم المتحدة» وظهرت منظمات اتحادية كجامعة الدول العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي ولم يتطور فكر الإخوان المسلمين، لا يزالون يتحدثون عن دولة الخلافة التي ستصل إلى أستاذية العالم، يصنعون منها كعبة، وما كانت كعبة ولكنها هي «الوعاء الإنساني والمجتمعي» الذي من شأنه إقامة معاني الإسلام ومقاصده، بذلوا الوعاء وغيروا شكله كما شاء لكم الاجتهاد، ولكن لا تهدموا المقاصد من أجل الأوعية، فما قيمة الوعاء إذا كان خالياً إلا أن تترين به الموائد.

وعاء الإخوان الخالي احتوى في داخله على اسم المنتج، لا تظن أن المنتج هو «نبحث عن حكم من أجل إقامة الدين واستعادة الخلافة» ولكنه كان ولا يزال «نرفع شعار الدين والخلافة من أجل الحكم»؟ لذلك فإن رحلتهم لم تكن من أجل الدين والخلافة الإسلامية الراشدة أبداً، ولكنها كانت من أجل الحكم وإقامة الخلافة الإخوانية، وفارق كبير بين هذا وذاك، وذات يوم وصلوا إلى الحكم!

رحلة الوصول للحكم لم تكن سهلة ولا هينة، بل كانت طويلة وشاقة، وأشهد أن الجماعة كانت دءوبة، لم تتوان عن استخدام كل الطرق من أجل مبتغاها، ولكنها في كل مرة قبل أن تصل إلى القمة إذا بصخرة الحكم تنزلق من على ظهرها إلى أسفل الجبل، فتهبط هبوطاً اضطرارياً لتحمل الصخرة

مرة أخرى وتصعد إلى قمة الجبل، وقبل أن تضع صخرة الحكم في موضعها وتجلس متكئة عليها تعود الصخرة للانزلاق، تماما مثل سيزيف في الأسطورة الإغريقية، ولكن سيزيف ظل في عذابه هذا إلى الأبد بسبب غضب آلهته منه، بينما آلهة الإخوان أخذت موقفا مختلفا ورضيت عنهم فمهدت لهم الطريق ليكونوا على رأس الدولة المصرية وبعض دول عربية محددة.

كانت رحلة الوصول للحكم التي قطعها الإخوان مكلفة لا شك في ذلك، ولكنها أيضا كانت بمثابة فترة اختبار، فقد وضعتهم آلهتهم سنوات طويلة تحت اختبارات عديدة، وفي كل مرة كانت علاماتهم أقل من المتوسط، ولكنهم كانوا يكتسبون خبرات عديدة مرة بعد الأخرى، إلى أن حان الحين، ولكن هل كانت بداية الإخوان حقيقة قد بدأت عام 1928 أم أن البداية كانت قد بدأت سرا في مكان ما؟

ذات يوم من الأيام الأولى من عام 1920، طرأت فكرة على خاطر «ألفرد ملنر» مدير المستعمرات البريطاني، كان هذا الرجل شخصية محورية في بريطانيا، وكان قد عمل في مصر في نهاية القرن التاسع عشر مساعدا لوزير المالية الذي كان وقتها إنجليزيا، استمر ملنر في مصر أربع سنوات كاملة أصبح خلالها عارفا بخريطة مصر الجغرافية والسياسية، وحين قامت الثورة المصرية الأولى عام 1919 تُطالب بالاستقلال، رأت إنجلترا أن ترسل هذا الرجل - الذي كانت له مكانة سياسية كبيرة هناك، إلى مصر على رأس وفد إنجليزي كي يدرس أسباب الثورة وكيفية تجنبها، هبط ملنر وهو يرتدي بزته الإنجليزية الأنيقة من سفينته إلى أرض مصر كي يقوم بمهمته هذه في ديسمبر من عام 1919، وظل بها إلى آخر مارس 1920، تقابل خلالها مع

عدد محدود من القيادات التنفيذية والسياسية في مصر كان منهم عدلي يكن باشا رئيس الوزراء؛ إذ إن سعد زغلول أرسل من منفاه إلى كل القيادات السياسية في مصر طالبا منها أن تقاطع لجنة ملنر، المقاطعة هي الحل، يجب أن ينقطع كل الشعب عن مقابلة هذا الرجل حتى نُجبر الإنجليز على إعادة سعد زغلول من منفاه، لا تفاوض إلا مع سعد، كل من كان يقابله ملنر كان يقول له: اسأل سعد، سعد هو من يمثلنا، وحين ظن بعض الساسة والمؤرخين أن لجنة ملنر قد باءت بالفشل الذريع، كان ملنر قد حقق نجاحا مدويا إذ كان المثل القائل «كل الطرق تؤدي إلى روما» هو خط سيره في مصر.

حينما كان ملنر في مصر جلس مع اللورد اللنبي المندوب السامي البريطاني، وتداولوا، وتشعب بهما الحديث، ويبدو أن الفكرة اختمرت في ذهنيهما آنذاك «فليكن لهما الاستقلال الذي يريدون» ولكننا سنخفي أمرا!

عاد ملنر إلى بريطانيا، وتقابل مع رئيس الوزراء «ديفيد لويد جورج» وأفضى إليه بما حدث له في مصر من إعراض، وأسر له بالفكرة التي اعتملت في ذهنه بعدما التقى مع «اللبني» وعندما خرج من مقابلة رئيس الوزراء أجرت معه جريدة «مانشستر جارديان» حوارا قصيرا، قال فيه: «إنه لا يمانع من منح مصر الاستقلال بشرط عدم تعريض مصالح بريطانيا للخطر» ثم أضاف: «إن اللورد اللنبي وافقني على رأيي حتى ولو كنا سنمنح مصر استقلالاً كاملاً فإن هذا لا يضرنا في شيء»⁽¹⁾.

سأله الصحيفة: «وما هي خطتكم في الحفاظ على مصالح بريطانيا؟»

(1) جريدة مانشستر جارديان يوم 1920/4/25.

أجاب: «تكمّن خطورة المصريين في وحدتهم، ولذلك كانت ثورة سعد زغلول ورفاقه قوية لأن مصر أصبحت الكل في واحد، هم يريدون بناء دولة حديثة لها استقلال كامل، وليكن ولكننا لن ندعهم يكررون الكل في واحد.»

قالت الصحيفة: «كيف؟».

رد ملنر: «هناك من قال إن الدين أفيون، ولكنني أؤكد أن الدين قبلة».

الصحيفة: «لم نفهم شيئاً من إجابتك سيدي!».

ملنر: «ملكوت الله في السماء هكذا نعرف، وملكوت الناس في الأرض، فلننزل لهم الرب ليحكم الأرض، ولكنه سيفرقهم».

الصحيفة: «هذا كلام فلسفي لكننا لا نفهم منه شيئاً، كيف ستنزل لهم الرب من السماء؟ وماذا سيفعل لهم الرب؟ وهل الرب يعمل لمصلحة الملك؟»

ملنر: «لا أستطيع الإيضاح أكثر من ذلك ولكن ليعلم الجميع أن الرب يعمل لمصلحة بريطانيا وسيكون له دور في استمرار وصايتنا على مصر حتى ولو حصلت على استقلال كامل».

انتهى كلام ألفرد ملنر لصحيفة مانشستر جارديان، وقد أخرج صحفي اسمه «جورج هيلر» هذا الحوار في كتاب طبعه عام 1932 اسمه «بريطانيا والعالم» تحدث فيه عن سياسة بريطانيا في مستعمراتها ومنها سياسة بريطانيا تجاه المملكة المصرية.

الآن نستطيع إكمال المعلومات استقرائيا، فكما في عالم كرة القدم مهنة قديمة اسمها «الكشاف» يقوم فيها هذا الكشاف بالترحال في البلاد للبحث عن شاب صغير موهوب في لعبة الكرة، فهناك في عالم السياسة والمؤامرات والمخابرات كشاف يجوب العالم للبحث عن موهوب ينفذ خطة المدرب الأجنبي.

الآن نستطيع الإجابة عن الأسئلة التي أوردتها البنا في مذكراته ولم نجد لها إجابة منطقية من قبل ، وهاك الأسئلة التي ظلت تبحث عن إجابة:

- 1- لماذا قرر البنا عدم إكمال تعليمه العالي رغم تفوقه وقرر العمل بالتدريس بشهادته المتوسطة التي لا تبيح له إلا العمل كمدرس للخط العربي؟
- 2- لماذا قرر البنا أن يعمل في مدينة الإسماعيلية التي كانت مقرا لشركة قناة السويس وإدارتها الأجنبية؟ ولماذا فضل أن يبتعد عن أهله ومدينته أو حتى مدينة القاهرة التي كانت طموح الريفيين من أصحاب الهمم العالية والرغبة في البذوخ؟
- 3- من الذي وجهه لهذا الاختيار؟
- 4- لماذا تبرعت الإدارة الأجنبية لشركة قناة السويس لحسن البنا بمبلغ خمسمائة جنيه وهو مبلغ ضخم بمعايير العشرينيات؟ ولماذا اعترض البنا على قلة قيمة هذا التبرع رغم ضخامته؟!

ولنعد إلى ثورة 1919 وما تلاها لنعرف كيف فكر ملنر، ولماذا وافقه رئيس الوزراء ديفيد لويد جورج.

كانت مصر قد بدأت تأخذ خطواتها في طريق المدنية الحديثة، وتعالى الأصوات من رجالها تطالب بالاستقلال الكامل، وخرجت النساء لأول

مرة في تاريخ مصر في مظاهرات تشارك فيها الرجال في المطالبة بالاستقلال ذلك الحلم المنشود لمصر، وها هو الشاعر الكبير حافظ إبراهيم يكتب قصيدته الشهيرة عن ثورة النساء:

خرج الفواني يحتججن ورحلت أرقب جمعهن

كانت كل مصر وكأنها قد تجمعت على قلب واحد يقول: إن مصر دولة ذات حضارة ضاربة في أعماق التاريخ، ولا ينبغي أبدا أن تظل رهينة في يد الاحتلال، حتى ولو كانت إنجلترا إمبراطورية عظمى، فإن مصر بتاريخها وعمقها الحضاري أعظم، ولكن موازين القوة لا تعترف بالماضي، هي تعرف الحاضر فقط.

ومع الرغبة الجارفة في الاستقلال عن إنجلترا، كانت هناك رغبة أخرى كامنة في الضمير المصري بالاستقلال من الدولة العثمانية، ولكن كان هناك أنصار للدولة العثمانية باعتبارها دولة خلافة إسلامية، والإسلام هو الحل، والخلافة فريضة.

انتهت فاعليات الثورة وقبلت الحكومة البريطانية آراء ملنر، وأصدرت الحكومة البريطانية تصريح 28 فبراير 1922 الذي أعلن من طرف واحد استقلال مصر، إذ لم يكن هناك في مصر وقتها من وافق على توقيع معاهدة مع الإنجليز، لذلك جاء بيان الاستقلال هذا على شكل تصريح، وينص التصريح على:

إلغاء الحماية البريطانية على مصر والاعتراف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة.
إلغاء الأحكام العرفية.

تهيئة البلاد لحياة دستورية برلمانية عن طريق وضع دستور للبلاد وانتخاب أعضاء برلمان مزدوج أي بمجلسين.

ولكن مع تحفظات أربعة :

- تأمين المواصلات البريطانية في مصر.
- الدفاع عن مصر ضد أي هجوم عليها.
- حماية المصالح الأجنبية وحماية الأقليات.
- تستمر أوضاع السودان على ما كانت عليه.

نزل هذا التصريح على قلب السلطان فؤاد بردا وسلاما، الآن يستطيع أن يتخذ لنفسه لقب «جلالة الملك» ويصبح كجورج الخامس ملك إنجلترا، فليس وحده هو الملك ولكن فؤاد أيضا كذلك، وفي 31 مارس 1923 خرجت أنفاس المصريين من صدورهم وهي تحمل زفير الفرحة، فقد تم في هذا اليوم الإفراج عن سعد زغلول ورفاقه، فسافر سعد إلى فرنسا، ثم سُمح له بالعودة إلى مصر فعاد في 18 سبتمبر 1923، وخرج المصريون في كل المدن والقرى يغنون أغنية سيد درويش التي لحنها احتفالا بعودة سعد - ولكنه قد مات قبل عودة سعد بثلاثة أيام - وهي «سالة يا سلامة رحتي وجيتي بالسلامة».

وسط هذه الأحداث صدر دستور 1923، وضح فيه أن مصر أخذت طريقها لبناء دولتها الدستورية الحديثة التي لها خلفية مرتبطة بالوطن والتاريخ، وقد جاء في ديباجة هذا الدستور:

(نتطلب الخير دائما لأمتنا بكل ما في وسعنا ونتوخى أن نملك بها السبيل التي نعلم أنها تفضي إلى سعادتها وارتقائها وتمتعها بما تتمتع به الأمم الحرة

التمدينة، ولما كان ذلك لا يتم على الوجه الصحيح، إلا إذا كان لها نظام دستوري كأحد الأنظمة الدستورية في العالم وأرقاها تعيش في ظله عيشا سعيدا مرضيا وتتمكن به من السير في طريق الحياة الحرة المطلقة، ويكفل لها الاشتراك العملي في إدارة شئون البلاد والإشراف على وضع قوانينها، ومراقبة تنفيذها، ويترك في نفسها شعور الراحة والطمأنينة على حاضرها ومستقبلها، مع الاحتفاظ بروحها القومية والإبقاء على صفاتها ومميزاتها التي هي تراثها التاريخي العظيم، وبما أن تحقيق ذلك كان دائما من أجل رغباتنا ومن أعظم ما تتجه إليه عزائنا حرصا على النهوض بشعبنا إلى المنزلة العليا التي يؤهلها ذكاؤه واستعداده وتتفق مع عظمتة التاريخية القديمة وتسمح له بتبوء المكان اللائق به بين شعوب العالم المتمدين وأممهم).

انحاز الدستور لدولة يتم تنظيم مؤسساتها على النسق العالمي الحديث، لها جهات تشريعية تملك الحق في التشريع لنفسها وإصدار القوانين، لها سلطة قضائية، تراقب تطبيق القانون وتعمل على تنفيذه على الوجه الصحيح، ولها سلطة تنفيذية تضبط كل ما يتعلق بإدارة البلاد، مصر الحديثة في هذا الدستور قوميتها عربية.

أجريت انتخابات البرلمان والشيوخ عام 1924 وحلف الملك فؤاد اليمين الدستورية أمام المجلسين في دور الانعقاد الأول، وكان رأي بعض من عاصروا هذه التجربة أن (بدأت انقسامات المصريين فبدلا من أن نكون يدا واحدة ضد الإنجليز الذين أعطونا استقلالنا منقوصا، انشغلنا بالمنافسة والتزاع والخصام لاكتساب مقاعد بالمجلسين)⁽¹⁾.

(1) الكاتب الكبير فكري أباطة في كتابه «الضاحك الباكي» طبعة سنة 1933 وقد كان فكري أباطة واحدا من أصغر أعضاء برلمان 1924 سنا.

وفي عام 1925 خرج للوجود كتاب فَجَّرَ مصر من الداخل، هو كتاب الإسلام وأصول الحكم للشيخ علي عبد الرازق⁽¹⁾ - أثار الكتاب ضجة كبرى في مصر والعالم العربي كله حيث جاء فيه «إن الإسلام لم يضع لنا شكلاً للحكم، ولم تكن الخلافة فريضة ولكنها كانت تناسب عصرها فقط، ليس المهم عندنا شكل الحكم ولكن المهم هو أن يحقق نظام الحكم الذي نتخيره مقاصد الشريعة» كانت الطامة الكبرى عند البعض أن الشيخ علي عبد الرازق تطرق للخلافة، ونفى فرضيتها أو فريضتها، فقام الأزهر الشريف بسحب شهادة العالمية منه عقاباً له على رأيه، وكتب عشرات الكتاب منذ ذلك الحين إلى وقتنا هذا عشرات الكتب التي تحاول تفنيد رأي علي عبد الرازق، وكتب العشرات أيضاً كتباً تؤيده فيما ذهب إليه.

وضح من هذه المعركة أن مصر انقسمت فعلاً إلى فريقين، فريق يقول: إن الخلافة فريضة، وهي فريضة حتمية، ولا خيار لنا فيها ولا حق لنا في تبديلها ويجب أن تكون على شكل الخلافة الراشدة، وهي خلافة ممتدة لا حدود لها ولا أرض ولا وطن، إذ المستهدف منها الوصول إلى غاية واحدة هي السيطرة على العالم كله، فحيثما كانت أي أرض يصدق فيها الأذان فهي تابعة للخلافة الإسلامية، لا فرق بين عربي ولا أعجمي، وطننا في السماء، وطننا هو لا إله إلا الله، ولا عبادة إلا الله، ولا عبادة بالأرض ولا الحدود، وكان هذا الفريق يقوده كبار علماء الدين مع بعض الوزراء والشخصيات العامة التابعة للملك فؤاد الأول الذي كان طامحاً إلى الخلافة بعد أن انقضت الدولة العثمانية.

(1) الشيخ علي عبد الرازق أحد علماء الأزهر الكبار ولد عام 1888 وتوفي عام 1966 وقد كان الشيخ علي عبد الرازق من تلاميذ الإمام محمد عبده ومن أصدقاء قاسم أمين.

أما الفريق الآخر فيقول: «ليس هناك شكل للحكم، ونحن نعيش في وطن عربي له أصول فرعونية، نستمد عاداتنا وتقاليدها من تاريخنا ومجتمعنا، ولنا الحق في أن ننشئ لأنفسنا نظام الحكم الذي يتوافق مع مصالحنا، فالرسول ﷺ قال «أنتم أعلم بشئون دنياكم» وهذه هي دنيانا لنا أن نضيف لها ما يتناسب مع العصر، ولسنا تابعين ولا ينبغي أن نكون تابعين لدولة أخرى تحت أي مسمى، بلادنا ليست في السماء ولكنها في الأرض ذات الحدود المعروفة لنا والتي ندب عليها بأقدامنا، ندافع عنها بأرواحنا، أما موعدها في السماء فسيكون بعد الدنيا».

انشغلت مصر سنوات بهذا الصراع، وما زالت، وبعد سنوات قليلة من احتدام هذا الصراع، ومن اتجاه جمهرة من المتدينين بالفطرة والعاطفة إلى «وجوب دولة الخلافة» ظهر شاب درعمي صغير في طور الشباب الأول، ولد في مدينة المحمودية، وسافر إلى مدينة الإسمايلية البعيدة عن مدينته، ليعمل بها مدرسا وفقا لرغبته واختياره، وهناك حيث مجتمع يضم الموظفين الإنجليز والفرنسيين الذين يعملون في شركة قناة السويس، ويضم أيضا أغلبية مصرية من الحرفيين وصغار التجار وصغار الموظفين، في هذه البقعة المتنوعة يعلن الشاب الذي كان في بداية العقد الثالث من عمره إنشاء جماعة دينية اسمها جماعة الإخوان المسلمين، هدفها الأسمى هو «استعادة دولة الخلافة» لا تعترف بالوطن الذي نعترف به، وتريد أن يكون وطنها هو الدين، وليس الطين، وكان لهذه الجماعة الدور الأكبر في قسمة المجتمع المصري على خلفية عقائدية، لم تكن هذه الجماعة بعيدة عن يد المخابرات البريطانية، بل كانت في قبضتها وملك يمينها، كانت كقطعة من قطع الشطرنج تحركها يد اللاعب، ليس هذا الكلام من عندياتي ولكنه كلام «كيرتس الرهيب!».

الفصل الثالث

إشعال النار في القط

(في الريف يعرف المحترفون أنهم لا يحتاجون إلى بذل مجهود لإشعال الحرائق، يكفي فقط أن يصب هذا المحترف الخبير قليلا من الزيت على قط في عنفوان شبابه وقوته، ثم يشعل فيه النار ويطلقه سريعا وسط الحقل المستهدف، وسيقوم القط المشتعل بعمله خير قيام).

اليوم: الثامن والعشرون من شهر مارس.

العام: 2008.

الشخص: كين لفنجستون.

الوظيفة: عمدة لندن وأحد أقطاب حزب العمال البريطاني وأحد الأسماء البارزة في سماء اليسار الأوروبي الداعم للعديد من القضايا العربية والإسلامية.

المشهد: خرج كين لفنجستون من مكتبه ليقف أمام عشرات من الصحفيين، وبعد أن تحدث معهم عن بعض الشؤون الخاصة بالعاصمة لندن سأل أحد الصحفيين عن خطر الجماعات الإسلامية الأصولية، فقال لهم

مطمئناً: جماعة الإخوان كبرى هذه الحركات تربطنا بها علاقة جيدة، وقد كانت تتلقى تمويلاً مالياً من الخارجية البريطانية منذ بداية نشأتها، فهي ليست بعيدة عنا إذن، وقد استخدمنا هذه الجماعة لسنوات طويلة وكانت مخلصه لنا، فقد كان نظام عبد الناصر خطراً علينا، وعلى الجانب الآخر مثلت هذه الجماعة خطراً كبيراً على عبدالناصر ونظامه.

ورغم أن هذا التصريح كان بمثابة قبلة فإن أحدًا عندنا في الشرق لم يلتفت كثيراً لهذه التصريحات، كانت التبريرات التي خرجت من بعض قيادات الجماعة في موقعهم الإلكتروني تذهب إلى أن «هذا العمدة رجل ماتور حاقد كاره للإسلام وهو شيوعي قح فماذا تنتظرون منه؟ كما أن كلامه لم يكن موثقاً، وهذا وحده كفيلاً بهدم كلامه».

النتيجة: لم تلقَ تصريحات لفنجستون العناية الكافية من الباحثين في المنطقة العربية، ولم يصل صداها إلى الجماهير.

يكتب الكاتب الأمريكي روبرت دريفوس في كتابه الشهير «لعبة الشيطان» عن دعم الولايات المتحدة الأمريكية للجماعات الأصولية وفي القلب منها جماعة الإخوان، ويقول فيه: (تأسست حركة الإخوان المسلمين على يد حسن البنا بمنحة من شركة قناة السويس البريطانية، وخلال ربع القرن التالي تتلقى تلك الجماعة الدعم الكامل من الدبلوماسيين البريطانيين والمخابرات البريطانية)⁽¹⁾.

ثم يقول أيضاً: (كانت هذه الجماعة هي القوة الوحيدة في الشرق الأوسط

(1) لعبة الشيطان للكاتب روبرت دريفوس طبعة 2010 ص 60

التي تمثل ثقلًا كبيرًا في عملية تحقيق التوازن ضد القوى المناهضة لبريطانيا وهي القوميون واليسار العلماني⁽¹⁾.

استمر دريفوس في الكتاب قائلًا: (كان الدبلوماسي الأمريكي هيرمان إيلتس صديقًا لحسن البنا وقد التقى به كثيرًا) وينقل دريفوس على لسان إيلتس: (أعرف أحد زملائي في السفارة الأمريكية كان يلتقي بشكل دوري مع حسن البنا وذلك لأغراض التقارير)⁽²⁾.

قد يكون دريفوس مبالغًا، فلربما كانت في نفسه موجدة من الإخوان، ولربما كان حاقداً على حسن البنا، ولكن الوثائق لا تحقد، ولا تميل، ولا تحمل موجدة إنما تحمل حقائق وتروي تاريخًا، لذلك كانت هناك أهمية بالغة لكيرتس، الذي أطلقت عليه كيرتس الرهيب.

يقول الكاتب الصحفي علاء عزمي في بحث له منشور في مجلة آخر ساعة عدد 2010/8/16 (مارك كيرتس كاتب بريطاني مثير للجدل، ارتبط اسمه بالكشف عن العديد من الفضائح السياسية والتاريخية لبلاده وقد بدأ مارك كيرتس دراسته في مدرسة لندن للاقتصاد، ثم عمل باحثًا لدى المعهد الملكي للشئون الدولية، كما سبق له العمل كمدير بـ«الحركة الإنمائية العالمية» وأيضاً كمدير ومشرف على إدارات الشئون السياسية بعدد من المنظمات غير الحكومية المعروفة، مثل كريستيان إيد وأكشن إيد، وعين من قبل باحثاً زائراً بالمعهد الفرنسي للعلاقات الدولية في باريس والمعهد الألماني

(1) المرجع السابق ص 61.

(2) المرجع السابق ص 80.

للسياسة الخارجية بيون، وهو مصنف كأحد كبار الباحثين في شئون الشرق الأوسط، ويعيش الآن كصحفي حر وله العديد من الإسهامات الصحفية والبحثية التي تجد نوافذ للنشر في عدد من المجلات والصحف العالمية والعربية كالجارديان، وريدبير، والإندبندنت، وزنيت، وفرونتلاين، والشرق الأوسط، والأهرام).

ذات يوم وأثناء بحث كيرتس في وثائق وزارة الخارجية البريطانية وقع على مجموعة من الوثائق أذهلته وغيرت مسار تفكيره، كان كيرتس مهتماً بالشأن العربي والجماعات الإسلامية، وكان يعرف وفقاً للظاهر أن الشيخ حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان هو داعية مصري أنشأ جماعة الإخوان التي أثارت جدلاً كبيراً واشتبكت مع كل الحكومات التي حكمت منذ عهد الملك فاروق حتى عهد حسني مبارك، ولكن نهمه للبحث والتقصي وعقليته البحثية قادتته إلى أروقة هيئة الأرشيف الوطني البريطاني، ظل كيرتس يتردد على هذه الهيئة أربع سنوات كاملة عثر فيها على كنز من الأسرار يصعب أن يقع عليه باحث، وهناك وهو جالس وسط «الكنز المعلوماتي البريطاني» كان قراره: سأكتب كتاباً أضع فيه عشرات من هذه الوثائق، يجب أن يعلم العالم الصورة الحقيقية المختبئة في الأرشيف، فليس كل ما كان يحدث في العالم عفويًا أو من وحي خاطر أصحابه، ولكن صناعة الحدث كانت هي لعبة المخابرات في عشرات الحوادث التي مرت على العالم».

فكان أن كتب كتابه الأشهر «العلاقات السرية.. تواطؤ بريطانيا مع الأصوليين الإسلاميين المتشددين».

كان هذا الكتاب كارثة وقعت على رأس الإخوان ولكنهم تجاهلوا ودفنوا رءوسهم في الرمال، وكأن شيئاً لم يحدث على الإطلاق، وكيف يعقبون على هذا الكتاب وقد احتوى على «وثائق الحقائق» التي تكشف التعاون الكبير بينهم وبين وبريطانيا، وكيف يكذبونها وهي تحمل أخبار الأموال التي كانت تدفع بالتنسيق مع القصر لمؤسس الجماعة الشيخ حسن البنا بغرض السيطرة عليه وعلى أتباعه.

إنك لا تستطيع أن تضع كتاباً في كتاب، ومن الظلم للحقيقة أن تجزئ منه فقرات وتترك باقي الفقرات، ولذلك كان من الأصوب أن نلجأ للترجمة التي قام بها البعض - ومنهم الكاتب والباحث علاء عزمي - لننقل ملخصاً عن الكتاب:

(لسنوات عدة ظل كتاب «الخداع الأكبر.. القوة الأنجلو - أميركية والنظام العالمي» هو أشهر أعمال كيرتس على الإطلاق، لاسيما أنه قد كشف سر العلاقات الأميركية البريطانية في حقبة ما بعد الحرب الباردة، حيث ظلت المملكة المتحدة (بريطانيا) شريكاً محورياً في جهود الولايات المتحدة لتعزيز هيمنتها عالمياً، إلا أن كتابه الجديد «العلاقات السرية..» بات هو الأهم والأخطر بين كل ما كتب، وفيه يؤكد كيرتس مستنداً إلى قائمة طويلة من الوثائق السرية التي اطلع عليها (تم إيداعها بهيئة الأرشيف الوطني البريطاني) أن صناع القرار السياسي في بريطانيا قد اعتادوا التعاون مع مجموعة من الحركات الإسلامية الراديكالية من أمثال جماعة الإخوان، ورغم علم لندن أن هذه المجموعات معادية للغرب على طول الخط، فإنها تعاونت معها من أجل تحقيق أهداف تكتيكية قصيرة المدى، مثل الحفاظ

على المصادر والثروات الطبيعية كالنفط أو الإطاحة بالحكومات القومية التي كانت تمثل تهديدًا للإمبراطورية البريطانية وكذا للمشروع الغربي الرأسمالي ككل في حقبة زمنية ما، لافتًا إلى أن التركيز البريطاني على مديد العون والدعم لمثل هذه المجموعات والتيارات ذات الطابع الديني المنغلق لم يعد مقتصرًا على منطقة الشرق الأوسط، وإنما تخطاها لمناطق أخرى دون أخذ العواقب طويلة المدى لمثل هذا التعاون في الاعتبار، مؤكدًا أن التهديد الإرهابي الحالي لبريطانيا هو نكسة إلى حد ما ناجمة عن شبكة من العمليات البريطانية السرية مع الجماعات الإسلامية المتشددة ممتدة عبر عقود.

فبريطانيا هي التي دعمت آية الله سيد كاشاني، مُعلم رمز الثورة الإسلامية في إيران آية الله الخميني، في إطار سعيها للتخلص من حكومة الدكتور مصدق التي كانت تحظى بشعبية جارفة وقامت بتأميم صناعة النفط في إيران في الخمسينيات، أما بخصوص علاقة بريطانيا بجماعة الإخوان المسلمين فإن وثائق الكتاب التي وقع عليها كيرتس خاصة بالفترة التي تبدأ من عام 1942 لا قبلها وإن كان هناك العديد من الوثائق السابقة على هذه الفترة يقول كيرتس: إنه يعكف عليها حاليًا لإتمام بحثه وإفراغه في جزء آخر للكتاب.

يكشف كيرتس عن وثيقة مؤرخة عام 1942، حيث جاء في تقرير بريطاني رسمي ما نصه: «سيتم دفع الإعانات لجماعة الإخوان المسلمين سرًا من جانب الحكومة المصرية، وفقًا للاتفاق بيننا وبين القصر، وسيطلبون بعض المساعدات المالية في هذا الشأن من السفارة البريطانية، وستقوم الحكومة المصرية بالزج بعملاء موثوق بهم داخل جماعة الإخوان للإبقاء على مراقبة

وثيقة لأنشطتها، ما يجعلنا (السفارة البريطانية) نحصل على المعلومات من هؤلاء العملاء، ومن جانبنا، سنجعل الحكومة مطلعة على هذه المعلومات التي تم الحصول عليها من مصادر بريطانية».

وقبل منتصف خمسينيات القرن الماضي، حسبما يوثق الكتاب، اتخذت المعاملات السرية بين البريطانيين والإخوان منحى آخر. إذ نظرت بريطانيا للجماعة باعتبارها معارضة مفيدة لسياسة الرئيس جمال عبدالناصر ذات التوجهات القومية العربية، وأنها أفضل وأقل ضرراً من التيارات القومية رغم أصوليتها الشديدة، ومن ثم عقد مسئولون بريطانيون اجتماعات مع قادة الإخوان المسلمين من أجل العمل كأداة ضد النظام الناصري الحاكم أثناء مفاوضات إجلاء القوات العسكرية البريطانية من مصر، وكذا من أجل خلق موجة من الاضطرابات تمهد لتغيير النظام في بلاد النيل).

وعند هذه الجزئية أجدني مضطراً للتوقف عن نقل الملخص والانتقال إلى مكان آخر، حيث أنقل لكم، لا من عندي، ولكن من مذكرات كبار قادة الإخوان، وذلك من أجل إجراء مطابقة بين ما ذكره كيرتس عن طلب المخابرات البريطانية من الإخوان الوقوف ضد اتفاقية الجلاء، وما حدث فعلاً في هذه الفترة وفقاً لمذكرات الإخوان أنفسهم، وقد كتب العديد من الإخوان مذكراتهم عن تلك الفترة ولكتني فضلت أن أنقل من مذكرات الدكتور يوسف القرضاوي الذي قال عن توتر العلاقة بين الإخوان وعبد الناصر (كما وجد عنصر جديد زاد العلاقة توتراً، والنار اشتعالاً، وهو الاتفاقية الجديدة التي عقدها عبد الناصر مع بريطانيا، ولم يرها الإخوان محققة لكل آمال البلاد، بعثوا مذكرة مفصلة إلى حكومة الثورة برأيهم في

الاتفاقية وملاحظاتهم عليها، وقد أغضب ذلك عبد الناصر، وزاد من تدهور الوضع.. كان أثر نقد الهضيبي الجريء الصريح لموضوعات الاتفاق مزعجاً ومقلقاً، وساءت الأمور إثر بيان طويل مفصل يحتوي على نقد الاتفاق أرفق بخطاب بعث به حميدة نائب المرشد باسم مكتب الإرشاد في الثاني من أغسطس إلى عبد الناصر. وقد نُشر كذلك عن طريق جهاز النشرات السرية «منشورات»؛ فكان ذلك توثيقاً لحق الإخوان في إعلان رأيهم في الاتفاق، علاوة على كونه نقداً له. وقد زاد من تعكير الجو إصدار نشرتين أخريين «منشورين»: إحداهما نقد للاتفاق، أمضاها محمد نجيب، ذكر فيها عدم صلته بالاتفاق، والثانية بإمضاء وزير سابق عُرف فيما بعد أنه «سليمان حافظ» الذي كان وزيراً للداخلية في وزارة نجيب الأولى. وقد انتقد فيها الحكومة بوجه عام. وكانت النشرتان صادرتين بأحرف مشابهة للمنشورات الأخرى ومطبوعتين على نفس الشاكلة وعلى ورق مشابه؛ مما يدل على أن مصدر النشر واحد، وهو مطابع الإخوان المسلمين، وقد سلمت النشرتان إلى عبد القادر عودة لنشرهما.. وكانت هناك صحف نظمت حملة ضد الهضيبي قالت فيها إنه تفاوض مع الإنجليز.. وفي اليوم التالي كان اجتماع الثلاثاء الأسبوعي، وكان آخر اجتماع من نوعه، وقد سادته التوتر. وقف الهضيبي أمام جمع غفير، مبدئياً تفاصيل رحلته وتفسيره للمحادثات مع تريفور إيفانز التابع للسفارة البريطانية وأن هذا تم بعلم عبد الناصر وتشجيعه، وكان الأخ الأستاذ محمود عبد الحلیم عضواً لهيئة التأسيسية والحائز على رضا الطرفين، وغير المحسوب على أي منهما قد اتخذ مبادرة إيجابية، واتصل بعبد الناصر عن طريق رجله إبراهيم الطحاوي وأحمد طعيمة، وكتب مذكرة في التقريب والمصالحة بين

الطرفين، قبلها في الجملة عبد الناصر بشروط، وعرضها الأستاذ محمود على حشد إخواني كبير في منزل الأستاذ محمد جودة عضو الهيئة التأسيسية والتاجر المعروف، وصديق عبد الناصر، وتبنى الحشد الإخواني هذه المذكرة، وإن كان للأستاذ البهي رأي ذكره ودافع عنه أمام هذا الحشد، وهو اقتراح خلع المرشد الأستاذ الهضيبي، والاستعاضة عنه بلجنة تدير الجماعة، حتى تختار مرشدًا آخر، ورأي أن هذا هو الذي ينقذ الموقف. وعارضه الأستاذ محمود في هذا، وأنه ليس من الصواب ولا الحكمة أن نعرض الجماعة في مثل هذا الوقت لهذه الأزمة، وأن هذا سيحدث فتنة كبيرة، وفتقًا قد لا يستطيع رتقه في الظروف الحالية الحاضرة.

واختار الحاضرون وفدًا يمثل الإخوان للقاء عبد الناصر مكونًا من: خميس حميدة، وعمر التلمساني، ود. عثمان نجاتي، ومحمد حلمي نور الدين، والشيخ أحمد شريت، ومحمود عبد الحليم، والتقوا مع عبد الناصر في بيته وعرض عبد الناصر موقفه من الإخوان، وموقف الإخوان منه منذ قامت الثورة في حديث طويل سرده في الجلسة المشتركة بينه وبين محمود عبد الحليم وعدد من الإخوان؛ مما دل على قوة ذاكرة الرجل، واستحضاره للأحداث، وتماسك شخصيته، كما يقول الأستاذ محمود، الذي يحسب أن العوامل النفسية كانت من أسباب هذه الأزمات، وأن الإخوان لم يفهموا نفسية عبد الناصر كما ينبغي. ولم يتعاملوا معه بالطريقة التي يمكن بها كسبه إلى صف الجماعة، ولا تؤلبه وتثير حقه عليهم، وأود أن أذكر هنا ما كتبه الأخ محمود عبد الحليم عن هذه الجلسة التاريخية وما تم فيها، قال رحمه الله:

في نهاية هذه الجلسة الطويلة المضنية كان لا بد لنا من الوصول إلى اتفاق

محدد، وكان أملنا جميعًا - نحن الإخوان - أن يكون اقتراحي الذي ذيلت به مذكرتي هو الذي يتم عليه الاتفاق. وتكون مهمتنا - نحن المجتمعين - أن نبحث تفاصيل تنفيذه، ولكن جمال فاجأنا في نهاية الجلسة برفضه هذا الاقتراح بل برفضه أي اقتراح للصلح قائلًا: «إن الدعوة إلى إجراء صلح بيني وبينكم فات أوانها. ولم تعد الثقة التي هي أساس الصلح موجودة». وتناقشنا معه حول هذه النقطة نقاشًا طويلًا غير أنه أصر على الرفض، وما كنا نملك شيئًا بعد أن صار هو يملك كل أوراق اللعب في يده ونحن لا نكاد نملك منها شيئًا.

قلنا: إذن لم كان هذا الاجتماع؟ ولو علمنا أنك ترفض الصلح لما أتعبنا أنفسنا. ولكن الأستاذ الطحاوي والأستاذ طعيمة أبلغانا أنك قرأت المذكرة ووافقت على ما جاء بها.. وعلى هذا حضرنا، فقال: أنا وافقت على المذكرة كمبدأ. فالصلح هدف، ولكنه الآن ليس الهدف المباشر. لكن الهدف المباشر الآن سيكون مقدمة للصلح؛ وإذا استطعتم أن تقوموا بأعباء الهدف المباشر انتقلنا إلى الصلح.

قلنا: وما هو الهدف المباشر؟

قال: كل الذي أستطيع أن أبذله لكم الآن أن أعقد معكم هدنة؛ فإذا نجحتم فيها كان لكم أن تطالبوا بصلح.

قلنا: وما شروط هذه الهدنة؟

قال: هما شرطان: أن توقفوا حملتكم على اتفاقية الجلاء وأن توقفوا إصدار النشرات.

قلنا: ولنا شرطان مقابلان هما أن توقف الاعتقالات والتشريد وأن توقف الحملة الصحفية.

قال: أنا موافق على شرطيكما إذا وافقتم على شرطي.

قلنا: إننا موافقون.

قال: إذا نفذتم الشرطين فلنا اجتماع آخر بعد اجتماع الهيئة التأسيسية، أما إذا لم تستطيعوا تنفيذ الشرطين فلا اجتماع، ولا تلوموني بعد ذلك.

وهنا ختمت الجلسة، وخرجنا، وكلنا أمل في الوفاء بما اشترط علينا لنخرج بالدعوة من هذا المأزق الخطير الذي وضعت فيه.

يقول محمود عبد الحليم: كان مبتي عادة حين أكون في القاهرة أن أبيت عند الأخ الحبيب - رحمه الله - الدكتور جمال عامر زميلي القديم في الدعوة وعضو الهيئة التأسيسية وصاحب صيدلية الصليبية بالقاهرة، فلما ذهبنا في تلك الليلة إلى البيت وجدنا في انتظارنا الأخ الأستاذ عبد العزيز كامل، الذي ابتدرني قائلاً: إنني كنت في انتظارك على أحر من الجمر؛ لأنني أقدر أهمية هذه الجلسة، وأؤمل فيها خيراً للدعوة، وقد قدمت لأعرف منك ما تم فيها، وأعرف رأيك شخصياً في جمال عبد الناصر، فحدثته بكل ما تم في الجلسة، كما شرحت له وجهة نظري في شخصية جمال عبد الناصر على الوجه الذي أجملته في هذه المذكرات، ولكنني أقرر أن ما حدثت به الأخ عبد العزيز لا بد أنه كان أوفى وأشمل، لا سيما وأنا أثبت ما أثبتته في هذه المذكرات بعد مرور اثنين وعشرين عاماً على هذه الأحداث.. وأذكر أنني أنهيت حديثي إلى الأخ عبد العزيز بقولي: إنني أرى أن شخصية جمال عبد الناصر كانت تستحق منا دراسة أكثر، وعناية في التعامل معها أكثر مما كنا نوليها.

ويبدو من سير الأحداث أن الأمور جرت في مسار آخر غير المسار الذي كان ينشده الأخ محمود عبد الحليم ومن وافقه من الإخوان فيما سماه (محاولة للإنتقاذ). فقد كان الجو في داخل الإخوان متوترًا ومشحونًا ضد الثورة وعبد الناصر، ولهذا باءت هذه المحاولة للتقريب أو المصالحة أو الهدنة -التي قد تؤدي إلى مصالحة- بالإخفاق والفشل؛ نتيجة لتصلب القيادات في مواقفها، وتغليب التشدد على المرونة، والمواجهة على المقاربة؛ لأمر قدره العزيز العليم.

وقد عُرضت مذكرة الأخ محمود عبد الحليم على الهيئة التأسيسية، ولكن جرت الأمور على غير ما أراد صاحب المذكرة؛ فقد أخذ رأي الهيئة بالتصويت: أتعرض المذكرة عليها أم لا؟ فكانت الأغلبية مع عدم عرضها، كان هذا الانقسام في صفوف العليا للإخوان، أما قواعد الإخوان بصفة عامة؛ فكانت مع المرشد، وذلك لأسباب ثلاثة:

الأول: أنها لا تدري شيئًا عما يدور وراء الكواليس، ولا تعرف عن العلاقات الخاصة بين الإخوان والثورة ما يمكنها من الحكم، فالحكم على الشيء فرع عن تصوره.

والثاني: أن النشرات السرية التي كانت تصدر في تلك الأيام كانت تعبئ الإخوان تعبئة شعورية عدائية للثورة ورجالها، ولا تسمح بأي تقارب (أو مهادنة)⁽¹⁾.

(1) مذكرات الدكتور القرضاوي، منشورة في موقعه بالكامل وفي كتابه المنشور عن دار الشروق.

انتهى النقل من مذكرات الدكتور يوسف القرضاوي ونشير فقط إلى أن قواعد الإخوان لم تكن وحدها التي لا تدري عما يدور في الكواليس، ولكن الدكتور القرضاوي نفسه لم يكن عارفاً بما يدور في كواليس أخرى، ولكي نعرف هذه الكواليس يجب أن نعود من جديد للنقل من كتاب كيرتس.

يقول كيرتس: «ومع اندلاع العدوان الثلاثي على مصر عام 1956 قامت بريطانيا باتصالات سرية مع بعض قيادات من الإخوان «كانت هاربة خارج مصر ومع قيادات أخرى كانت في مصر ولم تمتد لها الاعتقالات، أو كانت قد خرجت من الاعتقالات مثل المرشد حسن الهضيبي الذي كان رهن الإقامة الجبرية وقتها» وكانت هذه الاتصالات تتم كجزء من خططها للإطاحة بعبد الناصر أو اغتياله، وأن المسئولين البريطانيين كانوا يعتقدون -وربما يخططون أيضاً- أن هناك إمكانية أو احتمالية أن يقوم الإخوان بتشكيل حكومة مصرية جديدة بعد الإطاحة بعبد الناصر على أيدي البريطانيين.

بعد ذلك بعام، وعلى وجه الخصوص في ربيع عام 1957 كتب تريفور إيفانز، وكان مسئولاً بالسفارة البريطانية وقاد اتصالات سابقة مع الإخوان في خطاب رسمي لحكومة بلاده: «إن اختفاء نظام عبد الناصر ينبغي أن يكون هدفنا الرئيسي».. بينما تجدر الإشارة أيضاً إلى أن الخطة البريطانية السرية للإطاحة بالأنظمة القومية في سوريا بين عامي 1956 و1957 كانت تركز أيضاً على تعاون كبير مع جماعة الإخوان المسلمين هناك. وعليه ولأسباب مشابهة أيضاً انحازت الحكومة البريطانية باستمرار إلى جانب الإخوان المسلمين بمختلف أرجاء الشرق الأوسط.

وبناءً على كافة المعلومات السابقة فلا يمكن فصل المخططات البريطانية في تلك الفترة للتخلص من عبدالناصر عن المحاولة الإخوانية الفاشلة لاغتياله بالإسكندرية في 26 أكتوبر 1954 والمعروفة بحادثة المنشية، والتي شهدت إطلاق النار عليه أثناء إلقاء خطاب في ميدان المنشية بالإسكندرية، ويكشف الكتاب عبر الكثير من الوثائق معاملات المخابرات البريطانية مع قادة الإخوان وعن اجتماعات متكررة ضمت حسن الهضبي، وصالح أبورقيق، ومنير الدلة مع (تريفور إيفانز) مستشار السفارة، وعرضهم عليه في منزل (محمد سالم) بقاء جيش الاحتلال في القناة، مقابل دعم انقلابهم ضد الثورة، والاشتراك في حلف عسكري ضد الشيوعية، «تُحذرين» من أنه لن يرى النور ما دام عبدالناصر حيًا «لأنه يرفض الأحلاف ويصفها بالاستعمارية». ثم يرصد الكتاب تصريح الهضبي في يوليو 1953 لوكالة (الأسوشيتد برس): «الغرب سيربح إذا حكمنا مصر، سيفهم مبادئنا المعادية للشيوعية وسيقتنع بمزايا الإخوان». ولذلك كان طبعًا أن يسجل أنتوني إيدن، وزير خارجية بريطانيا وقتها، في مذكراته: «الهضبي كان حريصًا على علاقات ممتازة معنا، بعكس ناصر».

وفي النهاية فإن أهمية الوثائق التي أوردها الكتاب، تتمثل في أنها انتصرت للعديد من الكتابات والشهادات التي تم نشرها من قبل حول التعاون السري بين الإخوان والبريطانيين وسارعت الجماعة إلى نفيها).

انتهى النقل من كتاب مارك كيرتس، ولكن الفصل لم ينته بعد، فإذا كنا قد وضعنا الدلائل شيئًا فشيئًا، ونقلنا من مذكرات حسن البنا عن الدعم الذي تلقاه من الإنجليز لتأسيس جماعته حين كان في مدينة الإسمايلية، وكشفنا

عن طبيعة هذا الدعم واستمراره من خلال كتابات روبرت دريفوس ومارك كيرتس، فإن خط سير الجماعة بعد ذلك قد كشف عن أشياء كثيرة، وكان من المحطات الهامة التي يجب أن نتوقف عندها ما كان يحدث من مقاومة مصرية للإنجليز في مدن القناة الأعوام من 1950 إلى 1953، حيث كانت أعمال الفدائيين المصريين وقتها تبهر العالم، كان المشهد رائعاً، قوافل من الفدائيين تتحرك في سرية تامة إلى مدن القناة لتحيل معسكرات الإنجليز هناك جحياً، كان الفدائيون ينبضون بالعاطفة الوطنية الصادقة وهم يسعون من خلال عملياتهم إلى إقلاق الإنجليز، وجعل تواجدهم في المنطقة يكاد يكون مستحيلاً، وكانوا يحتاجون إلى تشجيع القوى السياسية لهم، كانت كتائب المجاهد المصري «أحمد حسين» رئيس جمعية مصر الفتاة تقوم بالجهد الأكبر، ويقول الإخوان عبر مذكراتهم الشخصية إنهم كانوا من المجاهدين في القناة ضد الإنجليز، ولكن هل هذا الأمر كان حقيقياً، المرشد الثاني حسن الهضيبي ينكر ذلك، ويسخر من الفدائيين هناك، فيقول ساخرًا للمجلة (الجمهور المصري) عدد مارس 1952: هل العنف سيخرج الإنجليز؟

ثم قال: قلت لشباب من الإخوان طلبوا الانضمام للفدائيين ضد الإنجليز: اذهبوا واعكفوا على تلاوة القرآن.

فيتلقى المرشد حسن الهضيبي سخرية من المفكر الكبير الراحل خالد محمد خالد في روزاليوسف، مطمئناً المحتل: أبشر بطول سلامة يا جورج.

ولكن خالد محمد خالد لم يكن يعلم أن جورج متواصل مع الإخوان بشكل دائم، ومن بعد جورج كان العم سام هو الذي يمد يده للإخوان،

فقد انتقلت الراية من بريطانيا العظمى إلى أمريكا أكبر إمبراطورية حكمت العالم.



في كتابي السابق «سر المعبود» نشرت خطابًا وثيقة، لم يستطع أحد من الإخوان تكذيبه، أو المجادلة بشأنه فأصبح حقيقة «مسكوتًا عنها» وقد كان لهذا الخطاب قصة، حيث كان قد وقع تحت يدي عن طريق أحد أعضاء مكتب إرشاد الإخوان - كنت مقرَّبًا منه - وأبدى لي رفضه لعلاقة نسجت خيوطها بين الإخوان وأمريكا، ولكنه برر هذه العلاقة بأن الشاطر يقودها هو وعدد محدود من مكتب الإرشاد دون علم الباقي الذي لا حول له ولا قوة، فنشرت هذا الخطاب وقتها في مجلة «المصور» المصرية في ديسمبر من عام 2005 ولم ينبس وقتها أحد من الإخوان بشفة بخصوصه، وكان الخطاب كالآتي:

Dear B

السلام عليكم ورحمة الله.

تحياتي وأشواقي لجميع الإخوة، أما بعد.

كان للجهود التي بذلها دكتور برونلي أثر طيب في تقريب وجهات النظر إلى حد كبير إلا أنه ما زالت بعض الاختلافات في وجهات النظر، وقد ظهر لي أن مستر إيرلي متعنت إلا أنني أوضحت للأصدقاء الآتي:

1. لن نغير خريطة المنطقة السياسية.

2 - نتعهد بالحفاظ على كل المعاهدات والاتفاقيات (أبدى الأصدقاء

سعادتهم بتصريحات المرشد عن إسرائيل وقالوا عنه (He is a respectable man).

3 - نقبل وجود إسرائيل بالمنطقة (وقالوا إنه ينبغي ألا ننظر إلى إسرائيل كما ننظر الحكومة إلينا فلا هي محظورة ولا نحن محظورون).

4 - أوضحت لهم إصرارنا على أن تقوم الإدارة الأمريكية بدعم التحول الديمقراطي بالمنطقة - وقد ظهر لهم من نتائج المرحلة الأولى أننا أصحاب الرصيد الجماهيري - وقد أوضح الأصدقاء.

5 - سعادتهم بجرأتنا في تناول قضية الحوار مع أمريكا وأن التناول كان واقعياً إلا أنهم أبدوا استياءهم من مسألة أن الحوار ينبغي أن يتم عبر وزارة الخارجية المصرية وقالوا: إننا ينبغي أن نتخلص من هذه النغمة.

6 - أوصوا بطرح مسألة الحوار مع أمريكا على أوسع نطاق حتى تصبح أمراً واقعياً، وقتها لن يبحث الناس عن شرعية الحوار ولكنهم سيبحثون عن نتائج الحوار.

7 - يجب أن يقدم الإخوان الحزب وأن يكون هذا في خلال عام وسيمارس الأصدقاء ضغوطاً على الحكومة للموافقة عليه.

8 - تدعيم الحوار مع الحزب الوطني والتنسيق معه في القضايا الكلية ولا مانع من الاختلاف في الفرعيات.

9 - ضرورة الحفاظ على الكيان الحاكم وعدم خلخلته دستورياً أو

شعبيًا وعدم المساعدة في أي تجمع يسعى إلى إحداث خلخلة للنظام. وينتظر الأصدقاء سفر د. العريان إلى بيروت في النصف الأول من ديسمبر لإكمال الحوار، وإن لم يتم فسيحضر إليكم صحفي أمريكي سيقدم نفسه تحت اسم «جون تروتر» بوكالة «S.O.M» مطلوب أن يجلس مع الشاطر وعزت.

حامل الخطاب الأخ حسان وهو من السودان.

أرجو عدم الثقة بأي شخص من catr

والسلام عليكم ورحمة الله. أخوكم

H . a



أظن أن هذا الخطاب كافٍ لإلقاء الضوء على علاقة قوية ربطت بين الإخوان وأمريكا، ورغم أن الإخوان كان بإمكانهم تكذيب هذا الخطاب الوثيقة وقت نشره في «المصور» عام 2005 أو تكذيبه وقت أن نشرته في كتابي سر المعبود، إلا أن أحدا لم يفعل، فقد كانت الاتصالات قائمة وقتها بقوة بين الإخوان وأمريكا، والجماعة حالة بوعود أمريكية أكيدة بأنها ستصل بهم إلى بر الأمان الكائن عند كرسي الرئاسة، الذي كان جالسا عليه «مبارك أبو المصريين جميعًا» على حد قول المرشد محمد بديع، ولكن هل يقف مبارك الأب عائقًا أمام بديع وإخوانه في رغبتهم المحمومة للوصول إلى الحكم؟

في عهد مبارك كشف أحد الدبلوماسيين الأمريكيين عن حوار سري تم بين القيادي الإخواني سعد الكتاتني وأحد كبار الدبلوماسيين الأمريكيين،

فخرج علينا الإخواني الإعلامي محسن راضي من نافذة الجماعة لكي يضع لنا ملامح حوار الإخوان مع الأمريكان، فيقول والكلمات تتقاطر من فمه كما تتقاطر عربات قطار النقل: هم - أي إخواننا الأمريكان - يريدون معرفة موقفنا من المرأة ووضع الأقليات وتداول السلطة والديمقراطية، والموقف بالنسبة للعلاقة مع حماس وإيران واتفاقية كامب ديفيد، وكل هذه الأمور التي سبق أن أعلن الإخوان رأيهم فيها - أي أن اللقاءات والحوارات تحصيل حاصل - ثم يستطرد الأخ راضي وهو يزين للأمريكان أطايب الطعام الشهى الذي طبخه الإخوان فيقول: إن الوضع المزري للأقلية في البحرين لم تمنع الولايات المتحدة من جعل أرض هذه الدولة مقرًا لأسطولها الخامس!

وكان محسن راضي يقول بتصريحه هذا أهلاً وسهلاً بالأمريكان وإن تغاضوا عن حقوق الأقليات طالما أنه وأنا وأنهم، بكل أنات اللغة العربية، في الإمكان أن نجعل من بلادنا محلاً مختاراً لأسطولهم.

سنصم الأذان عن كلمات الأخ راضي، وسنتنظر إلى الناحية الأخرى سنجد أن كفاح اللسان في عهد مبارك أصبح هو السمة الرئيسية للجماعة حيث إنه هو الكفاح الرخيص الذي ليس له كلفة عالية، لذلك ارتفع الصوت الإخواني متددًا بالسياسة الأمريكية التي ترعى المصالح الصهيونية، ومظاهرات طلابية يستغلون فيها طلابهم السذج الذين تربوا على الثقة في القيادة، وأعلام أمريكية يتم حرقها تحت الأقدام الإخوانية، ومقاطعة للبضائع الأمريكية، وعويل ونصراخ، ولعن الله أمريكا الكافرة الزنديقة.

ولأن اللسان غير الأنف ووظيفتها تختلف فإنه لا تثريب على أنوف الإخوان إن أدمنت شم التبغ الأمريكي، فقد ذهبت أنوفهم تعدو صوب دخان السيجار الأمريكي الفاخر الذي يتصاعد من السفارة الأمريكية وهي غير مدركة أن كل دخان سيتبدد ذات يوم، ولكن الأخ محمد عبد القدوس، مبعوث الإخوان للقاءات الدبلوماسية وقتها، عرف طريق السفارة الأمريكية، يذهب إليها في الأعياد القومية الأمريكية مهتئاً ومصلياً «حتى لا يطير الدخان» وكان يصطحب معه الأخ عصام العريان الذي أخذ يرسل رسائل الطمأنة للحكومة الأمريكية وللحكومة الإسرائيلية قائلاً في كلمات ألقاها في السفارة الأمريكية وفي حوار له مع جريدة الشرق الأوسط منذ سبع سنوات تقريباً العديد من التصريحات قائلاً: على الحكومة الإسرائيلية أن تطمئن فسنحافظ على كامب ديفيد، ولأن رسائل الإخوان كانت وردية فقد تعودت السفارة الأمريكية أن تدعو أعضاء جماعة الإخوان إلى ولاء السفارة من باب «أطعم الفم تستحي العين» ومع الفم الإخواني الذي يلوك الطعام الأمريكي، كان اللسان الإخواني المجاهد يصرخ في المظاهرات والتصريحات البطولية: لعن الله أمريكا وإسرائيل، احرقوا أعلام أمريكا إنهم قوم لا يتطهرون.

وإذا بالدكتور سعد الدين إبراهيم يخرج من سجنه فجأة بضغوط أمريكية، فيكشف الرجل بصراحته الأمريكية عن أنه كان عراب الاتفاق بين الإخوان والأمريكان بل والمجتمع الغربي كله، قال سعد الدين إبراهيم في حوار صحفي عام 2004 (حقيقة الأمر أن حواراً بدأ بيني وبين الإخوان المسلمين في سجن «مزرعة طرة» وكان أساسه: لماذا اهتم العالم بي ولم

يهتم بالإخوان. وضاعف من حرارة الحوار وقوع أحداث كونية جسيمة أهمها الهجوم الانتحاري على مركز التجارة العالمي في نيويورك ومبنى وزارة الدفاع الأمريكية. وكانت إجاباتي عن أسئلة الإخوان المسلمين هي أن العالم يدافع عني لأنه اعتبرني صاحب رؤية ومشاركاً معه في قيم إنسانية عالمية، بالإضافة إلى أنني أحترم الآخر. فقالوا ونحن أيضاً نشارك في هذه القيم العالمية، وسأل «الإخوان» كيف نوصل وجهة نظرنا للعالم الغربي، فقلت لهم أضعف الإيمان هو الكلمة وأقواه هو الفعل، فردّوا أن الكلام نحن نقوله ونقرّه الآن، أما الفعل فلا بد من انتظاره حتى خروجنا من السجن.

وخرجت من السجن والتقي بي بعض من تحاورت معهم داخل السجن وآخرون لم يكونوا في السجن، وطلبوا مني مواصلة الحوار الذي بدأناه داخل سجن طرة بالإضافة إلى الحوار مع الغربيين.

فنقلت رغبتهم لبعض السفراء الغربيين الذين كانوا يزورونني بالسجن ويعرفون بحواري مع الإخوان، وكان في مقدمة هؤلاء السفراء السفير الكندي في مصر الذي بدوره طلب الحوار معهم، خاصة بعد أحداث 11 سبتمبر ولكن السلطات المصرية رفضت رفضاً باتاً ذلك الحوار.

ولكن الأمر اختلف بعد الخروج من السجن، واجتمعنا أنا وبعض أعضاء الجماعة الإسلامية أمثال عصام العريان ومحمد عبد القدوس وبعض الغربيين وجلسنا في النادي السويسري بإمبابة في مصر، واستمر الحوار يوماً كاملاً ثم تركتهم معاً لاستكمال الحوار وهذا كان دوري).

ومع اللقاءات الحميمة ظلت مظاهرات طلاب الإخوان ترفع راية

«أمريكا عدوة الله» وأخذ مجاهدو الإخوان يلقون بحمم ألسنتهم البركانية على أمريكا ومن والاه، ولعن الله من والاه.

يُجرمونها ويعاقرونها، يلعنونها وينامون في مخادعها، ونظرا لأن الإخوان لا يعترفون بالزواج العلني فقد أنكروا - وهم يشتمون أمريكا - أن اللقاءات مع الأمريكان تخصهم فقال متحدثهم الرسمي عندما انكشف كل شيء: هذه اللقاءات لا علاقة لنا بها، ومن حضر من الإخوان فيها حضر بصفته الشخصية!

وكان أن قامت الثورة المصرية، ثورة الخامس والعشرين من يناير 2011، وما كان دائرًا في السر قبل الثورة أصبح دائرًا في العلن بعدها، فبعد الثورة مباشرة وقبل أن يصبح «الحكم قبل الدين أحيانا» لم يعد هناك أي مبرر لإخواني لإثارة مظاهرات ضد أمريكا الصهيونية، فقد كان هذا الكلام أيام الجهاد الرخيص، أما الآن فنحن أمام الجهاد الأكبر، جهاد السعي نحو أريكة الحكم، وبالتالي لم يعد هناك ما يستحق الإخفاء، أو الخفاء، أو التنديد والتهديد، ومع ذلك فإنه عندما قالت السيدة هيلاري كليتون في مؤتمر صحفي لها في بودابست: إن الإدارة الأمريكية تواصل سياسة إجراء اتصالات محدودة مع جماعة الإخوان المسلمين، وهي اتصالات مستمرة - على حد قولها - منذ ما يقرب من خمس أو ست سنوات، ثم قالت: سنعاود الاتصال بالإخوان، كان مفهوم الكلام أنه كان هناك اتصال «على الهاتف الدولي» ثم انقطع ومن ثم ستقوم الإدارة الأمريكية بإعادة الاتصال، ثم أكدت الوزيرة الأمريكية أن هذه المحادثات كانت قد بدأت منذ بضع سنوات!! وكشفت عن أهم الموضوعات التي يتم بحثها مع الإخوان وهي: استمرار الإخوان في سياسة

عدم اللجوء للعنف، واحترام حقوق الأقباط والنساء، حسن جدًا، ليس في هذا شيء؛ إذ إن من حق جماعة الإخوان في ظل حكم مبارك المستبد أن تستقوي بمن يمكن أن يخفف الضغوط الأمنية التي تواجهها، ولكن قامت الثورة، وذهب مبارك إلى المكان الذي يستحقه، ولم يبق إلا الشعب الذي لا يجوز أن يستقوي أي أحد إلا به بعد الله سبحانه وتعالى، وفي هذه اللحظة الفارقة التي تختبر فيها الرؤى الوطنية للأفراد والجماعات والأحزاب، إذا بجماعة الإخوان تمد حبالها إلى أمريكا، أو بمعنى أدق، تقبل الحبال الممدودة لها من أمريكا، عملاً بوصية كليتون التي وجهتها للإخوان من بودابست، والحبال في السياسة ليس لها إلا فائدة أو نهاية، أما الفائدة فهي أن يصعد بها من يستلم طرفها فيرتقي، وأما النهاية فهي أن يضعها من يستلم طرفها في رقبته كمشنقة فينتهي، جاء الحبل الأمريكي إلى مقر جماعة الإخوان، وكان الحبل الأمريكي الأول هو وليم بيرنز مساعد وزيرة الخارجية الأمريكية هيلاري كليتون، وجلس مع قيادات الإخوان في جلسة سرية، لم نعرف ما دار فيها وما حدث خلالها، حتى إن قيادات الجماعة منعت الصحفيين من حضور اللقاء، أو كلفت خاطرها في إلقاء بيان بما حدث من مباحثات، ومع ذلك فإن لقاء الإخوان مع وليم بيرنز في حد ذاته كان لقاءً مستغربًا، وظهر من خلاله أن قيادات الإخوان ترغب في لقاء أي شخصية أمريكية حتى ولو كان من شأنها تلويث البحر المتوسط، فوليم بيرنز هو أحد الأعمدة الصهيونية في الحكومة الأمريكية، وأحد أكابر الداعمين لكل الاعتداءات الإسرائيلية التي حدثت ضد الشعب الفلسطيني، ويعتبر نفسه مبعوث العناية الأمريكية لحماية أمن إسرائيل، لدرجة أنه سبق أن صرّح بأنه لا يريد تحقيق أمن إسرائيل فقط

ولكنه على حد قوله: «أنا أبحث عن رفاهية إسرائيل» ومن فرط تصريحاته العنصرية اعتبرته منظمات حقوق الإنسان واحداً من أعداء الإنسانية، وبعد أن التقى بيرنز بقيادات الإخوان أصدر تصريحات بأنه بحث مع الإخوان كل ما يتعلق بالمصالح الأمريكية وبأمن إسرائيل والمعاهدات التي عقدها مصر مع إسرائيل وقال إن الإخوان تعهدوا بالحفاظ على هذه المعاهدات، ولأن هذه التصريحات تعني - بطريق الاستدلال - أن الإخوان تحدثوا مع ولیم بيرنز عن رغبتهم في خوض انتخابات الرئاسة، وأنهم يريدون معرفة موقف أمريكا منهم في حالة تنفيذهم رغبتهم، فلذلك كانت الحوارات ومن أجل هذا كانت التطمينات والتأكيدات، صحيح أن الإخوان أنكروا صحة تصريحات ولیم بيرنز، وكأنه كان يزور مقر الإخوان من أجل أن يصلي الظهر خلف المرشد الدكتور محمد بديع، ولكن وزارة الخارجية الأمريكية أصدرت بياناً تفصيلياً باللقاء وما تم فيه وأكدوا حصول الحكومة الأمريكية في لقاء بيرنز مع الإخوان على تطمينات وتطمينات .

بعد هذا اللقاء مباشرة التقى كيسنجر وزير الخارجية الأمريكية الأسبق مع وزير الخارجية المصري السابق محمد العرابي، وكان اللقاء في إسطنبول، وفي هذا اللقاء قال كيسنجر للعرابي: الإخوان المسلمون قادمون في مصر، وأنا متأكد تماماً أن الإخوان سيحكمون مصر قريباً، وإذ سأله العرابي: وما موقف أمريكا من هذا؟ قال كيسنجر - وفقاً لما نشره العرابي - ليس لدى أمريكا مشكلة لأن كل ما يهم الإدارة الأمريكية ثلاثة أمور مفصلية في مصر، هي: الالتزام باتفاقية السلام مع إسرائيل، وضمان سلامة الملاحة في قناة السويس، وأن تستمر الولايات المتحدة مصدراً لتسليح الجيش المصري،

تصريحات كيسنجر هذه كانت عقب لقاء بيرنز بالإخوان، وظهر منها أن النظام الأمريكي يرغب في جعل تفصيلات الحوارات مع الإخوان علنية .

وتوالت اللقاءات الإخوان أمريكية، مرة مع جون ماكين عضو مجلس الشيوخ الأمريكي، وجون كيري منافس جورج بوش في انتخابات 2004، وخرج هذا الأخير من لقاءه مع الإخوان سعيداً مبتسماً، ثم بعد أيام وهو في واشنطن وبعد سفر المتهمين الأمريكيين في قضية التمويل الأمريكي إلى بلادهم خرج جون كيري ليوجه الشكر للجزيل للإخوان لمساعدتهم رعايا أمريكا في «السفر الآمن» والهروب من قضية التمويل!

ما يعنيني هنا أن جسد جماعة الإخوان كله كان يسير في اتجاه، وكانت رأسه تسير في اتجاه آخر، إلا أن الجسد لم يشعر بهذا الانفصال، فقد كان سادراً في نشوة «أكثرية البرلمان» والانتصار المرتقب، ودولة الإسلام التي على وشك أن تعلن عن نفسها في مصر، لم يستشعر الجسد خطورة اللقاءات مع الأمريكيين التي من الممكن أن تحرق من يقترب منها، بل كان يتيه فخراً بها معتقداً أن إمبراطور العالم في سبيله إلى أن يخضع لإمبراطورية الإخوان، وأنه أتى إليها صاغراً، لم يدرك الجسد الإخواني أن أمريكا دولة نفعية، لا تدور إلا حول مصالحها، ولا تبحث إلا عن الغنائم، منطلق الشركات التجارية هو الذي يحركها، فحيثما كانت المصلحة فثم وجه أمريكا، ولذلك فإن أمريكا لا تمنع من التعامل مع القديس وإغوائه، أو التحالف مع إبليس لإرضائه، لا يهمها من قاطع بضائعها وحرقت أعلامها وأهان كرامتها، المهم أن يحقق مصالحها، وأمريكا السياسية التي يديرها دهاقنة الصهاينة لا تبكي إلا على إسرائيل، أما مصر فلا بواقي لها.

وبعد هذه اللقاءات الحاملة دوّن الإخوان في دفاترهم الجهادية، أن المظاهرات أصبحت موضحة قديمة، يتم محاصرة غزة، قطع الكهرباء عنها، عمل غارات صهيونية على أهلها، والإخوان أذن من طين وأذن من عجين، فالمظاهرات لا تليق بأهل الحكم، وأيضا المواقف السياسية الوطنية لا يجوز أن يفارقها أهل الحل والعقد، ولتستمر المفاوضات والحوارات والغزل الرفيع تحت لافتة «يتمنعن وهن الراغبات».

وجاءت لحظات التمكين، وهي لحظات لو تعلمون مقدسة، ولحظات التمكين يسبقها في العرف الإنساني، حالة ارتفاع روعي، أو حالة غرور إنساني، والغرور يعمي البصر ويطمس على البصائر، وبدأت الاتصالات والاتفاقات، والوعود والتعهدات، ثم أخذ الفصل الثاني من حلقة الضغوط يعلن عن نفسه، فأمرىكا التي قتلت وأبادت وارتكبت أكبر وأفظع جرائم إبادة في تاريخ البشرية، أمرىكا التي لا تبحث إلا عن حرية إسرائيل، وديمقراطية نفسها، إذا بها تصبح راعية للديمقراطية والحرية في مصر، خرجت كليتون تطالب الإدارة المصرية - قبل إعلان النتيجة رسميًا - بضرورة أن تعلن النتيجة وفقًا للكشوف التي تسلمتها جماعة الإخوان من رؤساء اللجان العامة، أي طالبت أن تعلن اللجنة الرئيسية للانتخابات بإعلان فوز الدكتور محمد مرسي، بغض النظر عن الطعون التي كانت تنظرها اللجنة!! وعلى نفس السياق خرج الرئيس الأمريكي أوباما موجهًا نفس الطلب للمجلس العسكري، وكاثرين أشتون مفوضية الاتحاد الأوروبي لم تترك الساحة خالية للأمريكان، بل كانت أشد حسماً من الأمريكان مطالبة لجنة الانتخابات

بإعلان فوز الدكتور محمد مرسي، ومع هذه المطالبات التي يعرف أهل السياسة ما وراءها، كانت لقاءات الإخوان المتعددة مع المشير طنطاوي، فقد التقى به خيرت الشاطر، الذي ليس له أي موقع سياسي أو حزبي، فقط هو نائب مرشد جماعة لا تطبق القانون على نفسها ولم تشهر جمعيتها معتبرة أنها فوق القانون وفوق الدستور، بل فوق الدولة كلها! وكانت هذه اللقاءات في فترة حاسمة قبل إعلان النتيجة بساعات، ومع هذا وذاك وبعد إعلان النتيجة خرج الكثير من الصحف الأمريكية ليكشف عن أن الحكومة الأمريكية كان لها الدور الحاسم في إعلان النتيجة بفوز مرسي، معلنة عن أنه لولا أمريكا لكان للنتيجة شأن آخر، وبذلك نجحت أمريكا في إطلاق القط المشتعل في الحقل المصري.

وكان أن أرسل القط المشتعل رسالة شكر إلى سيده الأمريكي، ظهر هذا الشكر في مواقف كثيرة، ففي تجربة معملية دارت رحى معركة بين إسرائيل والجانب الفلسطيني، وأطلقت حماس ومنظمات جهادية صواريخ على إسرائيل، فأسرع الرئيس المصري الجديد محمد مرسي في السفر إلى غزة للتدخل ووقف إطلاق الصواريخ من الجانب الفلسطيني على أن توقف إسرائيل قصف غزة، وكان التوفيق حليفًا للرئيس الجديد.

سافر أوباما إلى إسرائيل دون أن يمر على مصر، وهناك عند أبناء صهيون قال «إن القدس عاصمة أبدية لإسرائيل» فلم نسمع حسًا ولا خبرًا من جماعة الإخوان بل كانت في صمتها مثل صمت القبور، إنك لا تسمع من في القبور، ومن في المقطم، ومن يجلسون على كراسي الحكم، وكان الأغرب أن

كل أفراد الجماعة بشبابها وشيوخها سكتوا، بعد أن كان هتافهم المفضل هو «على القدس رايحين شهدا بالملايين» فأصبح صمتهم رسالة تقول إن الشعار تغير وأصبح «على القدس رايحين، مهئين مباركين».

وأخيرًا خرج وزير الخارجية الأمريكي على أجهزة الإعلام ليقول: لقد أخذنا تعهدات على جماعة الإخوان قبل وصولهم للحكم بمد يدنا لكل القوى السياسية، وأرجو أن يلتزموا بما تعهدوا به.

المهم أن الإخوان وصلوا للحكم، فأصبحت هناك دولة مصرية لها خلفية عقائدية، تنظر للآخرين على أنهم مفارقون للإسلام، فتدخل في صراعات معهم، وتتحزب البلاد، وتنقسم، تخرج مظاهرات الإخوان هاتفة: بالروح والدم نفديك يا إسلام، وكأن القوى السياسية المتنوعة ترغب في القضاء على الإسلام! يحدث استفتاء على تعديل للدستور فيصبح الصراع دائرًا على خلفية دينية لا سياسية، حيث يقول دعاة الإخوان ورجالهم: هذه غزوة الصناديق، من سيكون معنا فهو مع الإسلام، ومن سيكون ضدنا فهو ضد الإسلام وتزيد رقعة الخلاف والاختلاف، وتشتعل معارك شبيهة بمعارك الحروب الأهلية لأول مرة في تاريخ مصر كله، وإذا بسيناء تتحول إلى دولة داخل الدولة، حيث أصبحت مأوى لجماعات تطرف مجهولة النسب، خرجت سيناء بجماعات التطرف هذه من تحت سيطرة مصر، وأصبحت مرتعًا للعابثين، وفي سيناء يتم قتل مجموعة من الجنود المصريين، وتظهر الأخبار مؤكدة أن القتلة كانوا يهتفون الله أكبر وهم يصوبون الرصاص في صدور الجنود، وتتوالى الأخبار فنعرف أن القتلة جاءوا من غزة وأنهم يتبعون حركة

إسلامية قريبة من حماس، ولكن الرئيس المصري وجماعته يعيشون في واد آخر غير وادي سيناء.

ثم كان يجب بعد ذلك أن يلتقي الصنمان، صنم الشيعة وصنم الإخوان، ومن وراء الستار كان هناك من يحرك الصنمين بحبل لا يظهر للرائي، تمامًا كما يحدث على مسرح العرائس، وحين تحرك - أو حُرِّك - الصنم الشيعي أحمدي نجاد، جيء به إلى مصر الواقعة رهينة تحت يد الإخوان، ودخل الصنم الأزهر وهو يبتسم، كانت الابتسامة موحية وكأنه يقول: في هذا المكان كانت لنا أيام، وأظن أن شريطًا من الذكريات التاريخية مر ساعتها على ذهنه، فظهرت أمامه صورة حسن البنا، وتقي القمي، وآية الله كاشاني، ونواب صفوي، وآية الله الخميني، أبطال غزو الشيعة للعالم السني، وقد كانت تلك الغزوة من أعجب الغزوات في التاريخ.

الفصل الرابع

الجدور

تمر السنوات وتتعاقب الأحداث ويُمسي الحاضر ماضياً، ومع ذلك يظل هذا الماضي شاخصاً أمام أبصارنا حين يضبطه التاريخ، ولكن ترى هل ضبط التاريخ له يماثل ضبط «الكاميرا» للصورة فتصل لنا الأحداث كما هي بلا رتوش ولا حذف ولا إضافات؟ أم أن قلوب البشر تنقل لنا ما وقر فيها وما استقبلته مضمخاً بالمشاعر فنعجز عن معرفة التاريخ المجرد إلا بالتقريب؟

كم هي مهمة شاقة تلك التي نتعهد أنفسنا بها حينما نسرد ما يحدث في زمننا لتقرأه الأجيال القادمة، فذات يوم سيصبح واقعنا تاريخاً، ولكن زمننا يختلف عن الأزمان السابقة، فسهولة توثيق الأحداث اليومية في العصر الحالي تجعل مهمة رصد التاريخ للوقائع مهمة هينة بالمقارنة بما كان يحدث في الماضي، ولكن تظل الصعوبة قائمة حينما نحاول رصد تاريخ جماعة سرية، تخفي أفكارها والأحداث التي تمر بها أو تتوحيها، تحيط نفسها بأسوار عالية بحيث لا يستطيع أحد تسورها أو الولوج في دهاليزها، تضع أوراقها السرية في توابيت مغلقة بحيث لا يستطيع أحد أن يقرأها أو يقترب منها، فالاقتراب من «الأوراق المخفية» لدى أي جماعة من الجماعات السرية يعد

بمثابة الاقتراب من منطقة ملغومة شديدة الخطورة، إذ لا تسعى أي جماعة إلى إخفاء بعض أوراقها وجعلها في «طيات النسيان» إلا إذا كانت هذه الأوراق تشير إلى حقائق ترغب الجماعة في إخفائها عن الأنظار إما لخطورتها، وإما لأنها قد تكشف عن توجهات فكرية أو حركية تمثل منهجاً حقيقياً للجماعة غير منهجها أو خطابها المعلن.

وكما تفعل بعض الدول تفعل جماعة الإخوان السرية، فإذا كانت الدول تخفي وثائقها وتحيطها بالسرية وتضع عددًا من السنوات للكشف عنها، فإن جماعة الإخوان تسعى دائماً إلى إخفاء جميع وثائقها، إلا أنها - كعكس الدول - لا تسمح أبداً بالإفراج عن هذه الوثائق.

والباحث في علم نفس الجماعات يعرف أن الجماعة - أي جماعة - عندما تشعر أنها مهددة بالزوال أو التلاشي فإنها تدافع عن نفسها عبر عدة وسائل، إذ تسعى أولاً إلى وأد أي حركات تجديدية داخلية ومحاربتها بشتى الطرق (فيما يعرف في العلوم الطبية بمرض «الذئبة الحمراء» وهو مرض يصيب الجسم ينتج عن خلل في الجهاز المناعي للجسم تجعله بدلاً من أن يحمي الجسم من البكتريا والفيروسات فإنه يهاجم الجسم الذي يحميه) كما أنها تسعى في ذات الوقت إلى الانكماش والتقوقع على ذاتها كوسيلة من وسائل الدفاع عن النفس، بحيث تبقى بمعزل عن البناء الحضاري للمجتمع، إلا أن أبرز ما تقع فيه الجماعة التي تشعر بالاضطهاد هو مسارعته للاحتواء بقوى خارجية، خارج الجماعة أو خارج الدولة، بغض النظر عن أي اعتبارات وطنية، وقد يتداخل مع الرغبة في الاحتواء بالقوى الخارجية شعور الجماعة بالاستعلاء والتفرد وإحساسها بأنها «حامل أختام الحقيقة» وأن ما لديها من صواب

يجب أن ينتصر على «أصحاب الضلالة» وأنه في سبيل الانتصار للحقيقة يحق للجماعة أن تسلك الوسائل التي ترى أنها قد تحقق لها هذا «النصر المنشود» حتى لو كان هذا الطريق هو مخالفة ثوابت الأمة العقائدية والوطنية.. فلا رأي إلا ما يرى القادة.. وهذا هو منطق الطغاة في كل العصور، وهو نفسه منطق الفراعين الذي حدثنا عنه ربنا سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (غافر: 29) وتبرير كل فرعون لطغيانه هو أنه صاحب الرأي والملك والقيادة - ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الزخرف: 51) - ولأن قادة الإخوان مثلهم مثل كل الفراعين الطغاة، فلا اختلاف عندهم في الرأي لأن الاختلاف ينهض بسبب تنوع الأفهام، أما في الإخوان فلا تعدد للأفهام ولكن معظمهم، إلا من رحم ربي، يتماهى في عقل رجل واحد هو من تحكم في مقاليد أمورهم.

وفي تاريخ الإخوان القديم ورقة ظلت مخفية لا يعرف أحد عنها شيئاً، ورقة أذهلتني حين عرفتها، كانت مخبئة في أحد دهايز الجماعة دون أن يلتفت إليها أحد أو يشعر بقيمتها التاريخية، كانت هذه الورقة تحتوي على خبر زيارة لمقر الإخوان في مصر قام بها سيد روح الله مصطفى الموسوي الخميني عام 1938، وتشير هذه الورقة إلى أن ثمة لقاء خاصاً تم بين المرشد الأول للجماعة الأستاذ حسن البنا والسيد روح الله مصطفى الخميني الذي أصبح فيما بعد الإمام آية الله الخميني مفجر الثورة الإيرانية، ولكن مما يؤسف له أن أحداً من الذين عاصروا هذه الواقعة لم يدوّن أحداثها ووقائعها، رغم أن زيارات أخرى قامت بها شخصيات شيعية شهيرة لمقر الإخوان بمنطقة الدرب الأحمر وصلت إلينا أخبارها وبعض تفصيلاتها.

فذات يوم من أيام 1992 وبمحض المصادفة وقعت تحت يدي بعض تفاصيل تلك الزيارة المجهولة التي قام بها الخميني للإخوان عام 1938، لم تصل لي أخبار الزيارة فحسب ولكن وقعت تحت يدي ورقة تحمل خبر هذه الزيارة، كانت هذه الورقة مطوية ومنسية مثلها مثل عشرات بل مئات من الأوراق التي بعثها قادة الإخوان في كل مكان، دون اهتمام وكأن وثائق الجماعة عورة ينبغي التخلص منها!

ما قصة هذه الورقة وما هو محتواها؟ في غضون عام 1992 كان قسم المهنيين في الإخوان قد قرر خوض انتخابات نقابة التجاريين، وقام القسم باختيار واحد المحامين من الإخوان للإشراف القانوني على هذه الانتخابات ومتابعة المخالفات القانونية وتقديم الطعون، وكان لابد أن نتخذ لأنفسنا مقرًا ثابتًا لتتابع من خلاله «يوم الانتخابات» وكان هذا المقر هو مقر الجماعة الرسمي الكائن بشارع سوق التوفيقية القريب من نقابة التجاريين.

ذهبنا إلى المقر بعد صلاة الفجر بقليل وتقابلنا مع فريق العمل من المحامين وكلفناهم بالمهام وأعطيناهم رقم التليفون الخاص بالمقر لإبلاغنا بكل التطورات والأحداث، ورتبنا كل الأمور قبل أن تطأ قدم إخوانية أرض المقر، ثم فرغنا بعد ذلك لقراءة أذكار الصباح وبدأت الأقدام تتوالى على المكان.

كانت المكالمات الهاتفية التي تلقيناها من فريق العمل قليلة، واليوم يمر بلا مشاكل تقريبًا، وكعادتي اتجهت إلى رفوف المكتبة أبحث فيها عن كتاب أقضي معه وقتي، إلا أن عيني اتجهت صوب «رزمة» من المجلات القديمة، فحملت بعضًا من هذه الرزمة وجلست على أحد المكاتب أتصفحها، كانت

هذه الرزمة تحتوي على أعداد متفرقة من مجلة النذير الإخوانية القديمة التي أصدرها الإخوان عام 1938، وأثناء تصفحي بعض الأعداد دخل علينا الأخ الذي يقدم الخدمة للمتدربين على المكان وقال لنا إن المرشد الأستاذ حامد أبو النصر حضر إلى المقر وهو بحجرتة الآن ويريد أن يرانا ويعرف منا تطورات انتخابات التجاريين.

حين دخلنا عليه وجدته جالسًا على أريكة بجوار مكتبه، أقبل عليه الأخ الذي معي وانكبَّ على يديه مقبلًا إياها، وقعتُ في حرج، هل أفعل كما فعل الأخ؟ أم أتبع سنة النبي ﷺ إذ كان الصحابة عندما يقابلونه يسلمون عليه مصافحة؟ وبسرعة وجدت حلًّا وسطيًّا إذ قمت بالسلام عليه مصافحة وقبلت رأسه فابتسم الرجل وأخرج من جيبه بعض قطع من الحلوى وأعطاهما لنا وهو يقول إنه اعتاد «تحلية» فم زواره حتى يحلي الله فمه يوم القيامة، جلسنا بجواره نتكلم ونتضحك وقصصنا عليه أحداث انتخابات نقابة التجاريين وأفهمناه أن التصويت سينتهي في الخامسة مساءً وبعدها يبدأ الفرز، وقبل أن ننصرف من حجرتة أخبرته أنني رأيت في المكتبة بعض أعداد من مجلة النذير واستأذنته أن آخذ ثلاثة أعداد منها إلى بيتي لأستكمل القراءة فأذن لي، على أن أستأذن من الأخ المسئول عن المقر.

وبعد عدة أيام وفي بيتي جلست أتصفح أحد أعداد المجلة ذات مساءً، كانت المقالة الأولى التي وقعت عليها عيني تتعلق بإيران وتشرح وتحلل لتاريخها وكيف أنها درة من درر الشرق وأنها دولة هادئة مسالمة، وأثناء القراءة إذا بورقة تقع من المجلة، أمسكتها فوجدتها صفراء قديمة يبدو أنها ظلت داخل صفحات هذا العدد من المجلة سنوات وأحقابًا عديدة حتى

بهت لونها، كانت هناك بعض كلمات في الورقة، قرأت النص المكتوب ثم التفت عنه بل كدت أن أرمي الورقة في سلة المهملات إذ لم يقع في خاطري أنها ذات أهمية ولكن هاجسًا انتابني دفعني إلى طي الورقة ووضعها في مكانها بالمجلة، كان النص المكتوب في الورقة الصفراء هو (الأخ الكريم محمود عبد الحليم رعاه الله رجاء سؤال الأستاذ المرشد عن زيارة رجل الدين الشيعي روح الله مصطفى الموسوي لفضيلته في المقر، هل من المناسب أن نكتب في العدد القادم من المجلة عن تفاصيل هذه الزيارة أم أن فضيلته ليس له رغبة في ذلك؟ عن نفسي، فإنني أحب أن أكتب مقالة بنفسي عن هذا الأمر وعن الذي قاله الأستاذ في خصوص أن نعمل في المتفق عليه وأن نعذر بعضًا في المختلف فيه، وعلى العموم الرأي محال لفضيلته ولكنني أحببت فقط أن أشارك في الرأي، مع رجاء الرد سريعًا لارتباطنا مع المطبعة يوم الجمعة القادم.. توقيع: صالح مصطفى عشاوي).

من هو روح الله مصطفى هذا؟ وهل هو من الشخصيات العابرة التي لا تعلق في الأذهان حتى إن الزيارة لم تلق الاهتمام الكافي إعلاميًا، بل إن مؤرخي الجماعة لم يكتبوا عن هذا اللقاء وما تم فيه، كانت هذه أسئلة جالت بخاطري ودفعتنني إلى الاحتفاظ بالورقة لعلني أجدها بعد ذلك إجابة وافية عنها.

وبعد أيام ذهبت لمقر الجماعة لبعض شأني، فتقابلت مع الحاج «عباس السيسي» رحمة الله عليه، والحاج عباس السيسي هو أحد القيادات التاريخية للجماعة وكان قد تتلمذ إخوانيًا على يد المرشد الأول حسن البناء، كما كان في هذا الوقت، وقت لقائي به، أحد الأعضاء البارزين في مكتب الإرشاد،

وقبل أن ينتهي لقائي معه سألته عن روح الله مصطفى، من هو، وما هي قصة
زيارته للمرشد الأول عام 1938؟

أوماً الحاج السيدي برأسه وظهر البشر على وجهه الطيب وقال: من الذي
أخبرك عن هذه الزيارة؟ فقصصت عليه القصة وأنبأته بخبر الورقة الصفراء
فقال لي: اجعل هذه الورقة معك، لا تعطها لأحد من الإخوان فهم لا يهتمون
بالتاريخ ولا بالتوثيق، ولو أعطيتها لهم فستضيع فهذه ورقة مهمة.

استرسل الشيخ في الشرح وتحولت أنا إلى أذن صاغية فقال: روح الله هذا
هو الإمام الخميني رحمه الله، لم يكن معروفاً وقتها، كما لم يكن من المقبلين على
التقريب بين الشيعة والسنة، ومع ذلك تقابل معه الإمام الشهيد ليحاول
إقناعه بالتقريب، أما الذي كان مقتنعا بالتقريب فهم أفراد آخرون من علماء
الشيعة مثل الكاشاني والقمي وغيرهما، وهؤلاء تقابل معهم الإمام الشهيد
وأنشأ معهم داراً للتقريب.

فسألته: ولكن اللقب الذي كان مكتوباً بالورقة التي عثرت عليها هو
«الموسوي» وليس الخميني؟

رد قائلاً: لقبه كان الموسوي نسبة لعائلته على الأرجح، وكان أيضاً
«الخميني» نسبة إلى البلد الذي ولد فيه، وفي الوقت الذي زارنا فيه كان
مشهوراً بـ «الموسوي».

عدت أسأله: قرأت في الورقة مقولة الإمام الشهيد الشهيرة أن نعمل في
المتفق عليه بيننا وأن نعذر بعضاً في المختلف فيه، هل هذه العبارة كانت من
أجل التقريب بين السنة والشيعة؟

قال: هذه عبارة الأستاذ رشيد رضا رحمه الله وقد استعملها الإمام الشهيد في مواضع كثيرة، منها تلك اللقاءات التي جمعتها بالشيعة، وقد قالها للقمي وللকাশاني بعد ذلك... ثم استطرد: ويبدو أن الخميني تأثر بحسن البنا تأثيرًا كبيرًا وقد قال لي هذا شخصيًا.

سأله: وهل قابلت الخميني؟

قال: نعم، قابلته فقد زارته بعض وفود من الجماعة أكثر من مرة بعد الثورة الإسلامية في إيران، وكنت في إحدى هذه الزيارات، وأخونا يوسف ندا كان على رأس الوفد الأول، وقد ذهب ندا وفقًا لأوامر صدرت له شخصيًا من الأستاذ التلمساني، أما أنا فقد كنت في وفد آخر، وأظنه الوفد الثاني، وتحدثنا مع الخميني رحمه الله عن ضرورة أن يكون للإخوان جمعية في إيران، فوافق بسماحة وقال إنه تأثر بحسن البنا تأثيرًا كبيرًا، وأخبرنا عن زيارته لنا في مصر ومقابلته للإمام الشهيد، وقال إنه أطلق على نفسه لقب «المرشد» تأثيرًا وتيمناً بلقب المرشد الذي كان لحسن البنا.

عدت أسأله: هناك أمر استلقت نظري، لماذا لم يكتب الإخوان عن زيارة الخميني الأولى للإمام الشهيد وما حدث فيها؟! ولماذا لم يكتب الإخوان التفاصيل الكاملة لخبر زياراتهم للخميني في إيران وتفصيلًا؟

قال عن زيارة الخميني لنا: أظن أنه وقتها لم يكن شخصية مشهورة، وكانت الزيارات التي نستقبلها لوفود من الشباب المسلم من كل العالم هي من الأمور الدورية الاعتيادية وبالتالي لم تلق هذه الزيارة اهتمامًا إعلاميًا وقتها من أي أحد، لا من الجماعة ولا من غيرها، ولكن زيارات أخرى كانت

محل اهتمام من الجماعة مثل علاقتنا بالإمام تقي القمي والإمام الكاشاني لأنها كانا يعملان مع الإمام الشهيد في التقريب بين السنة والشيعة، والإمام الشهيد كان صاحب فكرة إنشاء دار التقريب، بل هو صاحب هذه التسمية، كما أن أحداً لم يكن يعلم أن هذا الشاب «الموسوي» سيصبح فيما بعد الإمام «الخميني» ذائع الصيت والتأثير، أما عن عدم قيامنا بالكتابة عن زيارتنا للخميني بعد الثورة الإسلامية فلاحظ أن نظام السادات كان قد أخذ موقفاً عدائياً من تلك الثورة، فالسادات كان يخاف من مسألة تصدير الثورة إلى مصر، فضلاً عن ذلك فإن علاقتنا بالسادات كانت قد تأثرت في نهاية حكمه فلم نرد أن نزيد الطين بلة، وقد استمر مبارك على نفس نهج السادات فأثرنا الصمت، وخذ بالك لا تتحدث بإفازة عن هذه المعلومات مع أحد لأن الجماعة من الممكن أن تصاب بأضرار بسبب هذه القصة.

قلت: ولكن الأستاذ عمر التلمساني رحمه الله أشاد بالثورة الإيرانية! قال: هذه نقرة وتلك نقرة، المرشد يقول رأياً، أما أنت فلديك معلومات، والمعلومات التي قدمتها الجماعة للرأي العام محدودة، وليس لك أن تتحدث في هذه الشؤون لأن هذا ليس من اختصاصك، هذه معلومات لك وحدك لعلك تكتبها ذات يوم في ظروف تسمح بذلك، وأظنك قرأت في كتاب المرشد التلمساني رحمه الله «ذكريات لا مذكرات» أن علماء الشيعة كانوا ينزلون ضيوفاً على الإخوان في المركز العام في القاهرة، وأن الإمام الشهيد كان على علاقة محبة وصداقة مع آية الله كاشاني.

انتهى الحديث بيننا وانتهت الزيارة وبقيت تلك القصة عالقة في ذاكرتي

وبقيت الورقة الصفراء معي شاهدة على فترة من تاريخ الجماعة وصفحة من صفحاتها.



كان الشيخ محمد تقي القمي علامة فارقة في تاريخ العلاقة بين حسن البنا والشيعة، ولمحمد تقي القمي قصة تقود إلى عالم سري لم يتطرق إليه الإخوان إلا نادراً، ما هي قصة محمد تقي القمي؟ وما هي علاقته بالبنا؟

ولد محمد تقي الدين القمي في طهران عام 1908 لعائلة شيعية ثرية، وكانت عائلته ذات باع طويل في المذهب الشيعي، حتى إن سلسلة أجداده لسابع جد كانت ذات مكانة دينية كبيرة بين الشيعة، وكان والده «حجة الإسلام»، وهو أعلى لقب ديني وقتها، أقام أحمد القمي كبير القضاة الشرعيين بطهران، فكان أن نشأ الابن محمد تنشئة دينية ونهل المذهب الشيعي من المنبع، ويكبر الصبي ويصل إلى مدارج الشباب ويقرر أن يدرس اللغة العربية وآدابها وكأنه كان يصبو نظره نحو مستقبل يتغيه، وبرع الشاب الصغير في علوم اللغة العربية في فترة قصيرة، وفي ذات الوقت ظل يواصل دراسته الدينية على يد بعض علماء الشيعة الكبار، حتى استقام عوده وأصبح صاحب منهج وهدف، وعندما اقترب عمره من الثلاثين قرر أن يخرج من إيران ويجوب العالم في رحلة شبيهة برحلات «جليفير» الأسطورية، فكانت رحلة القمي في بلاد أهل السنة. تلك الرحلة التي قضى فيها الجزء الأكبر من حياته.

ترك «القمي» إيران عام 1937 م وبدأ رحلته الطويلة التي أسماها رحلة

التقريب بين السنة والشيعة! هل من الممكن أن يحدث هذا؟ هل من الممكن أن يلتقي الشيتان بعد أن ظنا كل الظن ألا تلاقيا؟! وهل كان التقريب هو هدف القمي أم كانت له أهداف أخرى؟ فكرة التقريب هذه قد تبدو خلافة أسرة مبهرة، فما أعظم أن تتوحد الأمة! ولكن كيف تتوحد؟ أسيتمخلى أهل السنة عن عقيدتهم الراسخة ويندمجون في المذهب الشيعي؟ أم سيحدث العكس ويتمخلى الشيعة عن تشيعهم وعن نظرتهم التكفيرية لكبار الصحابة؟ هل سيعيد الشيعة الاعتبار للسيدة عائشة رضي الله عنها؟ هل سيصبح الإمام الغائب محمد بن الحسن المهدي أسطورة من أساطيرهم أم سيظل عقيدة راسخة رسوخ الجبال؟ هل الفروقات الضخمة بين العقيدتين ستصير إلى زوال؟ أم أن هذا التفرق هو من أقدار الله لهذه الأمة؛ لذلك قال سبحانه في الكتاب الكريم ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (هود: 118) ثم قال: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ قُلُوبًا فَاسِدَةً﴾ (هود: 119) ولذلك أيضًا قال الرسول ﷺ: «ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين شعبة».

حطَّ القمي رحاله في العراق ثم لبنان، وفيهما تشاور مع علماء الشيعة، وأبدى لهم رغبته في تقريب أهل السنة للشيعة، والغريب أن علماء الشيعة الذين تحدث معهم القمي وافقوه على رغبته وكأن هذا الأمر متفق عليه من قبل، وكأنه خطوة مرسومة ظاهرها هو تجميع الأمة تحت راية واحدة ولكن باطنها هو تميع عقيدة أهل السنة!! أو بالأحرى كانت بوابة التقريب هي البوابة التي راهن الشيعة عليها في نشر المذهب الشيعي في مصر بحسب أن أهل مصر يضعون آل البيت في منزلة كبيرة، لذلك كانت مصر هي المحطة الثالثة للشيخ محمد القمي، وضع القمي نصب عينيه أن مصر هي قلب العالم

الإسلامي، وفيها الأزهر الشريف الذي كان في بدايته مركزاً شيعياً فاطمياً، ولعلنا نتذكر دخول الرئيس الإيراني أحمدني نجاد إلى الأزهر الشريف أثناء زيارته لمصر في فبراير عام 2013، وقتها رفع نجاد إصبعيه علامة النصر وكأنه غازٍ جاء يعيد مجد أجداده الفاطميين، بما يذكرنا بمقولة الجنرال الفرنسي «هنري جورو» الذي دخل إلى دمشق غازياً بعد معركة ميسلون فتوجه إلى قبر صلاح الدين الأيوبي ووقف على القبر متشفياً حاقداً وظهر حقه في عبارته الشهيرة التي قالها وقتئذ: (ها قد عدنا يا صلاح الدين).

كان الأزهر هو المستهدف الأول للشيخ محمد القمي، فمن خلاله قد يستطيع الشيعة نشر المذهب الشيعي في مصر مستغلين في ذلك حب المصريين وشغفهم بآل البيت وأضرحتهم. ورد في بال القمي وقتئذ أن الأزهر كان هو المهبط الذي هبط عليه رجل الدين الشيعي «جمال الدين الأسد آبادي الشهير بجمال الدين الأفغاني» أثناء تجواله في بلاد أهل السنة، ومن خلاله تعرف على الشيخ محمد عبده وعلى كثير من علماء الأزهر الكبار، ومن خلال الأزهر قد يستطيع القمي التغلغل وسط أهل السنة وإقناعهم بالتعيد لله وفقاً لمذاهب الشيعة!

وإذ وصل القمي إلى مصر توجه أول ما توجه إلى حسن البنا الذي استقبله وأحسن وفادته، ثم استطاع بعد أيام قليلة، عن طريق البنا، الاجتماع بشيخ الأزهر الشيخ مصطفى المراغي، عرض القمي على المراغي فكرة أن تجتمع الأمة تحت راية واحدة وأن ننسى خلافاتنا العقائدية، فاستقبل المراغي هذه الفكرة استقبالا حسناً ووقع في خاطرهِ أن أهل الشيعة من الممكن أن يتقبلوا من تشيعهم إلى «التسنن» فكان أن مد له يد المساعدة وهياً له فرصة الاتصال

بعلماء السنة الكبار كالشيخ عبد المجيد سليم، كانت الفرصة سانحة فطلب القمي من شيخ الأزهر إتاحة الفرصة له للتدريس في الأزهر كوسيلة من وسائل التمازج النفسي والمشاعري والفكري، فوافق المراغي وأصبح القمي محاضرًا في الأزهر للفلسفة الإسلامية!! وحين اشتعلت الحرب العالمية الثانية عاد القمي إلى إيران حيث ظل فيها سنوات قليلة وفيها تقابل مع أكبر رجل دين شيعي هو «آية الله العظمى الإمام البروجردي» وفي هذا اللقاء تلقى القمي دعمًا معنويًا كبيرًا من إمامه الشيعي الكبير، إذ كانت الفكرة التي اختمرت في ذهن رجل الدين الكبير هي أنه من خلال فكرة التقريب هذه سينجح الشيعة في «تشجيع أهل السنة» وكما يقولون في المثل «كل يغني على ليلاه».

وبعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، عاد القمي إلى مصر ليستكمل رحلته التي ظاهرها «التقريب» وباطنها «التشجيع» والتقى القمي بعد عودته أول ما التقى بصديقه الحميم حسن البنا، وكان البنا عند حسن ظن القمي به فقد جعل من إحدى حجرات المقر سكنًا ومقرًا له، أسرَّ القمي للبنا بسر عودته ومشروعه الذي يسير فيه فبارك البنا له ما فكر فيه: «نعم الرأي ما رأيت يا قمي».

ومع عدد من علماء السنة كانت لقاءات وحوارات، وفي غضون شهر فبراير من عام 1947 قام القمي بتأسيس «دار التقريب بين المذاهب الإسلامية» ونجح الرجل الدؤوب في ضم عدد لا يستهان به من أصحاب القامات العلمية السنية الكبيرة إلى جمعيته هذه، كان منهم الشيخ محمود شلتوت الذي أصبح شيخًا للأزهر فيما بعد، والشيخ مصطفى عبد الرازق، والشيخ عبد العزيز عيسى، ووسط هذا الجمع كان حسن البنا المرشد الأول

للجماعة، لا شك أنها كانت صداقة وطيدة تلك التي جمعت بين هذين الرجلين حتى إن تاريخ جماعة الإخوان كان ولا يزال يشيد بهذه الصداقة ويعتبرها من فتوحات البناء.

فتحت دار التقريب أبوابها فضمت لاستكمال الشكل العالم الشيعي الكبير الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء، والعالم الشيعي العراقي الكبير «السيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي» وغيرهم، وبعد إشهار الجمعية صار الشيخ محمد القمي سكرتيرها العام ومؤسسها الأول وفقاً لما ورد في المادة السادسة من النظام الأساسي للجمعية، وكان من نشاط جمعية القمي هذه إصدار مجلة أطلقوا عليها اسم «رسالة الإسلام» وظلت هذه المجلة تصدر ردحاً من الزمن اقترب من عقد ونصف، وفي أعداد هذه المجلة تم نشر الفتوى الشهيرة للشيخ محمود شلتوت والتي كانت مفاجأة كبرى لأهل السنة، أصدر الشيخ شلتوت فتواه في إبريل 1960 وذهب فيها إلى جواز التعبد على المذاهب الإسلامية ومنها مذهب الشيعة الإمامية (الإثنا عشرية).

وهذا هو نص الفتوى:

1- إن الإسلام لا يوجب على أحد من أتباعه اتباع مذهب معين، بل نقول: إن لكل مسلم الحق في أن يقلد باديء ذي بدء أي مذهب من المذاهب المنقولة نقلاً صحيحاً والمدونة أحكامها في كتبها الخاصة، ولمن قلد مذهباً من هذه المذاهب أن ينتقل إلى غيره أي مذهب كان ولا حرج عليه في شيء من ذلك.

2 - إن مذهب الجعفرية المعروف بمذهب الشيعة الإمامية الإثنا عشرية

مذهب يجوز التعبد به شرعاً كسائر مذاهب أهل السنة، فينبغي للمسلمين أن يعرفوا ذلك وأن يتخلصوا من العصبية بغير الحق للمذاهب معينة، فما كان دين الله وما كانت شريعته بتابعة لمذهب أو مقصورة على مذهب، فالكل مجتهدون مقبولون عند الله تعالى، يجوز لمن ليس أهلاً للنظر والاجتهاد تقليدهم والعمل بما يقررونه في فقههم، ولا فرق في ذلك بين العبادات والمعاملات.

توقيع

محمود شلتوت

وبذلك نجح القمي في استخلاص فتوى من أكبر قامة علمية سنية بجواز التعبد بمذهب الشيعة الإمامية الإثنا عشرية، في الوقت الذي لم يبح فيه أي عالم من الشيعة، للشيعة، بجواز التعبد لله بأي مذهب من مذاهب أهل السنة، ويبدو أن تأثر الشيخ شلتوت رحمه الله بفكرة التقريب هي التي دعت به إلى إصدار هذه الفتوى، إذ قال في أحد أعداد مجلة التقريب (وكنت أود لو كتب قصة التقريب أحد غير أخي الإمام المصلح محمد تقي القمي ليستطيع أن يتحدث عن ذلك العالم المجاهد الذي لا يتحدث عن نفسه ولا عما لاقاه في سبيل دعوته وهو أول من دعا إلى هذه الدعوة وهاجر من أجلها إلى هذا البلد، بلد الأزهر الشريف، فعاش معها وإلى جوارها منذ غرسها بذرة مرجوة على بركة الله، وظل يتعهد بالسقي والرعاية بما آتاه الله من عبقرية وإخلاص وعلم غزير وشخصية قوية وصبر على الغير وثبات على صروف الدهر، حتى رآها شجرة سامقة الأصول باسقة الفروع تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويستظل بظلها أئمة وعلماء ومفكرون في هذا البلد وفي غيره).

علاقة القمي بالمرشد الأول حسن البنا كانت ظاهرة أمام العيان غير خفية ولا خافية على أحد، ذكرها الأستاذ محمود عبد الحليم المؤرخ الأول للإخوان في كتابه (الإخوان المسلمون، أحداث صنعت التاريخ، الجزء الأول) وقال عنها المرشد الثالث الأستاذ عمر التلمساني⁽¹⁾ «كان البنا حريصاً على توحيد كلمة المسلمين، وكان يرمي إلى مؤتمر يجمع الفرق الإسلامية؛ لعل الله يهديهم إلى الإجماع على أمر يحول بينهم وبين تكفير بعضهم، خاصة أن قرآناً واحداً وديننا واحد ورسولنا - ﷺ - واحد وإلهنا واحد ولقد استضاف لهذا الغرض محمد القمي أحد كبار علماء الشيعة وزعمائهم في المركز العام فترة ليست بالقصيرة» ولعلي لم أجد أحداً يخالف هذه الحقيقة، كما أنه من المعروف أن البنا قد قابل المرجع الشيعي آية الله الكاشاني أثناء الحج عام 1948م وحدث بينهما تفاهم.

وبعد أكثر من أربعين عاماً من مقتل حسن البنا وتحديدًا في غضون عام 1990 وقع حادث سير أليم في باريس توفي بسببه الشيخ الغامض «محمد القمي» وتم نقل جثمانه إلى طهران حيث دفن هناك.



كيف تأثر حسن البنا بالشيخ القمي وكيف فكر وهو يلتقي به؟ كان حلم البنا الكبير هو توحيد العالم الإسلامي كله تحت راية الإخوان المسلمين، كان يحلم بنفسه هادياً لهذه الأمة وقائداً لها وخليفة عليها، ولد حسن البنا عام 1906 لأبٍ ينتمي للمذهب الحنبلي هو الشيخ أحمد عبد الرحمن الساعاتي،

(1) كتاب «حسن البنا الملهم الموهوب» لعمر التلمساني ص 78.

الذي حقق وشرح مسند الإمام أحمد بن حنبل في كتاب سماه (الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني) إلا أن الأب كان حريصاً غاية ما يكون الحرص على أن يُعلم أولاده المذاهب كلها! فكان المذهب الحنفي من نصيب الابن الأكبر حسن البناء، أما المذهب الشافعي فكان من نصيب الابن الأصغر جمال البناء والمالكي من نصيب عبد الرحمن البناء، أما الحنبلي فقد كان من نصيب محمد البناء، فكان بيت الأب أحمد عبد الرحمن البناء هو البيت الحنبلي الذي جمع المذاهب الأربعة في أركانه الأربعة، وحين مات حسن البناء تم دفنه في مقابر الإمام الشافعي ولكأنها أراد هذا الرجل ألا يغادر المذاهب الأربعة حتى في موته!

أما عقيدة حسن البناء فقد كانت كما يقول هو: عقيدتي هي عقيدة أهل السلف. إلا أن رسائله دلت على أنه كان - يميل إلى المذهب الأشعري، ولا غرو في ذلك - إذ لم يكن أتباع المذهب الأشعري وفقاً على حسن البناء دون غيره من أهل عصره وزمانه، فالدارس للمذاهب العقائدية في مصر آنذاك يدرك أن معظم الأزهريين كانوا يؤمنون بهذا المذهب، ولم لا ومؤسس الأشعرية هو الإمام أبو الحسن الأشعري، أما أعلام الأشاعرة فمنهم أبو حامد الغزالي والطبري والقاضي أبو بكر الباقلاني وغيرهم - ممن أخذ منهم المسلمون دينهم عبر أجيال وأجيال.

ومابين الأشاعرة والحنابلة علاقة نسب، فقد كتب الأشعري في آخر كتبه (الإبانة) أنه على المذهب الحنبلي، ولا يغير من هذا أن هناك العديد من الاختلافات العقائدية بين أحمد والأشعري لأن أبا الحسن الأشعري كان يقصد أنه على مذهب أحمد في العبادات والمعاملات لا في العقائد.

نأتي إلى حسن البنا الذي درس المذهب الحنفي وعاش في كنف المذهب الحنبلي واندمج عقله من حيث العقيدة في المذهب الأشعري مذهب أهل الخلف، لنراه، أي حسن البنا، وقد اختط لنفسه طريقًا يخرج به من نطاق المذهبية ويرفع فيه شعارًا سمعه من شيخه رشيد رضا هو (فلنعمل فيما اتفقنا عليه وليعذر بعضنا البعض فيما اختلفنا فيه) كان هذا هو حسن البنا رجل المذاهب كلها، أو على الأرجح رجل التوفيق بين المذاهب، لذلك لم يعرف أحدٌ على وجه الدقة أكان في العقيدة من أهل السلف أم كان من أهل الخلف (الأشاعرة) وهل كان في الفقه حنبليًا أم حنفيًا، لأنه كان يجمع بين هذا وذاك بما يتناسب مع مشاريعه وبما يستريح إليه قلبه.

ولا أظن، وأنا غير مفاخر بذلك، أن أحدًا قرأ عن حسن البنا ومخر في عباب حياته كما فعلت، فعبر تاريخي كله قرأت - وأزعم أنني فعلت - كل ما أخرجته المطابع عن حسن البنا، أحببت هذا الرجل وشغفت به وبفهمه وفتت كبدي نهايته المأساوية، إلا أنني بعد سنوات من القراءة والبحث كنت أمج مغالاة الغالين وأكره أيضًا إجحاف المجحفين، ولا أنزه نفسي عن أنني كنت في الفترات الأولى من حياتي قد وضعت الرجل في مكانة أولياء الله الصالحين الصديقين الذين لم يقترب الخطأ من حياضهم أبدًا، بهرني بذاكرته وفراسته وشدته على نفسه في العبادة، حتى قلت في نفسي إن هذا رجل لم يقع في هفوة قط وكأنه أرقى من الصحابة أجمعين! ولعل الحب ومراتب الهوى هي التي جعلتني من المشدودين للبنا والمشدوهين به... إلا أنني بعد أن استقام عودي أدركت أن الإنصاف للرجل إنما يكون بتأديمه «أي رده إلى

آدميته» فالآدمية، لا الملائكية، هي التي ترفع قدره، وإذا كان الله قد خلقنا من طين فلا ينبغي أن نحوّل أنفسنا أو نحوّل من نحبههم إلى ملائكة نورانيين، وتنزيه البشر إنما يكون بتعدد معايهم وإبعادهم عن الكمال لأن الإقرار بنقائصنا هو في ذاته الإقرار بكمال الله.

ما زالت شوارع المحمودية تذكر حسن البناء ذلك الصبي النحيف الذي كان يصطحب معه بعضاً من أترابه الصبيان حيث يضمرون في أنفسهم أمراً، ثم يذهب أحدهم إلى صاحب حانة تبيع لروادها أصناف الخمر، ويذهب الآخر لمرابٍ يقرض بالربا، ويذهب ثالث لرجل سيئ السمعة، وهكذا حتى يكتمل عقد ما انتووا عليه - فيدس كل واحد منهم خلسة وفي غفلة من الناس خطاباً لمن ذهب إليه، وحين يعثر أولئك الغافلون على الخطابات يجدونها نصيحة إسلامية موجهة إليهم من مجهول يُذكّرهم بالحرام والحلال وتحريم الله ما يفعلونه وعقوبة من يجترئ على حدود الله، وفي نهاية الخطاب يجد القارئ تهديداً موجهاً له بالويل والثبور وعظائم الأمور إن لم يرتدع.

كان الغلام حسن البناء يتنفس أكسجين الحماسة للإسلام، إلا أن شخصيته أُشربت روح الزعامة فإنه كان يشعر وكأنه هو الذي أرسله الله على رأس مائة عام كي يجدد للأمة أمر دينها، أو كأنه هو المهدي المنتظر من أهل السنة، والإمام الغائب عند أهل الشيعة، - فأوقف نفسه وحياته ومشروعاته وطموحاته على الدعوة لله، ولكن نظرته للدعوة امتزجت به شخصياً، فأصبح هو الدعوة والدعوة هو لا فرق بينهما في اعتقاده، وكان السؤال الذي

يتردد في ضميره دائماً هو: هل تنفصل الدعوة عن الداعية؟ وحين أجاب عن هذا السؤال بعد سنوات طويلة كان ذلك عن طريق كتابه الوحيد الذي جعل عنوانه «مذكرات الدعوة والداعية».

نظر الصبي حسن البنا حوله يبحث عن طريقة إسلامية تُشبع ذاته فالتمسها في الطريقة الحصافية الصوفية، فانخرط فيها ونهل منها. ثم أخذ الصبي حسن البنا، وهو في سن المراهقة، عهد الطريقة الحصافية على يد شيخها عبد الوهاب الحصافي الذي سمح له بعد أخذ العهد بالقيام بأدوار الحضرة ووظائفها بمسجد التوبة بدمنهور بمديرية البحيرة.

كانت الطريقة هي بداية الطريق للبنا، تعلم من شيخها وأخذ من شيوخها حلمي زكريا وحسن خزيك وغيرهما، ومنهم عرف التنظيم وآلياته والسمع والطاعة والثقة في الشيخ، وأدرك أن وسيلته في إقامة تنظيم قوي محكم يدين له بالولاء لا تكون إلا بطاعة الأعضاء كما يطيع المريد شيخه، ففي الصوفية يكون المريد بين يدي شيخه كالميت بين يدي من يغسله يقبله كيف يشاء، وهكذا أصبح البنا في مستقبل أيامه وهكذا أصبح الإخوان بين يدي البنا.

استمر البنا في الطريقة الحصافية لم يغادرها بروحه وإن غادرها بجسده، وكان قبلها قد انقطع عن استكمال حفظ القرآن إذ توقف عن هذا وهو في الرابعة عشرة من عمره رغم أنه كان يتمتع بذاكرة لاقطة قوية، ولكن البنا وجد أن طريق العلم والفقه ليس هو طريقه ولكن طريقه، كما كان يقول، هو صناعة الرجال، كان من الممكن أن يقتفي أثر أبيه في علوم الحديث ولكنه كان يتنقل بين كل العلوم، فيأخذ من كل علم قطعة تكون هي زاده فيما انتوى

عليه، وكان مما قاله لي بعض ممن صاحبه: إن البناء رفض أن يؤلف الكتب لأنه كان يريد أن يؤلف الرجال وهذا هو ما نجح فيه.

وفي القاهرة كانت محطته التالية حيث التحق بمدرسة دار العلوم، ولأنه كان صاحب همّة عالية وتأثير أعلى لم يشغل نفسه بما يشغل به الشباب، بل كانت فكرته الدعوية تسيطر عليه وتخلب لبه خاصة أن أتاتورك كان قد مزق أوتار الخلافة الإسلامية وقضى عليها، وكان هذا مما مزق قلب الشاب اليافع فأخذ يجوب أروقة العلماء ويجلس إليهم ويستمع لمشاعره ويحتد على بعضهم أحياناً ويبكي بين أيديهم أحياناً أخرى، ثم كانت العلامة الفارقة في حياة البناء، عندما تعرف على الشيخ رشيد رضا والشيخ محب الدين الخطيب ومن خلاهما تحدد مسار البناء.

كان رشيد رضا تلميذاً للإمام محمد عبده، وكانت قد نشأت علاقة على البعد بينه وبين الشيخ جمال الدين الأفغاني، إلا أنه لم يلتق به وكان تأثير هذين الشيخين على رشيد رضا كبيراً فأصبح عالماً ثائراً اتجه صوب الإصلاح الديني والسياسي واستقر به المقام في مصر بعد أن غادر بلده لبنان، وجعل طريقته في الإصلاح هي التربية والتعليم، فأنشأ مدرسة الدعوة والإرشاد ثم كانت وجهته الثانية هي الصحافة فأنشأ مجلة المنار وجعل رسالتها التربية والتعليم.

أما محب الدين الخطيب الذي كان ينتمي إلى أسرة دمشقية ذات أصول بغدادية، فقد نشأ في دمشق وتلقى العلم بها ومن علمائها ثم رحل في طلب العلم إلى الأستانة وظل بها إلى أن طرده منها الاتحاديون الذين انقلبوا على

الخلافة الإسلامية، فجاء إلى مصر وتعرّف إلى الشيخ رشيد رضا وعمل معه في مدرسته ثم أسس المكتبة السلفية وأنشأ مطبعتها.

لم تمر على البلاد العربية والإسلامية أحداث كمثل الأحداث التي كانت تترى آنذاك، فها هي الخلافة الإسلامية ذات الصبغة العثمانية تقع، وها هو عبد العزيز آل سعود يدحر بجيوشه الذين عُرفوا باسم «الإخوان» جيوش عدوه «آل رشيد» أمراء حائل، ثم توج عبد العزيز آل سعود انتصاراته بهزيمة الشريف حسين، ثم قام جيشه المسمى بالإخوان بشن هجوم على شرق الأردن لإثبات أن الأمور دانت لعبد العزيز ثم ها هو في طريقه إلى توحيد الجزيرة العربية تحت اسم المملكة العربية السعودية.

كان رهان الشيخين رشيد رضا ومحب الدين الخطيب على عبد العزيز آل سعود، فقد وجدوا فيه الخليفة المنتظر، ومن غيره في عرفهما يصلح لها؟ ومن خلال الشيخ المصري حافظ وهبة مستشار الملك عبد العزيز وأحد المقربين له سعى الشيخان حثيثاً للقاء الملك والعمل من أجل مشروعه السياسي والفكري، وفي صورة تبدو وكأنها انقلاب من الشيخين على فكر أستاذهما الشيخ محمد عبده المنفتح ومذهبه الحنفي الأشعري تبنى الشيخان مذهب المملكة الحنبلي، وأخذوا في الترويج له بحسب أنه سيكون الراية المذهبية التي ستقوم عليها الخلافة الجديدة، وقد وضعوا في خاطرهما تجربة جيش الإخوان الوهابي الذي كان يرفع شعار «الله أكبر والله الحمد».

أما حسن البناء فقد كان قارئاً مشغوقاً، قرأ ما وقع تحت يديه من علوم، فعرف منهج أهل الشيعة ويبدو أنه تأثر بفكرة الإمامية تأثراً كبيراً، ووقع في

خلده أنه كأنه هو الإمام الغائب، ويبدو هذا في تراثه المنقول لنا، والمنقول عنه وعن تابعيه.

كان كتاب حسن البنا «مذكرات الدعوة والداعية» كاشفًا عن رجل خلط بين نفسه والدعوة، حتى إن الإخوان لا يزالون إلى الآن يتحدثون عن البنا (صاحب الدعوة) لدرجة أن الإخوان طبعوا عام 1990 كتيبًا وزعوه على قسم الأشبال بالجماعة عنوانه (حسن البنا مؤسس الدعوة الإسلامية) وعندما أراد الإخوان أن يهذبوا من هذه العبارة، قالوا في كل أدبياتهم إن حسن البنا مؤسس الحركة الإسلامية، وكأن الله سبحانه أرسل نبينا وسيدنا محمدًا عليه الصلاة والسلام لينشر الدين الإسلامي، ثم أرسل الإمام المعصوم حسن البنا ليؤسس الحركة الإسلامية!

في مذكرات الأستاذ محمود عساف كتب يقول (كان البنا يسأل الشخص المرشح سؤالًا: هل إذا حدث انقلاب في الإخوان وأبعد حسن البنا هل تظل تعمل في الجماعة؟) ثم يقول عساف كان هذا السؤال يلح عليه حيث انشق بعض المعارضين، لم يحس المنشقون بمدى تجسيد الدعوة في شخص حسن البنا⁽¹⁾.

فإذا قرأنا تراث حسن البنا نجد أنه كان حريصًا أشد ما يكون الحرص على تجميع الأمة تحت راية واحدة، وحسنة هي تلك الفكرة، ولكنه كان لا يرى إلا رايته هو، ولا يرى إلا نفسه هو، هو الذي يجب أن تجتمع الأمة خلفه ليكون قائدها الرباني، وليس هناك من سبيل إلى ذلك إلا الجمع بين الشيعة

(1) مذكرات محمود عساف ص 61.

والسنة في إناء واحد، حتى لو أدى الأمر إلى التميع والتنازل، فالعقيدة نفسها لا تهم، والولاء ليس له وجود إلا الولاء للمرشد، لم يدرك البنا أن رغبته الجارفة في أن يكون مرشد هذه الأمة لا تتحقق بالتميع والتنازل عن ثوابت الأمة، ولكن رغبته الجارفة في إمامة الأمة كلها، جعلته ينظر للموضوع نظرة سياسية لا عقائدية، أو بالأحرى نظرة ذاتية، لذلك كان يبغض الأحزاب كلها ويقف ضدها، وكان أيضًا يكره أن تنقسم الأمة إلى شيعة وسنة، هو يريد أن تكون أمة واحدة ليتسيد هو على الجميع ويكون إمامًا للجميع.

تجد حسن البنا يقول في رسائله كلامًا طيبًا في ظاهره إلا أنك إذا تأملتة وسبرت غوره وأنزلته إلى حياة البنا وتوجهاته فستجد معنى يختلف عن المعنى الظاهر، بل ستجد غموضًا وتقية، فهو يقول في رسالة دعوتنا (اعلم - فقهك الله - أولًا: أن دعوة الإخوان المسلمين دعوة عامة لا تتسبب إلى طائفة خاصة، ولا تنحاز إلى رأي عرف عند الناس بلون خاص ومستلزمات وتوابع خاصة، وهي تتوجه إلى صميم الدين ولبه، وتود أن تتوحد وجهة الأنظار والهمم حتى يكون العمل أجدى والإنتاج أعظم وأكبر، فدعوة الإخوان دعوة بيضاء نقية غير ملونة بلون، وهي مع الحق أينما كان، تحب الإجماع، وتكره الشذوذ وإن أعظم ما مني به المسلمون الفرقة والخلاف، وأساس ما انتصروا به الحب والوحدة).

والمعنى البادي هنا أن جماعة الإخوان ليست جماعة لأهل السنة، ولا لطوائف الشيعة، كما أنها ليست للخوارج، أو المعتزلة، أو الأشاعرة، أو الجهمية، هكذا هو يقول، ولكنها (لا تتسبب لطائفة خاصة) كما أنها وفقًا للبنا في رسالته (لا تنحاز إلى رأي عرف عند الناس بلون خاص ومستلزمات

وتوابع خاصة!! ثم يقول (دعوة الإخوان بيضاء نقية غير ملونة بلون).

هل فهمت شيئاً من هذا الكلام، وهل يؤدي إلى معنى واضح، وما تلك الكلمات الغامضة التي يقول فيها (رأي عرف عند الناس بلون خاص ومستلزمات وتوابع خاصة!).

ولعلك تلحظ «التقية» في كلماته هذه، فقد وضعها بطريقة نفهمها على أكثر من نحو، فهو يكاد يقول: إن جماعة الإخوان ليست جماعة سنية، ولا شيعية، ولكنها تجمع بين هذا وذاك.

وتكملة للتقية في رسائل البنا نجده يقول رسالته هذه تحت عنوان: «نعتذر لمخالفتنا». ثم أمر آخر جدير بالنظر.. إن الناس كانوا إذا اختلفوا رجعوا إلى الخليفة، وشرطه الإمامة، فيقضي بينهم، أما الآن فأين الخليفة؟).

والكلام عن «الخليفة وشرطه الإمامة» يدخلنا في الطائفة الشيعية من أوسع أبوابها، إذ عندهم فارق كبير بين الخليفة والإمام، ففي دراسة أعدها «مركز الأبحاث العقائدية - وهو أحد المراكز الشيعية الكبيرة - تحت عنوان الخليفة والإمام: (ذكروا في تعريف الخلافة أنها: الرئاسة العامة في التصدي لإقامة الدين بإحياء العلوم الدينية وإقامة أركان الإسلام، والقيام بالجهاد وما يتعلق به من ترتيب الجيوش والفرض للمقاتلة وإعطائهم من الفيء، والقيام بالقضاء وإقامة الحدود ورفع المظالم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، نيابة عن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» وهي لا تكون إلا بنص النبي «صلى الله عليه وآله» وما زعموه من أنه: لا يصلح أن يقال: إن الله يستخلف أحداً عنه، ممنوعة، لتصريح أئمة السنة بكون داود (عليه السلام)

خليفة الله، وأنه قد وصف بهذا في القرآن العظيم، وإنما انحرفوا عن هذا المعنى تصحيحاً لخلافة الثلاثة، وتوسلوا في سبيل إثبات صحة خلافتهم بالشورى حتى عدوا الخلافة جزءاً منها، ورغم أن مصطلح الخلافة ظاهر في معنى الإيصاء وتنصيب النائب عن منوبه؛ إذ يفترض وجود مستخلف وأنه يريد تعيين من يخلفه لأن ذلك من شئونه لا من شأن غيره، ولو لم يكن هذا المعنى لازماً لمفهوم الخليفة لما ترك الخليفة الأول والخليفة الثاني الأمة دون أن ينصبوا رئيساً لها وإن كان هذا التنصيب بأشكال مختلفة، فتحصل من كل ذلك أن الخلافة لا تصح إلا بأن ينص السابق على لاحقه، وأنها من شئون الدين لا من شئون الناس، أما الإمامة فهي الخلافة الإلهية التي تكون متممة لوظائف النبي «صلى الله عليه وآله» وإدامتها عدا الوحي، فكل وظيفة من وظائف الرسول من هداية البشر وإرشادهم وسوقهم إلى ما فيه الصلاح والسعادة في الدارين وتدبير شئونهم وإقامة العدل ورفع الظلم والعدوان وحفظ الشرع وبيان الكتاب ورفع الاختلاف وتزكية الناس وتربيتهم، وغير ذلك كلها ثابتة للإمام، فما أوجب إدراج النبوة في أصول الدين هو بعينه الذي أوجب إدراج الإمامة بالمعنى المذكور فيها، ويشهد لكون الإمامة من أصول الدين أن منزلة الإمام كمنزلة النبي في حفظ الشرع ووجوب اتباعه والحاجة إليه ورياسته العامة بلا فرق، وقد وافق على أنها من أصول الدين جماعة من مخالفين الإمامية كالقاضي البضاوي، فالإمامة ليست مجرد زعامة اجتماعية وسياسية، فلو كانت كذلك لكان الإنصاف أنها من فروع الدين كسائر الواجبات الشرعية من الصوم والصلاة وغيرها، ولكن الشيعة لا

يكتفون بمجرد هذا المعنى، بل هي عندهم لطف إلهي كالنبوة، فتكون أصلاً لا فرعاً).

المستفاد من رسائل حسن البنا أنه أراد أن يزيل الفوارق بين العقائد، ولذلك أطلق مقولة أستاذه رشيد رضا في هذا المضمار فقال: (فلنعمل فيما اتفقنا عليه وليعذر بعضنا البعض فيما اختلفنا فيه) هو يريد من جماعته أن تجمع الكل في إناء واحد ويكون هو المهيمن على الإناء وحده، ألم يقل من قبل لسكرتيه محمود عساف: إن الإيمان لديك بدعوة الإخوان لا يكتمل إلا إذا آمنت بصاحب هذه الدعوة حسن البنا.

هكذا كان ينظر حسن البنا لنفسه، وهكذا كان أتباعه ينظرون إليه، هو الإمام المعصوم الذي لا يأتيه الباطل أبداً، لذلك عندما وقع الشيخ محمد القمي تحت يد البنا وجده لقمة سائغة لتحقيق هدفه في تجميع الأمة كلها تحت راية الإخوان المسلمين، ولا نستطيع في الحقيقة معرفة من الذي التهم من؟ خاصة أن حسن البنا هو الذي قام بتوصيل القمي للشيخ محمود شلتوت - قبل أن يصبح شيخاً للأزهر - وهو الذي استطاع التأثير عليه من الناحية العاطفية تحت لافتة أن شلتوت من الممكن أن يجمع طائفة الشيعة مع السنة بحيث يدخلهم إلى التسنن، ومن أجل هذا كان الشيخ شلتوت رحمه الله في معية دار التقريب، ومن أجل هذا أيضاً أصدر فتواه الشهيرة بجواز التعبد لله على عقيدة الإمامية الإثنا عشرية!



في دراسة أعدها السيد «محمد علي آذرشب» - وهو من الشخصيات

الشيعة الشهيرة ومن دعاة التقريب بين السنة والشيعة - كشف عن ذكريات الشيخ محمد تقي القمي مع حسن البناء، كانت هذه الدراسة تحت عنوان «التقريب بين المذاهب الإسلامية - القاهرة - القسم الثاني - تاريخ ووثائق» جاء فيها:

(الشيخ حسن البناء والتقريب)

(و حين يتحدث الشيخ القمي عن ذكرياته مع جماعة التقريب يقف طويلاً عند الشيخ حسن البناء، حين يذكره يسري إلى جسده نوع من النشاط والحيوية في الكلام، كأن نشاط الشيخ البناء يسري إلى جسده، لم يكن حسن البناء عالماً أزهرياً، ولم تكن له علاقات مع شيوخ الأزهر، لكنه كان جبلاً شامخاً في همومه وتحركه ونشاطه وتخطيطه وإخلاصه، بهذه الصفات الكبيرة اخترق أوساط الشباب الجامعي وربى جيلاً تقيّاً ورعاً مجاهداً مثقفاً ثقافة إسلامية واعية صحيحة، كان يحمل همّ التقريب بين مذاهب المسلمين انطلاقاً من هدفه الذي كان يعيشه بكل وجوده، وهو عودة الأمة المسلمة إلى عزتها وكرامتها ومكانتها على الساحة التاريخية، روحه التقريبية هذه سرت إلى جماعة «الإخوان المسلمين» التي أسسها ورعاها وأشرف على مسيرتها، وآثاره لا تزال حتى اليوم موجودة بين جماعات الإخوان المسلمين، فهي الجماعة السلفية الوحيدة التي ترفض التعصب الطائفي وتقيم علاقاتها على أساس الإسلام وحده لا المذهب، ولا تعير أهمية للخلافات المذهبية، الشيخ البناء هو الذي سمى الدار، جدير بالذكر أن الشيخ حسن البناء كان من أوائل جماعة التقريب ومن المهتمين بدفع مسيرة الدار، وكان الحديث

في الأيام الأولى لتشكيل الجماعة يدور عن إيجاد اسم للمؤسسة التي يهتم الشيخ القمي بإنشائها، هل تحمل اسم الوحدة، أو التعارف، أو التعاضد أو...؟ غير أن الشيخ حسن البنا اقترح اسم التقريب لأنه أقرب إلى التعبير عن أهداف الجماعة، وحملت الجماعة والدار اسم التقريب، بناء على اقتراح هذا الشيخ التقى المجاهد، صحيفة البنا تتبنى التقريب، لا بأس أن نذكر أن الشيخ كان مهتماً بأن ينشر في صحيفته ما يقرب بين أهل السنة والشيعة، وكان يتعاون مع دار التقريب في إيصال صوتها إلى السعودية التي حظرت هذا الصوت آنذاك، ولا بأس أن أذكر إحدى ذكريات الشيخ القمي في هذا المجال، بعد حادثة إعدام السيد أبو طالب اليزدي في الحجاز، انقطع سفر الإيرانيين إلى الحج لسنوات، ثم عاد حج الإيرانيين، وعمدت دار التقريب إلى نشر مناسك الحج على المذاهب الخمسة أي مذاهب أهل السنة الأربعة ومذهب الشيعة الإمامية، من أجل إزالة ما علق في الأذهان تجاه الشيعة إثر التشويش الذي حدث بعد إعدام السيد الإيراني وخلال سنوات انقطاع الإيرانيين عن الحج، هذه المناسك توضح بما لا يقبل الشك أن السنة والشيعة متفقان في معظم مناسك الحج إن لم يكن كلها، وما كان بالإمكان إدخال هذه المناسك إلى السعودية لتوزيعها في موسم الحج، لأن التعليقات هناك لم تسمح بذلك آنئذ، ولكن الشيخ حسن البنا وجد الطريق إلى ذلك، فطبع كل هذه المناسك في صحيفته، وأدخلها في موسم الحج إلى السعودية، وتوزعت بين الحجاج وكان لها أبلغ الأثر بين المسلمين، وفي تلك السنة حجَّ الشيخ حسن البنا، والتقى في أيام الحج بالعالم المجاهد آية الله أبو القاسم الكاشاني الزعيم الديني لحركة تأميم النفط في إيران، وبمناسبة الحديث عن الشيخ حسن البنا

يذكر الشيخ القمي ليلة استشهاد البنا (رحمه الله) لقد كان في دار التقريب، وما إن خرج حتى انقطع التيار الكهربائي، وفي وسط الظلام امتدت الأيدي الآثمة لتصفني هذا الداعية الكبير. وقد تكون هذه الأيدي هي التي صفت الشيخ المدني في الكويت ثم الشيخ القمي نفسه في باريس).

معلومة جديدة أضافها آر شيب في دراسته هذه، حيث قال: «كان حسن البنا قبيلاً اغتياه في دار التقريب!! الذي استقر عليه من كتب عن اغتيال حسن البنا، بل والثابت من تحقيقات القضية نفسها أن حسن البنا كان في مقر جمعية «الشبان المسلمين». كان حسن البنا وقت الاغتيال في أزمة طاحنة، فجماعته قتلت رئيس الوزراء «النقراشي» وعلى إثر ذلك قامت الحكومة المصرية باعتقال معظم أعضاء الجماعة، إلا أنها تركت حسن البنا حرًا طليقًا لتساومه على أن يسلمها أسماء أعضاء الجهاز السري الخاص الذي قام بالعديد من أعمال الاغتيالات والإرهاب، وكان حسن البنا يخشى من سطوة أعضاء هذا النظام الذين أفلتوا من الاعتقال، فلو قام بتسليم الأسماء للحكومة فلن يفلت من انتقام هؤلاء الذين حملوا السلاح واستساغوا الاغتيال وشرعوا للقتل، وإذا لم يسلم الأسماء فتهدد الحكومة له قائم، سيتم تقديمه للمحاكمة على رأس المتهمين بقتل النقراشي والتحريض على قتله، وبذلك تنتهي حياته نهاية مأساوية، رجل أراد أن يكون خليفة للمسلمين، سينتهي به الحال مسجوناً في الليمان أو معلقاً على أعواد المشانق بتهمة التحريض على القتل، أفي ظل هذه الأزمة يفكر حسن البنا في الذهاب إلى دار التقريب بين السنة والشيعة؟!!

من أين استقى «تقي القمي» معلوماته في هذا الشأن؟ هل كان البنا في زيارة له وقتها وتم قتله بعد خروجه من اللقاء؟!!

أيا كان الأمر فإن مقتل حسن البنا - الذي يحتاج إلى تحقيق تاريخي دقيق - لم يحمل نهاية للعلاقة بين الإخوان والشيعة بل كان مرحلة جيدة تلتها مراحل أخرى كانت العلاقة فيها بينهما أكثر حميمية من ذي قبل، وقد ظل التأثير والتلاقح الفكري يسير على قدم وساق بينهما خاصة أن سيد قطب قد ترك تأثيراً كبيراً في كتابات العالم الشيعي الكبير محمد باقر الصدر خاصة عندما كتب كتابه «فلسفتنا» وكتابته «اقتصادنا».

بل إن مفاجأة كبرى فجرها الدكتور العلامة إسحاق موسى الحسيني في كتابه - «الإخوان المسلمون.. كبرى الحركات الإسلامية الحديثة» حينما قال (إن بعض الطلاب الشيعة الذين كانوا يدرسون في مصر قد انضموا إلى جماعة الإخوان) قطعاً لم ينضموا إلى جماعة الإخوان بحسب أنها جماعة سنية، أو أنهم تسننوا وتركوا تشيعهم، ولكنهم انتسبوا إليها بحسب أنها حركة إسلامية يستطيعون من خلالها إحداث قدر من التنسيق يذلفون منه إلى تشييع المجتمعات السنية.

وبغض النظر عن هذا فقد ظل حسن البنا ساعياً إلى فكرة التقريب حتى إن مؤرخ الإخوان الأكبر محمود عبد الحليم قال (لو كانت الظروف قد أمهلت حسن البنا لتمّ مزج هذه الطائفة بالطوائف السنية مزجاً عاد على البلاد الإسلامية بأعظم الخيرات)⁽¹⁾.

وفي ذات الصدد يقول جمعة أمين عضو مكتب الإرشاد: «لقد تنبّه المصلحون من المسلمين إلى الأضرار التي تتعرض لها الأمة الإسلامية بسبب

(1) الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ ج 2 ص 357.

هذا الانقسام، فراحوا ينادون بوحدة الصف الإسلامي ونبذ أسباب الفرقة بين أبناء الدين الواحد، وقد تزعم هذه الدعوة في بدايتها الإمام جمال الدين الأفغاني والإمام محمد عبده، ثم أخذت الدعوة شكلاً جماعياً بعد ذلك فنشأت جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية التي شارك فيها الإمام البنا⁽¹⁾.

لم يكن هذا هو رأي الإخوان فحسب، ولا تلك هي نظرهم وهدفهم لمرشدتهم الأول، ولكن كانت تلك النظرة ممتدة إلى المجتمع الشيعي، إذ يقول هادي خسرو شاهي رئيس مركز البحوث الإسلامية ومستشار وزير الخارجية الإيرانية: «كان نشاط حسن البنا ونهضته في المبادئ ومفاهيمها المطروحة في الواقع مكتملاً للتيار الإسلامي السابق له، والذي كان قد بدأه السيد جمال الدين الحسيني المعروف بالأفغاني في أواخر القرن التاسع عشر»⁽²⁾.

واستطرد خسرو شاهي في مقاله قائلاً عن لقاء البنا بآية الله كاشاني (والنقطة الأخرى في هذا الجانب هي لقاء الشيخ حسن البنا مع آية الله كاشاني في زيارة الحج هذه، وبعد إجرائها الحوار قرراً عقد مؤتمر إسلامي في طهران، تشارك فيه شخصيات من العالم الإسلامي كي تتم فيه تقوية العلاقات الودية بين المسلمين أكثر فأكثر)⁽³⁾.

هل هناك أكثر من ذلك؟! نعم، فالإخوان يعتبرون أن منهجهم يتفق

(1) مقال (عليك بالفقه واحذر من الشرك).

(2) مقال بعنوان (نظرة إلى التراث الفكري والاجتماعي للشيخ حسن البنا المؤسس والمرشد للإخوان المسلمين).

(3) المرجع السابق.

مع منهج الشيعة، ليس هذا الكلام من عندياتي، ولا هو تعسف في الفهم وتحوير في الاستدلال، بل هو من كلام الإخوان حرقًا بلا زيادة ولا نقصان، إذ يقول سالم البهنساوي أحد مفكري الإخوان المسلمين (منذ أن تكوّنت جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية والتي ساهم فيها الإمام البنا والإمام القمي والتعاون قائم بين الإخوان المسلمين والشيعة، وقد أدّى ذلك إلى زيارة الإمام نواب صفوي سنة 1954 للقاهرة ولا غرو في ذلك فمنهج الجماعتين تُؤدّي إلى هذا التعاون)⁽¹⁾.

لذلك لم تكن زيارة رئيس إيران إلى مصر في غضون فبراير 2013 مجرد زيارة سياسية هي الأولى من نوعها، ولكنها كانت في المقام الأول زيارة إخوانية شيعية ممتدة، بدأت بزيارة القمي للخميني في مقر الإخوان، وسيحمل المستقبل لهما مفاجآت لن ينساها أحد.

(1) (السُّنَّةُ الْمُفْتَرَى عَلَيْهَا) لسالم البهنساوي ص 57.

الفصل الخامس

مسرح العرائس

(في التراث المصري مثل عامي يقول: «طوبة على طوبة خلي العركة منصوبة» ولهذا المثل قصة، فقد كان هناك بعض اللصوص يريدون سرقة الدواب التي يمتلكها أحد أثرياء قرية من القرى والموجودة في حظيرة ضخمة بجوار داره، فافتعلوا معركة وهمية بينهم أمام هذه الحظيرة، فكان أن بدأ أهل القرية في التدخل لفض المعركة، وخرج الثري من داره هو وأولاده يتغفون كبح جماح الخصومة، وخرج الحراس الذين يحرسون الدواب والماشية يحجزون بين المتعاركين، وفي هذه الأثناء دخل النصف الثاني من اللصوص إلى الحظيرة ليسرقوها، وجعلوا صبيًا لهم يراقب الطريق، وكلما خفت حدة المعركة، ولصوص الحظيرة لم يفرغوا بعد من السرقة، يقوم ذلك الصبي بالنداء قائلاً «طوبة على طوبة خلي العركة منصوبة» حتى تستمر المعركة بين اللصوص الذين في الخارج، فيخلو الجو للصوص الحظيرة، وحين اكتشف أهل القرية هذه الحيلة صارت عبارة الصبي مثلاً).

في غضون شهر إبريل من عام 2009 قامت ملاسنة حادة بين رمزين من

رموز الإخوان، أحدهما يقيم خارج مصر وهو يوسف ندا⁽¹⁾ مسئول قسم الاتصال الخارجي بالجماعة، والثاني محمود غزلان⁽²⁾ عضو مكتب الإرشاد والمتحدث الإعلامي للجماعة، كانت الملاسة ساخنة موجهة ، فيوسف ندا أصدر عدة تصريحات تضمنت إشادة بإيران وثورتها، في ذات الوقت خرج محمود غزلان عن شعوره وكال الاتهامات لندا واعتبره مروجاً للشيعة في مصر، وزاد غزلان بأن قال: إن ما قاله ندا يخرج عن أفكار الجماعة ولا يعبر عنها!! وإن جماعة الإخوان تعادي فكر الشيعة وتترك خطرهم ولا تسمح لهم بالاقتراب من المجتمعات السنية.

كانت تصريحات غزلان الحادة لافتة للنظر، فالرجل ظهر وكأنه لا يعرف شيئاً عن تاريخ الجماعة ولا عن محاولات المرشد الأول في دمج السنة بالشيعة والتي أطلق عليها (التقريب) كما ظهر وكأنه لا يعرف أن البنا ساعد -بجهود متواصلة قبل أن يموت- في إنشاء دار التقريب والتي ترتب على نشاطها صدور الفتاوى بجواز أن يعتنق السني مذهب الإمامية الإثنا عشرية!! هل يمكن أن يكون غزلان جاهلاً بقناعات الجماعة وتوجهاتها وهو الذي يتحدث عنها إعلامياً؟

لفت هذا الصراع الظاهري نظري، ووقع في قلبي أنه خلاف مصنوع،

(1) يوسف ندا رجل أعمال مصري من قيادات الإخوان ولد عام 1931 ومقيم حالياً في كامبيونا الإيطالية وكان رئيساً لبنك التقوى الإخواني وهو مسئول العلاقات الدولية في جماعة الإخوان.

(2) محمود غزلان عضو بمكتب الإرشاد بجماعة الإخوان وزوج أخت خيرت الشاطر نائب مرشد الإخوان ، وهو أحد المتحكمين حالياً في قرارات الإخوان والمتحدث الإعلامي عنها.

وبعد انتخابات مكتب الإرشاد التي تمت في شهر ديسمبر من عام 2009 عرفت أسباب هذا الخلاف المصطنع.

كنا في شهر يناير من عام 2010 وكان معرض القاهرة الدولي للكتاب⁽¹⁾ على وشك أن يعلن عن فاعلياته، وحدث أن تواصل معي الباحث الإسلامي المدقق حسام تمام رحمه الله⁽²⁾، كانت الصداقة قد جمعتنا قبل هذا التاريخ بعدة سنوات، وكان حسام من الباحثين أصحاب «النظر والفراسة» لذلك أصبح محط تقدير من الوسط الصحفي والثقافي والإسلامي في مصر والوطن العربي خاصة وأنه كان قد سافر إلى عدة دول عربية حيث درس فيها واقع الحركات الإسلامية، وكان من الدول التي سافر إليها المغرب وغيرها، ولتعمقه في هذا المجال أنشأ مع آخرين من دول عربية متفرقة موقعًا على شبكة الإنترنت متخصصًا في مجال الحركات الإسلامية في العالم كله، والحق أن الحوارات التي دارت بيننا من قبل كانت متعلقة بتأثير شباب الإخوان بالتيار السلفي، وكان تمام على علاقة وثيقة برموز الحركة السلفية في مصر وقد أتاح لهم الفرصة في التعبير عن أنفسهم في موقع «إسلام أون لاين» الذي كان يترأس

(1) هو المعرض الشهير للكتاب، ينعقد في شهر يناير من كل عام في أرض المعارض بمدينة نصر بالقاهرة.

(2) يعد حسام تمام مؤسس أول مرصد متخصص لدراسة الحركات الإسلامية، وشغل منصب مدير تحرير قطاع الحركات الإسلامية بموقع إسلام أون لاين، وبدأ عمله الصحفي بجريدة آفاق عربية، ثم انتقل إلى جريدة «القاهرة» ثم الأحرار، له عدة كتب وترجمات في الحركات الإسلامية، وكان محاضرًا في جامعة زيورخ، وساهم في العديد من الإصدارات المتخصصة في الشرق الأوسط، بالتعاون مع مركز الثقافة الفرنسي وعدد من الجهات البحثية الأوروبية، من أهم دراساته تسلف الإخوان، و«تعريف الإخوان» أي تأثيرهم في الأوساط الريفية التي يسود فيها الفقر والجهل، وكتابه الأشهر «تحولات الإخوان المسلمين» توفي بعد صراع طويل مع مرض السرطان يوم 26 أكتوبر عام 2011 عن ثمانية وثلاثين عامًا.

أحد أقسامه، ثم بعد أن شجر الخلاف بين العاملين في هذا الموقع وإدارته، أنشأ حسام موقعاً اسمه «أون إسلام» كان منبراً لكثير من الناشطين في مجال الحركات الإسلامية.

قبل أن يبدأ معرض الكتاب في هذا العام جاء حسام تمام من محافظة الإسكندرية إلى القاهرة ليرتب مع دار النشر التي تنشر كتبه «دار الشروق» أمر توزيع وبيع كتابه «تحولات الإخوان المسلمين» في معرض الكتاب، وكعادته عندما يأتي إلى القاهرة اتصل بي حيث حددنا موعداً للمقابلة في مكتبي، أخذنا الحديث في مناحي مختلفة وكان من الموضوعات التي طرحناها أن نشترك معاً في إصدار كتاب عن قضايا الإخوان المسلمين، تحليلًا لها وتوثيقًا لأحداثها، كان أمر قضايا الإخوان وتوثيقها هو المشروع الفكري والتاريخي الذي أراد حسام تمام إتمامه، وكان مما تحدثنا فيه أننا نحتاج إلى إعادة قراءة هذه القضايا مرة أخرى، خاصة أن الإخوان عندما كتبوا عنها كانت أفكارهم غير محايدة على الإطلاق⁽¹⁾.

كانت القضية الأولى التي رأينا أن نكتب عنها هي قضية «اغتيال حسن البنا» حيث كانت أوراق هذه القضية بالكامل عندي، وكانت الشكوك التي تحدثنا فيها تدور حول ضلوع النظام الخاص في قتل حسن البنا، خاصة أن حسن البنا نفسه وفقاً لشهادة الوزير «مصطفى مرعي»⁽²⁾ أبدى تخوفه من أن يقوم النظام الخاص باغتياله.

(1) لم يتم هذا المشروع إذ داهم المرض حسام تمام فتعطلنا عن إتمامه.

(2) مصطفى مرعي كان أحد أكبر رجال القانون في مصر، وكان هو وقتها الوزير الذي يتفاوض مع حسن البنا من أجل أن يسلم حسن البنا للحكومة أسماء أفراد النظام الخاص.

وقبل أن ينتهي الحوار بيتنا سألني حسام عن الخلاف الذي كان قد نشب بين الإخوان بسبب الشيعة: هل لديك تحليل لهذا الخلاف، فأنبأته أنه خلاف محير خاصة أن يوسف ندا من أعمدة الإخوان القديمة ومحمود غزلان هو المتحدث الإعلامي وقطعاً فإن غزلان يعرف خطوات التقريب التي كان يقوم بها البناء مع الشيعة، ولذلك فإن هذا الخلاف يبدو محيراً نوعاً ما.

قال حسام: ليس محيراً، الخلاف ينبئ عن طبيعته.

استفهمته: كيف؟

حسام: أنا لذي معلومات مؤكدة عن تقارب بين الإخوان والسلفيين، جلس محمود عزت⁽¹⁾ مع ياسر برهامي القيادي الكبير في الحركة السلفية بالإسكندرية وتحدثا عن كيفية التقارب بينهما كحركتين كبيرتين، وكان جواب برهامي أن الحركة السلفية تأخذ على الإخوان عدة أشياء منها موقفها المتقارب مع الشيعة، والأمر الثاني هو وجود بعض شخصيات إخوانية في موقع القيادة مثل الدكتور عبد المنعم أبو الفتوح عضو مكتب الإرشاد والدكتور محمد حبيب نائب المرشد، وهذه الشخصيات لديها أفكار متساهلة تخالف الشريعة مثل رأيهم عن التقارب مع الشيعة، ورأيهم في جواز ولاية الأقباط والمرأة، في هذه الجلسة التي تمت منذ عام تقريباً أبدى محمود عزت وعداً بتصحيح موقف الإخوان من هذين الأمرين؛ لذلك افعل

(1) محمود عزت هو عضو مكتب الإرشاد لجماعة الإخوان وهو من رموز التيار القطبي في الجماعة ويشغل حالياً موقع نائب المرشد.

الإخوان مشكلة الشيعة لتكون تصريحات غزلان بلسًا شافيًا على قلوب السلفيين، ومن بعدها كتب جمعة أمين - عضو مكتب الإرشاد عن مدينة الإسكندرية - مقالًا حدد فيه موقف الإخوان من الشيعة كان حريصًا فيه على إدانة أفكار الشيعة العقائدية، وأخيرًا كما تعلم تم إسقاط أبو الفتوح وحبيب والإطاحة بهما من عضوية مكتب الإرشاد، هل تعلم ما حدث بعدها؟ أدلى عبد المنعم الشحات القطب السلفي في الإسكندرية بتصريح لبعض المواقع الإسلامية بأن جماعة الإخوان بخروج أبو الفتوح وحبيب اقتربت من الدعوة السلفية!

قلت: قرأت هذا التصريح، والصورة عندي كانت قريبة مما تقول إلا أنني كانت تنقصني المعلومات.

انتهى حوارى مع حسام تمام، رحمه الله، واتضحت الصورة الكاملة، الخلاف بين الإخوان حول الشيعة لم يكن خلافًا حقيقيًا ولكنه كان وسيلة إخوانية «لجر رجل» الحركة السلفية في مصر كي تتفق سياسيًا مع الإخوان، الإخوان لا يزالون على رأيهم بخصوص الشيعة والتقريب معهم، ولكن للسياسة ضرورات.



عندما نتوغل في تاريخ جماعة الإخوان المسلمين وعلاقتهم بالشيعة، نجد أن حسن البنا في مراحله الأولى قد وقع في هوى الشخصية الشيعية الشهيرة جمال الدين الأسد آبادي «الشهير بجمال الدين الأفغاني» فضلًا عن علاقاته

المتعددة بكثير من مراجع الشيعة، وأبرزهم آية الله سيد أبو القاسم كاشاني. وعندما نقرأ أفكار البنا ومواقفه نجده قد تأثر بكثير من أفكار الشيعة، وكان حسن البناء ولا يزال محل إعجاب وتقدير كبيرين من علماء الشيعة بل من عموم الشيعة خاصة «الإمامية الإثنا عشرية» وقد كتب الدكتور العلامة إسحاق موسى الحسيني الذي كان عضواً بمجمع اللغة العربية بالقاهرة إلى أن توفاه الله عام 1990، وكان أيضاً عضواً بالمجمع العلمي العراقي، فضلاً عن عضويته لمجمع البحوث الإسلامية، كتب هذا العالم الكبير في كتابه الشهير (الإخوان المسلمون كبرى الحركات الإسلامية الحديثة) أن الود كان متبادلاً بين الإخوان والشيعة، بل إن الشيعة كانوا يعتبرون الإخوان فرعاً من فروعهم ومتحدثاً بلسانهم وسط الأمة السنية، وكان مما قاله في هذا الصدد (إن بعض الطلاب الشيعة الذين كانوا يدرسون في مصر قد انضموا إلى جماعة الإخوان، ومن المعروف أن صفوف الإخوان المسلمين في العراق كانت تضم الكثير من الشيعة الإمامية الإثنا عشرية، وعندما زار «نواب صفوي»⁽¹⁾ سوريا وقابل الدكتور «مصطفى السباعي» المراقب العام للإخوان المسلمين هناك، اشتكى إليه الأخير أن بعض شباب الشيعة ينضمون إلى الحركات العلمانية والقومية، فصعد نواب إلى أحد المنابر وقال

(1) هو السيد مجتبی میرلوحی، معروف بنواب صفوي، رجل دين شيعي ولد عام 1924 وتزعم حركة شيعية اسمها فدائيان اسلام - وكان قد التقى سيد قطب وتأثر به وزار الإخوان في مصر عام 1954 وألقى خطبة في جامعة القاهرة تحت إشراف ورعاية الإخوان، وبعد محاولة اغتيال رئيس وزراء إيران «حسين علاء» صدر حكم بإعدامه، وتوسط الإخوان لمنع تنفيذ الحكم ولكنه أعدم عام 1956.

أمام حشد من الشبان الشيعة والسنة: «من أراد أن يكون جعفرًا حقيقيًا فلي انضم إلى صفوف الإخوان المسلمين».

و حين أسس المرجع الديني الشيعي محمد باقر الصدر في العراق (حزب الدعوة) الشيعي، وهو أحد أكبر الأحزاب الشيعية في العراق، رأى أن يدخل في تحالف واضح مع (الحزب الإسلامي العراقي) السني، وقد كان الحزب الإسلامي هذا هو الذراع السياسية لجماعة الإخوان في العراق، ثم دخل حزب باقر الصدر الشيعي مع الحزب الإخواني في تحالف بعد ذلك حتى إن كثيرًا من المؤرخين قالوا إنها كانا في حالة وحدة.

وعلى صعيد آخر لم تكن بعض الرموز الإسلامية مثل أبو الحسن الندوي وأبو الأعلى المودودي، وهما من أكثر المفكرين تأثيراً على فكر جماعة الإخوان المسلمين بعد الشيخ البنا، خارج هذا السياق، كان الهم الذي جمع مشاعر المودودي والندوي هو ذلك التفرق بين طوائف المسلمين في الهند في الوقت الذي كانت الأكثرية الهندوسية كياناً واحداً، شعر هذان الرجلان بالحاجة الملحة إلى وحدة مسلمي الهند بمختلف طوائفهم السنية والشيعة الإمامية وحتى البهرة الإسماعيلية، وكانت أفكار حسن البنا ذات تأثير كبير في هذين العالمين، خاصة فكرته عن التقريب بين الطوائف الإسلامية المختلفة، والغريب أن المودودي بالذات كان صاحب تأثير كبير فيما بعد على سيد قطب، وكذلك كان الندوي، وكان المودودي قد صنع لنفسه قواماً علمياً خاصاً به حتى صار صاحب مشروع فكري.

والبادي من فكر سيد قطب «الصانع الثاني للمنظومة الفكرية للإخوان» أنه تأثر بهذين المفكرين، حتى إنه كتب مقدمة للترجمة العربية لكتاب الندوي: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» ومن المعروف وفقاً لتراث الندوي أنه كان يمجّد، إلى درجة تقترب من التقديس، سلالة آل البيت إلى الحد الذي كان يقربه من الشيعة الإمامية، أما فكرة «الحكومة الإسلامية» التي كانت ماثلة في فكر المودودي فقد تأثر بها سيد قطب وأخذ منها مشروعه الفكري وتلقى منه فكرة «الحاكمية» فضلاً عن تأثره، قطب، بكتاب المودودي «المصطلحات الأربعة».

وفي ذات الوقت تجد أن الإمام الخميني مرشد الثورة الإيرانية وضع كتاباً تحت عنوان «الحكومة الإسلامية» وضح من خلاله تأثره بفكر سيد قطب والمودودي، وقد كان كتاب الخميني هذا حاضراً بقوة في المشهد الإسلامي الإخواني المصري إبان فترة السبعينيات، وأذكر حينما كنا طلبة بالجامعة وفي غضون عام 1979 أنه انتشر بين طلاب الإخوان المسلمين كتاب (الحكومة الإسلامية) للخميني، وكان الأستاذ مصطفى مشهور وقتها يقوم بتدريس هذا الكتاب للطلاب في المعسكرات الإسلامية، وأذكر أنني حضرت أحد هذه المعسكرات في مدينة رأس البر، وكان هذا المعسكر قد نظّمته الجماعة الإسلامية، لسان حال الإخوان في الجامعات، وكان بعض شيوخ الإخوان الكبار يلقون محاضراتهم في الأمسيات، وفي الليلة الأولى للمخيم قامت إدارة المعسكر بتوزيع كتيب «الحكومة الإسلامية» للخميني علينا، وبعد أن تسلم كل واحد منا نسخته من ذلك الكتيب طلب منا المشرف على المعسكر

الأخ «زياد عبد الخالق السوري»، وكان من الطلبة السوريين الذين يدرسون في جامعة عين شمس وكان يمت بصلة قرابة لمصطفى السباعي الذي كان مسئولاً عن الإخوان في سوريا، طلب منا أن نقرأ هذا الكتيب بإمعان حيث إن أحد الرموز الإسلامية سيلقي علينا محاضرة عنه في المساء، لم نخبرنا الأخ باسم هذا الرمز الأمر الذي جعلنا نتشوق للمحاضرة فانكب كل واحد منا على كتيب «الخميني» نقرؤه حتى كدت أن أحفظ سطره.

وفي المساء كانت المفاجأة، الحاج مصطفى مشهور عضو مكتب الإرشاد هو المحاضر، جاء إلى المعسكر في سيارة «فيات» قديمة بيضاء اللون، وكان يقود السيارة شاب كث اللحية أسمر اللون، وكان برفقة الحاج مصطفى رجل في نهاية العقد السادس من عمره عرفت يومها أن اسمه «الحاج أحمد حسنين» وأنه كان أحد الأعضاء الكبار في مكتب الإرشاد وأحد قيادات النظام الخاص بالجماعة، وكانت هذه أول مرة أعرف فيها هذا الرجل الذي كان معروفاً في الجماعة «بالرجل الصامت»!

وبعد صلاة العشاء قام الحاج مصطفى مشهور بإلقاء درس علينا قارن فيه بين كتيب الخميني «الحكومة الإسلامية» وكتاب «معالم في الطريق»، ثم عرج في محاضراته على فكرة الحكومة الإسلامية التي تمثل المشروع الأكبر في فكر المودودي، وعقد مشهور مقارنة بين تلك الكتب، وقال وقتها إن الخميني تأثر بالبنا، لأن البنا كتب في رسائله عن الحكومة الإسلامية، واستطرد مشهور في محاضراته شارحاً نقاط التقاء الخميني مع البنا، فقرأ فقرات من رسالة البنا «دعوتنا» التي تحدث فيها البنا عن أن الإيمان مخدر في قلوب المسلمين ولكنه

يقظ متبته في قلوب الإخوان، ثم قرأ فقرات من كتاب آخر للخميني عنوانه «جهاد النفس» يقول فيه الخميني مخاطبًا عموم المسلمين: إلى متى يتملككم السبات والغفلة، استيقظوا من نومكم واجعلوا إيمانكم يقظًا متبهاً.

وفي ختام محاضراته تحدث عن تقارب فكر الخميني بفكر سيد قطب فقال وهو يمازج بينهما: «إن هذا الكتاب وكتاب قطب معالم في الطريق يخرجان من مشكاة واحدة».



إذا أردنا أن نتابع مدى التلاقح بين الشيعة والإخوان، سنجد أن إيران بعد الثورة الشيعية كانت من أكثر الدول التي ذهبت إليها آلاف النسخ من كتاب سيد قطب «في ظلال القرآن» ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي ذهب فيها معالم في الطريق إلى إيران وهو بحث الخطي، بل كان قد ذهب إليها بعد عام 1966 عندما تم طباعة الكتاب في بيروت، وكان لهذا الكتاب رواج كبير وسط أهل الشيعة، بحيث لم يعرف أحد كتابًا صادرًا من كاتب سني لقي هذا الانتشار والشعبية في دولة شيعية مثل هذا الكتاب.

والباحث الأريب سيجد أن الخميني في فكرته عن ولاية الفقيه، وفي كتابه «الحكومة الإسلامية» قد تأثر بفكرة الحاكمية عند سيد قطب، وفي عام 1966 ترجم السيد علي الخامنئي قائد الجمهورية الإيرانية، تلميذ الخميني والذي كان أيضًا تلميذًا نجيبًا لنواب صفوي الذي كان معروفًا بصلاته الوثيقة بالإخوان، ترجم خامنئي للفارسية كتاب سيد قطب «المستقبل لهذا

الدين» ومن فرط تأثر خامنتي بقطب كتب مقدمة للترجمة تقطر بالمشاعر الجياشة وصف فيها سيد قطب بالمفكر المجاهد، وكان النظام المصري قد أعدم قطب عامها بتهمة تشكيل تنظيم يستهدف اغتيال جمال عبد الناصر وقلب نظام الحكم بالقوة، وهو الأمر الذي اعترف به قطب في رسالة كتبها قبل شنقه بعنوان لماذا أعدموني، وقال خامنتي في مقدمته لهذا الكتاب «بهذا الكتاب في فصوله المبوبة تبويبا ابتكاريا أن يعطي أولاً صورة حقيقية للدين، وبعد أن بين أن الدين منهج حياة، وأن طقوسه لا تكون مجدية إلا إذا كانت معبرة عن حقائقه، أثبت بأسلوب رائع ونظرة موضوعية أن العالم سيتجه نحو رسالتنا وأن المستقبل لهذا الدين».

ظلت العلاقة بين الإخوان والشيعة تظللها الروابط الوشيعة، وظل الود متصلاً من الناحية الفكرية فضلاً عن الإعجاب المتبادل، حتى أن الإخوان شكّلوا وفداً تقابل مع الخميني في باريس قبل الثورة، وكان ذلك في غضون عام 1978 وفقاً لما قاله يوسف ندا في برنامج «شاهد على العصر» في قناة الجزيرة، وبعد وصول الخميني للسلطة في إيران عام 1979 كانت من أوائل الطائرات التي وصلت مطار طهران واحدة تحمل وفداً يمثل قيادة التنظيم الدولي للإخوان المسلمين، وكان يوسف ندا القطب الإخواني الكبير والمشرف وقتها على أموال الجماعة وعلى قسم الاتصال بالعالم الخارجي فيها هو أحد الشخصيات الرئيسية في هذه الطائرة رغم أنه أنكر وجوده في هذا الوفد، إلا أن الأستاذ عباس السيسي كان قد ذكر لي في اللقاء الذي جمعنا بمقر الإخوان بشارع سوق التوفيقية والذي كتبت تفصيلاته في الفصل الأول،

أن يوسف ندا كان على رأس الوفد الأول وكان معه الأستاذان جابر رزق المصري، وغالب همت السوري، وبعض ممثلي الإخوان عن دول متفرقة، وكان تشكيل الوفد بأوامر صدرت من الأستاذ عمر التلمساني، ويبدو أن هذا التكليف من الأستاذ عمر التلمساني كانت له أسبابه، ففي هذه الفترة في مصر كان الخلاف قد بدأ يستحكم بين الرئيس الراحل أنور السادات والإخوان، وأخذ الرئيس يتحدث عن انفلاتات الإخوان واستغراقهم في ممارسة العمل السياسي، كما أن اشتتافاة السادات لشاه إيران المخلوع لكي يقيم في مصر أحدثت خصومة بينه، أي السادات، وبين الحركة الإسلامية على عمومها، وكان السادات يعلم علم اليقين أن مفتاح الحركة الإسلامية قابع في مقر الإخوان بحيث كان في إمكان الإخوان تحريك الجامعات ضده، خاصة أن الجماعة الإسلامية بالجامعة، لسان حال الإخوان، وقتها كانت في أوج شعبيتها وفي عنفوان قوتها وكانت تستطيع تحريك الجامعات كلها ضد النظام الحاكم وتوجهاته، فكان أن بدأ السادات يضيق على الإخوان فأصدر عام 1979 لائحة تحكم انتخابات اتحاد الطلبة بالجامعة، وكان الهدف من هذه اللائحة هو «قص ريش» الجماعة ومنعهم من تصدر العمل الطلابي.

كانت كل هذه الأشياء في خاطر الأستاذ عمر التلمساني، عندما أوفد وفوده إلى طهران لتقابل الخميني، لذلك كان لابد أن يكون يوسف ندا، مسئول الاتصال الدولي بالجماعة، على قمة هذا الوفد، فقد كان مكلفاً بمهمة خطيرة قد تصنع تاريخاً جديداً للمنطقة.

طرح الوفد الإخواني على الخميني فكرة أن تبايعه الجماعة بكافة فروعها

الدولية في كل العالم على أن يكون خليفة للمسلمين، ولكنها اشترطت على ذلك شرطاً هو أن يصدر بياناً يقول فيه «إن الخلاف على الإمامة في زمن الصحابة مسألة سياسية وليست إيمانية» ولكن الخميني لم يرد عليهم وقتها، وعندما صدر الدستور الإيراني كان الأمر بمثابة مفاجأة للإخوان - وفق ما قال يوسف ندا في حوار مع قناة الجزيرة برنامج شاهد على العصر - إذ نص الدستور الإيراني على أن «المذهب الجعفري هو المذهب الرسمي للدولة وبولاية الفقيه نائباً عن الامام الغائب».

كانت هذه المادة في الدستور هي الإجابة على طلب الإخوان، فالخميني بهذه المادة قال لهم إن الخلاف لم يكن سياسياً أبداً ولكنه كان عقائدياً، فإن قبلوه خليفة للمسلمين بمذهبه فأهلاً وسهلاً، ومع هذا كان الإخوان في مصر مستمرين على تأييد الخميني وثورته، بحيث تحولت مجلة الدعوة لسان حال الإخوان إلى منبر من منابر الدفاع عن الثورة الإيرانية، وفي سبيل هذا الدفاع غضت الجماعة الطرف عن الاعتقالات وأحكام الإعدام التي صدرت في حق العشرات من أهل السنة بإيران، لم يتألم الإخوان من أجل إخوانهم من السنة، ولم ير مش لهم جفن للقمع الذي حدث لهم، بل إن مجلات الإخوان ونشراهم ودعاتهم سكتوا عن هذا الأمر وساهموا في إلقاءه داخل جب سحيق من النسيان وكأن الأمر لا يعنيه، غاية ما قاله الأخ يوسف ندا في برنامج قناة الجزيرة شاهد على العصر بتاريخ 2005 / 1 / 10 إن هذا الأمر المتعلق بالاعتقالات والإعدامات مؤلم إلا أنه طبيعي إذ «لكل ثورة أخطاء».

كان الإخوان يدافعون دائماً عن إيران الشيعية وثورتها الخominية، حتى أنهم، وفقاً ليوسف ندا في برنامج الجزيرة شاهد على العصر بتاريخ 2005 / 1 / 10 حاولوا حل مشكلة الرهائن الأمريكيين في إيران، وبذلك كان الإخوان يمسون العصا من المنتصف، فقام السفير الأمريكي في مصر بزيارة المرشد الأستاذ التلمساني وكلمه في هذا الأمر وأبدى المرشد استعداداه للتدخل في هذه المشكلة وحلها، وأعطاه السفير رقم هاتف البيت الأبيض، ويقول يوسف ندا في البرنامج المشار إليه آنفاً «اتصلت بالبيت الأبيض وكان المرشد بجواري وأخبرتهم أنني أمثل جماعة الإخوان وأريد الحديث مع الرئيس الأمريكي، فأخذوا رقم هاتفي ووعدوني بالاتصال ولكن أحداً لم يتصل بي».

كان الإخوان يريدون أن تكون لهم يد على الخميني وعلى الأمريكيين في ذات الوقت، ولكن خاب سعيهم وفشلوا في مسعاهم، إلا أن هذا لم يفت في عضدهم وظل الإخوان يدافعون عن الخميني وثورته حتى أن المرشد الأستاذ التلمساني قال بتاريخ 16 / 2 / 1984 لمجلة «كرسنت» وهي مجلة كندية إسلامية «لأعرف أحداً من الإخوان المسلمين في العالم يهاجم إيران».

وعند وفاة الخميني عام 1989 أصدر المرشد العام للإخوان حامد أبو النصر، نعيًا يقطر حزنًا قال فيه: «الإخوان المسلمون يحتسبون عند الله فقيد الإسلام الإمام الخميني، القائد الذي فجّر الثورة الإسلامية ضد الطغاة».

كانت وفاة الخميني نكبة للشيعة وللإخوان المسلمين، فالخميني، وفقاً لما قاله لهم، تأثر بحسن البنا حتى أنه أطلق على نفسه لقب المرشد اقتداءً بحسن البنا، وفي هذا يقول أحد أكبر الشيعة في مصر، وهو أيضاً أحد الأعضاء القدامى في جماعة الإخوان، المستشار الدمرداش العقالي (وأعود لأقول إن حسن البنا كان داعياً إلى التقريب وأذكر في هذا الخصوص أن الثورة الإسلامية الإيرانية بقيادة الإمام آية الله روح الخميني، حفظت للإمام حسن البنا هذه السابقة والنظرة النافذة، فاستخدمت صفته التي بدأ بها حياته وهي كلمة مرشد، وحسن البنا هو أول من تسمى بكلمة مرشد حيث كان يطلق عليه المرشد العام للإخوان المسلمين، يجهل الناس أن الإمام الخميني ترك جميع المسميات الحوزية في حوزيات الشيعة مثل كلمتي المرجع والغاية وحرص على كلمة مرشد الثورة تيمناً بالإمام البنا، وقال لي من أثق في صدقه من حول الإمام الخميني أنه رفض أن يُسمى «المرشد العام» وقال فليبق العام حقاً لأول من أحيى الروح الإسلامية في مصر في القرن العشرين - حسن البنا - وأطلقوا اسمه على ساحة ضخمة في طهران، ساحة الإمام الشهيد حسن البنا، وليس هذا من فراغ ومن يحاولون أن يصوروا أن دعاة الإسلام الصحيح سنة وشيعة يمكن أن يفترقوا إننا هم واهمون، لأن من يفترقون هم الدعاة الكذبة، سنوء للتسنن أو للتشیع، ولو أخلص الناس دينهم لله لاقترب التسنن من التشيع والعكس)⁽¹⁾.

(1) الدمرداش العقالي صحيفة الوطن الكويتية 27/11/2007.

لم تكن وفاة الخميني هي نهاية العهد الذي بينهما، ولكنها كانت بمثابة انتقال إلى «طور» آخر من العلاقة، ففي عهد علي الخامنئي الذي أصبح «مرشدًا» في مرحلة ما بعد وفاة الخميني، أصبحت كتب سيد قطب تدرس في مدارس الإعداد العقائدي لـ (الحرس الثوري الإيراني) كما برز نفوذ لمرجعيات دينية مثل «آية الله محمد تقي مصباح يزدي» وهو الأستاذ الروحي لأحمدي نجاد والذي أصدر العديد من الفتاوى التي أثارت جدلاً وكان منها وجوب انتخاب أحمدي نجاد وتحريم انتخاب من ينافسه، وهي فتوى شبيهة بالفتوى التي أصدرها بعض دعاة الإخوان أثناء انتخابات الرئاسة المصرية إذ أفتوا بوجوب انتخاب محمد مرسي وتحريم انتخاب أي منافس له، وتكمن أهمية مصباح يزدي في أنه أحد أكبر المعجبين بسيد قطب وكتبه، ويشار إلى مصباح يزدي بحسبه أحد أكبر الفلاسفة الإيرانيين في العصر الحديث، ولذلك كان منطلقه في إعجابه بقطب من زاوية الحاكمية وجاهلية المجتمعات.



لم يكن الغزل بينهما من طرف واحد، فالإخوان لا يضيعون فرصة إلا وتغزلوا فيها بإيران وسياستها، وكذلك كانت إيران تفعل، ففي موضوع محطات (البرنامج النووي الإيراني) المستأنف تخصيبه والذي يثير حالة قلق في المجتمع الدولي، وقف الإخوان بكل قوة للدفاع عن إيران، يقدمون لها المبررات، وكأنها لا تمثل أي وجه من أوجه الخطورة على المنطقة، أو كأن إيران

دولة من الحمايم لا تسعى إلى التوسع على حساب منطقة الخليج كلها، حتى أن مهدي عاكف مرشد الجماعة أدلى بتصريح في جريدة النهار الكويتية عن البرنامج النووي الإيراني، وهل يؤثر على أمن الخليج قائلاً: «هذا البرنامج من حقهم، حتى ولو كان قبلة نووية فهذا حقهم».

وقال أيضاً: «وفياً يخص المد الشيوعي أرى أنه لا مانع في ذلك، فعندنا 56 دولة في منظمة المؤتمر الإسلامي سنية، فلماذا التخوف من إيران وهي الدولة الوحيدة في العالم الشيعية».

يُفصح مهدي عاكف هنا عن الضمير المستتر في الجماعة، ضميرها الذي لا يرى غضاضة في أن يمارس الشيعة نشاطاً يستهدف نشر مذاهب الطوائف الشيعية وسط أهل السنة، ولم لا والمرشد الأول حسن البنا استطاع أن يقدم الشيخ الشيعي «محمد تقي القمي» للشيخ محمود شلتوت الذي أصبح فيما بعد شيخاً للأزهر، ولم لا والشيخ شلتوت أصدر فتواه بجواز أن يتعبد أهل السنة لله من خلال مذهب الإمامية الإثنا عشرية الشيعي مع ما فيه من مآخذ عقائدية أبسطها القول بعصمة الأئمة وكونهم في مرتبة تلي مرتبة النبوة، إذ تؤمن فرق الشيعة بوجود إمام يرث العلم عن سيدنا محمد ﷺ، هذا الإمام هو المستول في عقيدتهم عن قيادة الأمة كلها بتكليف ليس من أحد من بني البشر. ولكن تكليفه هنا من الله عز وجل مباشرة، ومن أصول عقيدتهم التي ليس فيها تفريط أن هذا الإمام يكون معصوماً عن الخطأ، منزهاً، لا يأتيه الباطل ولا يقترب منه قيد أنملة، هو أعلى من كل البشر، بل أعلى من الأنبياء سوى الرسول ﷺ، ومن أجل أنه معصوم وهو الذي يقوم بتبليغ الأمة دينها

فإن هذا يقتضي استمرار الوحي وفقاً لبعض مذاهبيهم، وفي مذهب الإمامية يقولون إن الأئمة منحهم الله سبحانه علماً لدنياً مثل العلم الذي كان عند رسول الله ﷺ، ويُختار الإمام من قبل الله عز وجل لا بواسطة الناس، ويوصي كل إمام بالإمام الذي يليه، والأئمة بعد النبي صلى الله عليه وآله اثنا عشر من أهل بيته، أولهم سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وآخرهم الإمام المهدي المنتظر محمد بن الحسن العسكري، وهو باق منذ ولادته إلى يومنا هذا غير أنه اختفى عندما دخل في سرداب.

لا يجد الإخوان غضاضة في أن يتشر هذا المذهب الشيعي بين أهل السنة وفقاً لمرشدهم مهدي عاكف، خاصة أنهم أعطوا، أي الإخوان، لحسن البناء منزلة شبيهة بمنزلة الإمام المعصوم، حسن البناء عندهم إمام ملهم لم يقع في خطأ في حياته قط، كما قال نجله أحمد سيف الإسلام حسن البناء في حوار له بجريدة المصري اليوم في يونيو من عام 2011، ونفس القول تجده يتردد في أدبيات الإخوان، بل إن هذه الجماعة احتفت بتاريخ البناء ورسائله وحياته وحركاته وسكناته، ولم تحتف بالرسول ﷺ ولو بمقدار العشر!

فكرة الإمامية إذن ليست غائبة عن فكر الإخوان، حتى إنهم أطلقوا على البناء لقب الإمام وهو في منتصف العقد الثالث من عمره! وكان قرب البناء من الشيعة هو الذي جعله يرى الإمامة في نفسه، ويرى العصمة في عمله، وتسرب هذا الفكر إلى جماعة الإخوان حتى أصبحت وكأنها أحد أفرع الشيعة وسط المجتمعات السنية، ورغم أن حرب جنوب لبنان عام 2006 كانت خاصة ببلد عربي وهو أمر يهم كل العرب، فإن اقتراب الإخوان

من حزب الله، واقترب حزب الله من حماس الذراع العسكرية للإخوان، جعل تأييد الإخوان لحزب الله في هذه الحرب يدخل في نطاق «التمازج بين الاثنين» فقد كان تأييد جماعة الإخوان المسلمين لحزب الله أكثر من صريح، كان دعمها لهم ليس خافياً على أحد، للدرجة التي جعلت مرشد الإخوان وقتها، مهدي عاكف، يقول في مؤتمر صحفي عقده في نقابة الصحفيين «إن الإخوان على استعداد أن يرسلوا أكثر من عشرة آلاف مقاتل لكي يقاتلوا مع حزب الله في جنوب لبنان!» وبهذا التصريح تكون جماعة الإخوان قد خرجت عن تحفظها وأظهرت أن لها كتائب تستطيع القتال بها بجانب حزب الله! وحين ظن البعض أن عبارة مهدي عاكف مرشد الإخوان، هي فلتة من فلتات اللسان، أطلقها دون أن يدري أثرها، خرج علينا عصام العريان أحد المفكرين الكبار في الجماعة الإخوانية على قناة المنار اللبنانية الشيعية ليقول: «باستطاعة الإخوان إرسال أكثر من مائة ألف مقاتل للوقوف كتفًا بكتف مع إخوانهم في حزب الله».

وعلى نفس الوتيرة قال مهدي عاكف لقناة الجزيرة، برنامج الحوار المفتوح، بتاريخ 2004 / 3 / 6 وهو يتحدث مع المذيع «غسان بن جدو» عن الشيعة: يا سيدي الكريم الشيعة والسنة أمة واحدة، قبلتها واحدة، دينها واحد، صلاتها واحدة، حجها واحد، على ماذا نختلف؟ ثم أردف قائلاً: ثقافة الإسلام حينما تُربي المسلم إنما تربيته ليعبد الله ويأخذ طريقه إلى الجنة، والإخوان المسلمون والحمد لله موقفهم في هذا واضح حينما يربون الشخص المسلم على هذا الفهم الإسلامي الجامع الذي لا يفرق بين مسلم،

كل من قال لا اله إلا الله فهو مسلم ويتبع المذهب الذي يطمئن قلبه إليه، فالمذاهب السُّنَّية والمذاهب الشيعية كلها مذاهب معتبرة تقود إلى الجنة إن شاء الله حينما يحترمها الإنسان، وأنا من وجهة نظري أن هذا الذي يحدث الآن على الساحة العربية والإسلامية إنما نتيجة للجهل، ونتيجة لخلو الثقافة الإسلامية والعربية من المقاصد الحقيقية لهذا الدين.

وفي نفس البرنامج قال الدكتور يوسف القرضاوي: منذ عشرات السنين بدأت دار التقريب بين المذاهب الإسلامية في مدينة القاهرة وكان فيها من أكابر العلماء الشيخ عبد المجيد سليم والشيخ محمود شلتوت والشيخ عبد العزيز عيسى والشيخ محمد المدني، وكان معهم الشيخ حسن البنا وكان الشيخ تقي الدين القمي يذهب إلى المركز العام للإخوان المسلمين ويستقبله الشيخ حسن البنا المرشد الأول، وكانت قاعدتهم هي القاعدة الذهبية التي أقامها الشيخ رشيد رضا رحمه الله وتبناها الشيخ حسن البنا، نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه، التقريب حدث منذ زمن بعيد وأنا أذكر أننا استقبلنا السيد نواب صفوي رئيس جمعية فدائيان إسلام في المركز العام واستقبلناه في جامعة القاهرة في احتفال ضخم كبير، وكان من الأسباب التي أدت إلى حل الإخوان المسلمين وحدث بينهم وبين رجال الثورة فيما بعد، المبادرات يعني من قديمة ويجب أن تستمر لا يجوز أن نئش أبداً من جمع كلمة الأمة وكما قال الأستاذ عاكف لماذا لا تجتمع هذه الأمة؟ وما الذي يفرق بينها، وربها واحد وكتابها واحد ورسولها واحد وعقيدتها واحدة وقبلتها واحدة، كل شيء يُجمع هذه الأمة ولكن أعداء هذه الأمة

هم الذين يحاولون تشتيت كلمتها وتفريق صفوفها، حتى لا يلتئم لها جمع ولا تجتمع لها كلمة، ويجب أن نكون أقوى من هذه المكاييد وأن نعلو عليها ونجمع كلمة الأمة وخصوصًا في هذه الأوقات العصيبة.

وكان لا بد أن ترد إيران الهدية للإخوان، فبعد قيام الثورة المصرية الحديثة وقبل أسبوع من سقوط مبارك، وقف السيد علي خامنئي على منبر خطبة الجمعة في الرابع من فبراير 2011 وأخذ يصول ويجول متحدًا عن الثورة المصرية مشبها إياها بالثورة الإسلامية ضد شاه إيران، أعطى خامنئي وصف «الإسلامية» للثورة المصرية رغم أنها كانت ثورة الجميع لا ثورة فصيل بعينه، وكأنه من منبره كان يعطي إشارة البدء للجماعة الإخوانية حتى تستولي على هذه الثورة، والغريب أنه بعد هذه الخطبة مباشرة وقفت الجماعة الإخوانية موقفًا غريبًا من الثورة، إذ تركت الميادين وذهبت لتتفاوض مع السيد/ عمر سليمان، وكان من يتفاوض عنها هما محمد مرسي وسعد الكتاتني، وبعد أن تم خلع مبارك ارتمت الجماعة الإخوانية في أحضان المجلس العسكري وأخذت مسيرتها تدور حول دائرة واحدة فقط لا علاقة لها بمصلحة الدولة ولكنها ترتبط كل الارتباط بمصلحة الجماعة، فكان اتفاق الجماعة مع المجلس العسكري في استفتاء مارس 2011 على تعديل الدستور، وكانت الحرب المقدسة في تعديل هذا الدستور والتي أطلق عليها الإخوان «غزوة الصناديق» وظهروا وكأنهم يشنون حربًا دينية ضد الكفار الذين يعيشون في المجتمع المصري! وتحت الشعار الديني وبريقه الذي يستلب عيون العامة والبسطاء، استطاع الإخوان تحويل الثورة المصرية، ظاهريًا، لتبدو

وكانها ثورة إسلامية، وحدث لهم ما تمنوه عندما نجحوا بشعاراتهم الدينية وبالرشاوي الانتخابية في الاستيلاء على كثير من مقاعد البرلمان الذي مكنهم من إدارة معركتهم في انتخابات الرئاسة، وعند إعلان فوز الدكتور محمد مرسي بانتخابات رئاسة الجمهورية بمصر، كانت إيران الرسمية من أوائل المسارعين للتهنئة.

ويبدو أن السياسة كانت متداخلة مع العقيدة، بحيث لا ندري أكان التحالف الإخواني الشيعي تحالفًا سياسيًا استتر بالعقيدة، أم أنه كان تحالفًا عقائديًا استتر بالسياسة، فالعلاقة بين إيران وحماس لا يمكن تفسيرها فقط بمنظور سياسي إنساني، وإنما يجب أن ندخل إلى التاريخ والعقيدة لنعلم كنه هذه العلاقة، يجب أن ندلف لنقاط الالتقاء التي وضعها القومي مع البنا حينما قررا إنشاء دار التقريب بين السنة والشيعة، يجب أن نضع في الاعتبار قيام الشيخ شلتوت بإصدار فتواه بجواز التعبد على أحد المذاهب الشيعية، ويجب في ذات الوقت مراقبة علاقة حزب الله وخطابه الإعلامي تجاه جماعة الإخوان وتنظيمها الدولي، وخروج العديد من التصريحات من حزب الله تؤيد فيها مواقف جماعة الإخوان السياسية مهما كانت.

أيًا كان الأمر فإن الصورة الكاملة للحالة «الإخوانية الشيعية» أظهرت أنها «أمة واحدة» فجماعة الإخوان كما قال البنا «ليس لها لون ولا تنحاز لطائفة ضد طائفة» والشيعة تبحث لنفسها عن مكانة تتسيد بها على الأمة كلها وفقًا لنوازعها التوسعية، ولا مانع في رحلتها التوسعية أن تتحالف مع الإخوان، وكلاهما وضع الدين شعارًا له، وكلاهما ضاعت منه المقاصد

العليا للإسلام، سواء ما يتعلق بحفظ العدالة والحرية والكرامة الإنسانية، وتعمير الأرض، كلاهما لا يبحث إلا عن الحكم والوصول إلى أستاذية العالم أو بمعنى أصح استعباده وإخضاعه، وهم في الحقيقة قوالب جامدة لا حياة فيها، ولا قدرة لها على تحويل أحلام اليقظة إلى واقع حقيقي، لذلك كان المشهد دراماتيكيًا، أو بالأحرى عبثيًا، إذ كانت طموحاتها كبيرة فعلًا، ولكن كليهما نسي أنها عرائس خشبية تحركها يد اللاعب المختفي وراء الستار، نسيا أنها مجرد دمي لا حول لها ولا قوة، والله لا يمنح الأستاذية للدمى، ومع ذلك فقد كانت هناك صعوبات جمة وقفت في طريق الدميتين عندما اكتشف الجمهور أنها عرائس خشبية.

الفصل السادس

الطين المعصوم

في الشعر العربي قصيدة من عيون الحكمة للشاعر (إيليا أبو ماضي) يقول فيها:

نسي الطينُ ساعةً أنه طين حقيق فصال تيهًا وعريد
وكسى الخزج جسمه فتباهى وحوى المال كيسه فتمرد
يا أخي لا تمل بوجهك عني ما أنا فحمة وما أنت فرقد
أنت مثلي من الثرى واليه فلماذا يا صاحبي التيه والصد
أيها الطين لست أنقى وأسمى من تراب تدوس أو تتوسد

الإمام في عقيدة الشيعة الإمامية الإثنى عشرية معصوم، فهو المكلف بحفظ الرسالة بعد الرسول ﷺ، لذلك لا يتصورون أن يقع هذا الإمام في خطأ، ولدى الشيعة الإمامية إثنا عشر إمامًا، أولهم سيدنا علي ابن أبي طالب رضي الله عنه، وآخرهم هو محمد بن الحسن العسكري الذي دخل سردابًا وهو بعد صغير ثم اختفى ويتظنون ظهوره في آخر الزمن، عاش الشيعة عمرهم حول تلك الإمامة المعصومة، واعتبروها من أصول عقيدتهم لا من فرعاتها، لم يقل أحد منهم أنها «إمامة سياسية» ولكنها إمامة دينية دنيوية

مقدسة، ولم يقل أحد منهم إنهم ابتدعوها بعد «الفتنة الكبرى» ولكنها عندهم هي أصل العقيدة، فكما يؤمنون بالرسول فإن الإيمان لديهم لا يصح إلا إذا آمنوا بالإمام وعصمته وتبليغه الرسالة تمامًا كالرسول ﷺ، وقد (تفردت الإمامية من بين الفرق الإسلامية بإيجابها عصمة الإمام من الذنب والخطأ، مع اتفاق غيرهم على عدمها. قال الشيخ المفيد: إن الأئمة معصومون كعصمة الأنبياء، ولا تجوز عليهم صغيرة إلا ما قَدَّمَ ذكر جوازه على الأنبياء، ولا ينسون شيئًا من الأحكام، والإمام منفذ لما جاء به الرسول، وحافظ للشرع، وقائم بمهام الرسول كلها، فلو جاز عليه الخطأ والكذب، لا يحصل الغرض من إمامته)⁽¹⁾.

وتُعرف الشيعة الإمامية بالفرقة الإثني عشرية، ويقولون عن سبب هذه التسمية: (ومبعث هذه التسمية هو اعتقادهم باثني عشر إمامًا من بني هاشم نص عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله، كما هو معلوم للجميع، ثم نص كل إمام على الإمام الذي بعده، بشكل يخلو من الشك والإبهام ولقد تضافر عن رسول الله - صلى الله عليه وآله أنه يملك هذه الأمة اثنا عشر خليفة كعدد نساء بني إسرائيل)⁽²⁾.

ويؤمن الشيعة بـ «التقية» ويتوسعون في استخدامها ويقولون بشرعيتها في كل الأحوال ويعتبرون أنها «إظهار للكفر، وإبطان للإيمان» بمعنى أن الشيعي - الذي يعتبر التقية من أصول عقيدته - يجوز لنفسه أن يُظهر أمام غير الشيعة رغبته في التقريب بين السنة والشيعة في الوقت الذي يبطن في قلبه

(1) أضواء على عقائد الشيعة الإمامية للشيخ جعفر السبحاني ص 388.

(2) المرجع السابق ص 103.

الكفر بالمذاهب السنية، وذلك من أجل أن يحقق أغراضه، ومفهوم التقية عند الشيعة هو (اتخاذ الوقاية من الشر)⁽¹⁾.

ويستدلون على شرعيتها بقول الله سبحانه ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْثَرَهُ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ﴾ [النحل 106].

ويستدلون أيضاً على ذلك بقوله سبحانه: ﴿إِلَّا أَنْ تَكْفُرُوا مِنْهُمْ ثِقَةً﴾ [آل عمران 28] والمستدل من الآيات أنها ترخص بالتقية في أوقات الضرورة القصوى، فهي ليست منهج حياة ولا أسلوب دعوة، ولكنها من أساليب مواجهة أعداء الإسلام في وقت الاستضعاف، وبالتالي لا يُميز أحد من أهل السنة استخدام التقية بين المسلمين في حياتهم ونظام حكمهم، ولكن الشيعة يستخدمونها وهم يتعاملون مع أهل السنة، ويرون أنها طريقتهم المثلى لاختراق المجتمعات والدول المسلمة السنية، ويقول علماء الشيعة عن الظروف التي دفعتهم لاعتناق التقية كمنهج لهم في حياتهم في مواجهة أهل السنة إن (الذي دفع بالشيعة إلى التقية بين إخوانهم وأبناء دينهم إنما هو الخوف من السلطات الغاشمة، فلم يكن هناك في غابر القرون - من عصر الأمويين ثم العباسيين والعثمانيين - أي ضغط على الشيعة، ولم تكن بلادهم وعقر دارهم مخضبة بدمائهم كان من المعقول أن تنسى الشيعة كلمة التقية، وأن تحذفها من ديوان حياتها، ولكن يا للأسف!! فإن كثيراً من إخوانهم «يقصد السنة» كانوا أداة طيعة بيد الأمويين والعباسيين الذين كانوا يرون في مذهب الشيعة خطراً على مناصبهم، فكانوا يؤلبون العامة من

(1) المرجع السابق ص 406

أهل السنة على الشيعة يقتلونهم ويضطهدونهم وينكلون بهم؛ ولذا ونتيجة لتلك الظروف الصعبة لم يكن للشيعة، بل لكل من يملك شيئاً من العقل وسيلة إلا اللجوء إلى التقية أو رفع اليد عن المبادئ المقدسة التي هي أغلى عنده من نفسه وماله⁽¹⁾.

وإذا نظر حسن البناء إلى عقيدة الشيعة وجدها مناسبة لنفسيته وإحساسه بذاته، فهو يرى في نفسه الإمام المهدي، وأتباعه يرون أنه أكثر من ذلك، كما أنه رسم طريقاً لنفسه ظل يسعى من خلاله إلى استعادة الخلافة على أن يكون هو الخليفة الإمام، فيجمع ما عند السنة بما عند الشيعة، وقد أدرك من أول وهلة أن طريقه الذي رسمه لنفسه سيكون مليئاً بالصعاب والأهوال، لذلك فإن التقية يجب أن تكون من أدواته وهو يرفع مصحفه في وجوه المسلمين، ليكون طريق السيف والقوة ممهداً له بعد ذلك، ومن بعده سارت جماعته على منهج التقية، لم تغادره لحظة بل مارسته في كل العهود وفي كل المواجهات مع الأنظمة المسلمة التي رفعت السلاح في وجهها، لذلك قفزت في ذهنه فكرة التقريب بين السنة والشيعة، والملاحظ أن البناء لم يهتم بتقريب الشيعة للسنة ودفعهم إلى التنازل عن بعض عقائدهم، ولكنه سعى إلى تقريب السنة من الشيعة والفارق كبير بين هذا وذاك، وقد أسفرت جهوده عن صدور فتوى الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر بجواز أن يقوم أهل السنة بالتعبد لله على مذهب الشيعة الإثني عشرية، واعتبر شلتوت أن هذا المذهب هو من المذاهب السنية!! وعلى هذا المنهج سار الإخوان، حتى إن حسن البناء من

(1) المرجع السابق ص 418.

أجل إذابة الفروق بين السنة والشيعة كان ينهى أتباعه عن النظر في كتب التفاسير، فقد قال لمحمود عبد الحليم مؤرخ الإخوان الأكبر: (إن كنت تريد نصيحتي فلا داعي لقراءة كتب التفاسير!)⁽¹⁾.



«سلسبيل عين في اللجنة واحنا اشتقنا لحسن البنا» كان هذا هو الهتاف الذي أطلقه خيرت الشاطر⁽²⁾ الإخواني العتيد عقب خروجه وسط حرّاسه من مبنى نيابة أمن الدولة عام 1992 عقب أن أصدرت النيابة قرارًا بحبسه احتياطيًا على ذمة التحقيق في قضية سلسبيل⁽³⁾، وحين أطلق الشاطر هتافه تجمع حوله عشرات من شباب الإخوان الذين كانوا يقفون أمام مبنى النيابة وانضموا إليه في هتافه بحماس كبير.. وعن بعد وقف عشرات من جمهور المصريين العاديين وهم يرقبون هذا المشهد الغريب.. مجموعة تنتمي إلى فصيل إسلامي تهتف بشعارات تعبر فيها عن شوقها لـ «حسن البنا» لم تسمع هذه الجماهير، وأظنها لن تسمع، أي هتاف يُعبر فيه الشاطر وإخوانه

(1) الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ 1 للأستاذ محمود عبد الحليم الجزء الأول ص - 208

(2) هو نائب المرشد العام لجماعة الإخوان ويعتبرونه أقوى شخصية إخوانية.

(3) قضية سلسبيل - من أشهر قضايا الإخوان، وكان الأمن المصري في غضون عام 1992 قد داهم مقر شركة سلسبيل وهي إحدى الشركات المملوكة لبعض قيادات الإخوان وأشهرهم خيرت الشاطر النائب الحالي للمرشد وحسن مالك المسئول عن الملف الاقتصادي في الجماعة، وعند تفتيش الشركة والدلوف إلى المعلومات المخزنة على أجهزة الكمبيوتر كشف الأمن خطة الإخوان للوصول للحكم واسمها "خطة التمكين" وكانت أبرز ملامح الخطة تقوم على اختراق مؤسسات التعليم والجيش والشرطة، وتم حبس خيرت الشاطر وحسن مالك وتسعة من قيادات الإخوان عدة أشهر ثم تم الإفراج عنهم في صفقة بين النظام والإخوان، ولم يتم إحالة القضية للمحاكمة إذ اكتفت الحكومة بمدد الحبس التي قضوها على ذمة التحقيق ومن بعدها تم حفظ القضية.

عن شوقه وشوقهم للرسول ﷺ! أيشتاقون لرسولنا ولديهم رسولهم! كان حسن البنا هو إمامهم المعصوم، نفس المعصومية والقداسة التي عند الشيعة بالنسبة للأئمة الإثني عشر.

يخرج الإخواني الكبير عباس السيسي من محبسه في بدايات السبعينيات من القرن الماضي فيؤسس دار نشر بالإسكندرية وينشر من خلالها عشرات الكتب عن حسن البنا أهمها «حسن البنا مواقف في الدعوة والتربية» و«في قافلة الإخوان المسلمين» إلا أنه لم يكتب في حياته إلى أن توفاه الله أي كتاب عن الرسول ﷺ ولا عن سيرته!

في الإخوان مَنْ يصفون الحاج جمعة أمين بأنه أحد أهم مفكري الجماعة، ذلك أنه كتب العديد من الكتب التي يصنفها البعض على أنها إسلامية مثل كتاب «شرح الأصول العشرين» أو كتابه عن تاريخ جماعة الإخوان، إلا أن أحدهم لم تقع عينه على كتاب لجمعة أمين يشرح فيه أحاديث الرسول ﷺ، أو على الأقل يضع خواطره الإيمانية حول «الأربعين النووية» فقد شغلته عشرون حسن البنا عن أربعين الرسول ﷺ!!! كما لم يكتب عن سيرة النبي صلوات الله عليه ولا عن تاريخ الصحابة فقد هام حبًا بالبنا وتاريخه وانشغل به عما سواه!

أما عمر التلمساني مجدد الإخوان فلم يكتب إلا مذكراته في الإخوان ورؤيته السياسية لحكم عبد الناصر، وكتب أيضًا كتابًا اسمه «حسن البنا الملهم الموهوب» ولم يسطر كلمة في كتاب عن حب الرسول وسيرته.

محمود عبد الحليم مؤرخ الإخوان الكبير وضع سيرة النبي خلف

ظهره ذلك أنه لم يكتب إلا عن حسن البنا وتاريخه، بل إن الدكتور يوسف القرضاوي كتب في الفقه كثيرًا وشرح رسائل البنا وأركان البيعة، ولم يكتب كتابًا واحدًا عن فقه السيرة النبوية مع أهمية الأمر.

وقد يلحظ أي مهتم بالإخوان أن رسائل حسن البنا أخذت جهدًا كبيرًا وواسعًا في الشرح من كل مفكري الجماعة حتى وصل عدد المؤلفات بشأنها إلى ما يزيد على مائتي مؤلف وكأن هذه الرسائل هي دين جديد حل محل دين الإسلام.. اقرأ شرحها في كتب سعيد حوى، والقرضاوي، ومحمد بديع المرشد الحالي للإخوان، وعبد الكريم زيدان وغيرهم، وبعد أن تقرأ شروح هذه الرسائل تهمل فإنك حتمًا ستجد أن الجماعة تتقدم خطوة خطوة نحو تقديس حسن البنا الذي تحوّل إلى داعية رباني لا يتصور وقوعه في الخطأ أو الزلل.. وعلى يد موقع إخوان أون لاين ستجد ركن «الربانية في مذكرات حسن البنا» وستقرأ عشرات القصص «اللاهوتية» عن القديس البنا وكأنه نصف إله ونصف بشر.. ذلك الرجل المعجزة الذي تجري المعجزات والخوارق على يديه حتى إن ابنه أحمد - سيف الإسلام - خرج علينا في حوار له بشأن «قصة حياة البنا» وإخراجها في عمل فني بأن: حسن البنا لم يقع في خطأ واحد في حياته وأنه كان ملهمًا من قبل الله سبحانه وتعالى!

كيف تسربت هذه الأفكار إلى كيان جماعة الإخوان، وهل كانت جزءًا أصيلًا من أفكارهم أم أنها كانت دخيلة عليهم؟ وإذا كان الأمر كذلك فهل يجوز لأحد أن يضع بشرًا في مكانة عليّة تصل إلى مكانة المصطفى صلوات الله عليه؟ هل يكتمل إيمان مسلم يجب أحدًا قدر حبه للرسول؟ الإجابة أيضًا من حديث الرسول ﷺ الذي أورده البخاري من حديث عبد الله بن

هشام أن عمر بن الخطاب قال للنبي ﷺ «لأنت يا رسول الله أحبُّ إليَّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال: لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك، فقال له عمر: فإنك الآن والله أحبُّ إليَّ من نفسي. فقال: الآن يا عمر» أي الآن اكتمل إيمانك، وقال القاضي عياض إن ذلك شرط في صحة الإيمان.. فإذا كان حب النفس أكثر من حب الرسول يقدح في تمام الإيمان مع أن حب الإنسان لنفسه طبع وفطرة فما بالك إذا ساوينا آخر مع الرسول ﷺ في المحبة والاتباع؟!

وقد بات هذا التقديس ظاهرًا للكافة ويدل على خلل في مشاعر «جماعة الإخوان» الإيمانية، ولا أظننا سنجد كاتبًا إخوانيًا يستعرض فكرة إسلامية إلا وقال: قال البنا.. قبل أن يقول.. قال الرسول!.. ولن تسمع خاطرة إيمانية من إخواني قديم إلا وجدته يذكر قصة للبنا يستدعي من خلالها دموع السامعين وكأن حياة الرسول ﷺ لا تصلح للاستدلال بها فجاء حسن البنا ليسد النقص فيها! حاشا لله.

لا شك أن شخصية حسن البنا كانت مؤثرة في أتباعه، فمعظمهم كان قليل الثقافة والفكر، كانوا صغارًا وكان أعلى منهم همة وقدرة وجاذبية ففتنوا به واعتبروه الإمام المهدي أو أعلى درجة، وهو فوق ذلك صنع لنفسه في أذهانهم صورة ملائكية، فقد صور نفسه كإمام تجري الخوارق على يديه، ففي كتابه مذكرات الدعوة والداعية يقول عن أمر شق عليه عندما كان طالبًا، ذلك أن امتحانه في معهده كان على وشك الانعقاد وهو لم يتم مذاكرته بعد فحدث كما يقول (وإن من فضل الله تبارك وتعالى أنه يطمئن ويسكن نفوس عباده وإذا أراد أمرًا هيا له الأسباب فما زلت أذكر أن ليلة امتحان

النحو والصرف رأيت فيما يرى النائم: أنني أركب زورقاً لطيفاً مع بعض العلماء الفضلاء الأجلاء يسير بنا الهوينى في نسيم ورخاء على صفحة النيل الجميلة، فتقدم أحد هؤلاء الفضلاء، وكان في زي علماء الصعيد، وقال لي: أين شرح الألفية لابن عقيل؟ فقلت: ها هو ذا، فقال: تعال نراجع فيه بعض الموضوعات، هات صفحة كذا، و صفحة كذا، لصفحات عينها، وأخذت أراجع موضوعاتها حتى استيقظت منشرحاً مسروراً، وفي الصباح جاء الكثير من الأسئلة حول هذه الموضوعات فكان ذلك تيسيراً من الله تبارك وتعالى⁽¹⁾ ونجح حسن البناء في الامتحان وتفوق فيه بسبب أن الله أرسل له في المنام من يذاكر له الدرس الذي لم يقرأه، لم يرسل الله له رجلاً عادياً، ولكن أرسل له بعض العلماء الفضلاء الأجلاء! فكان الدرس الخصوصي، وكان النجاح وكأن هؤلاء العلماء الذين جاءوا له في المنام هم من وضعوا الامتحان!

كان إحساس البناء بإماميته للأمة ظاهراً حين أطلق على نفسه لقب «الإمام» حينما كان لا يزال في بدايات شبابه، ولكنه أيضاً حينما آمن بهذه الإمامية قام بتوريثها لأتباعه، فيقول الأستاذ محمود عساف سكرتير حسن البناء في مذكراته ناقلًا كلمات قالها له البناء (انظريا محمود إن الإيمان بالإسلام يقوم على شهادتين: لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ولا تصلح الشهادة الأولى وحدها ليصير الشخص مسلماً ذلك لأن النبي ﷺ يتجسد الإسلام في شخصه، وبالتالي يجب أن يكون الإيمان بالفكرة وصاحبها معاً فلسنا جمعية

(1) مذكرات الدعوة والداعية لحسن البناء.

ولا تشكيلاً اجتماعياً ولكن نحن دعوة فلا بد من الإيمان بها والسير على نهج داعيتها والعمل على تطبيق أفكاره⁽¹⁾.

وضع حسن البنا نفسه في مصاف النبي ﷺ، فلطالما أن إسلام المرء لا يتم إلا بإيمانه بالرسول ﷺ، فإن إيمان الإخواني لا يتم إلا إذا آمن بحسن البنا، وضع البنا نفسه في مقام النبي، ووضع كلمة الدعوة في مقام الإسلام، وعلى هذا الأمر سار الإخوان، فهم يقولون دائماً عن حسن البنا إنه «صاحب الدعوة» وكأن الرسول ﷺ تنازل عنها للبنا، وسبحان الله! مرة يقول فريق من الشيعة إن «الدعوة كانت لعلي بن أبي طالب» ومرة يقول الإخوان «إن البنا هو صاحب الدعوة» وكأن هناك تنازعاً في ملكية الدعوة!

ولأن البنا في ضميره وضمير الإخوان هو صاحب الدعوة، لذلك يجب أن يكون فهمه للإسلام هو الفهم المعتمد الذي لا يجوز مناقشته أو الاختلاف فيه، وهذا هو ما أكد عليه البنا لأعضاء الجماعة، إذ أوضح لهم أن الإسلام لا يفهم إلا في حدود الأصول العشرين التي وضعها لهم، لا يجوز لهم أن يضيفوا لها أو أن يحذفوا منها، فإذا ما أردوا فهم الإسلام فيجب أن يطرقوا باب البنا الذي معه مفاتيح الفهم وحده، ولتأكيد هذا قال في تفسير ركن «الفهم» الذي هو أحد أركان البيعة: إنما أريد بالفهم أن توقن بأن فكرتنا إسلامية صحيحة، وأن تفهم الإسلام كما نفهمه في حدود الأصول العشرين الموجزة كل الإيجاز.

وحينما وجد أن الجماعة ضمت بعض الشباب الذي يفكر ويناقش

(1) المرجع السابق.... ص 62

ويجادل أراد أن يخضعهم لطريقته وأسلوبه وفهمه هو وحده، ولم لا وهو الإمام المهدي الذي أرسله الله ليجدد للأمة أمر دينها!! هو الإمام الذي لديه كنوز من المعرفة الربانية كتزها لنفسه وأعطاهما لأصحابه القطرة وراء الأخرى!! لذلك قال في أحد الأيام للشيخ الشاب الدكتور عبد العزيز كامل⁽¹⁾ عندما وجده يفكر (أنا أعلم نوع تفكيرك وتمسكك بالسنة، وستأتي أيام وظروف قد نختلف فيها، وأود في هذه الظروف أن تترك رأيك لرأيي، ألا تطمئن إلي⁽²⁾) .

وبذلك أغلق البنا على المسلمين أبواب الفهم، واحتكرها لنفسه، وما ذلك إلا لأنه «الإمام المهدي» الذي طال انتظاره، والذي يصحح للناس أفهامهم الدينية ويجعلهم قالبًا واحدًا، أما أولئك الفقهاء الكبار الذين اجتهدوا ووضعوا قواعد ذهبية في تنوع الأفهام وتعدد الصواب واختلاف الفتوى باختلاف الزمان والمكان فأولئك ليست الجماعة منهم في شيء، إذ إنهم لا يعرفون إلا حسن البنا وحده، ولا يفهمون غير أفكاره، ولا يتقربون إلى الله بالدعاء إلا من خلال الأدعية التي جمعها البنا وجعل منها أذكارًا للجماعة.



(1) الدكتور عبد العزيز كامل من الرعيل الأول للإخوان وكان عالمًا فاضلاً، ويقول الدكتور القرضاوي في مذكراته إن البنا كان يعد عبد العزيز كامل ليكون مرشدًا للجماعة من بعده، وبعد وفاة البنا كان من الذين حافظوا على كيان الجماعة إلا أنه ترك الجماعة بعد خلافها مع جمال عبد الناصر وكان له دور في الكشف عن محاولة اغتيال عبد الناصر في أكتوبر 1954 في الحادثة التي عرفت تاريخيًا باسم «حادث المنشية» وفي مذكراته كشف عن شخصية البنا وأشار إلى أن شخصيته استبدادية وأنه كان لا يؤمن بالشورى ولا يمارسها، وقد ألقى في مذكراته بالمسؤولية على البنا في اغتيال الخازندار والنقراشي.

(2) مذكرات الدكتور عبد العزيز كامل - قدم لها الدكتور محمد سليم العوا ص 53

كان قتل حسن البنا نكبة وقعت على رءوس الإخوان، فبكوه وأسرفوا في البكاء، ورثوه وأسرفوا في الرثاء، فهذا هو الأستاذ عمر التلمساني يقول بعد مقتل البنا (وكف القلب المعلق بالعرش عن النبض في هذه الحياة لينبض في مقعد صدق عند مليك مقتدر)⁽¹⁾.

وبذلك يكون الإخوان قد دخلوا في علم الله، وتألهوا على الله، وقطعوا بالغيب الذي لا يعرفه إلا الله، لم يقل الأستاذ التلمساني وهو يرثي شيخه كلمة تفيد بشرية أفهامنا وعدم معرفتنا بالغيب مثل «نحسبه في مقعد صدق عند مليك مقتدر والله حسيبه» ولكنه قطع بمكانه ومكانته عند الله! ولم لا أليس هو في ضيائهم الإمام المهدي؟

وحين جمع الإخوان ما قيل عن حسن البنا، من الإخوان الذين صاحبوه، وضعوا ما قالوه في كتاب يؤرخ لتقديسهم لشيخهم، وحين تقرأ كلام تلاميذ البنا عنه لا تجدهم يتحدثون عن واحد من بني البشر، ولكنهم يتحدثون عن نصف إله، فهذا مصطفى السباعي الذي كان مراقب الإخوان في سوريا وقت وفاة حسن البنا وظل في موقعه هذا عدة سنوات بعدها، يقول عن حسن البنا: (فما هو إلا النور المرسل من السماء؛ ليكشف عن أهل الخلود ظلماتهم، ثم يظل في السماء دائماً وأبداً، ولن يختلط بتراب الأرض؛ إلا كما تقع أشعة الشمس على أعلى القصور وأدناها)⁽²⁾.

الصورة التي رسمها مصطفى السباعي هنا لشيخه ومرشده حسن البنا

(1) حسن البنا بأقلام تلاميذه ومعاصريه لجابر رزق ص 44

(2) المرجع السابق ص 104.

هي الصورة الماثلة في أذهان عموم الإخوان، حسن البنا عنده وعند باقي الإخوان ليس بشراً عادياً يمشي مثلنا في الأسواق ويرد عليه ما يرد على باقي البشر من نقص وزلل وهوى وميل وخطأ، ولكنه نور من السماء، نور خالص لا يختلط به زيغ، أنزله الله من السماء ليكشف الظلمات التي كانت تخيم على الأرض فيحيلها نوراً سرمدياً، ومع ذلك فإن هذا النور لن يتنازل كما تنازلت الأنبياء من قبل! فيهبط على الأرض ليختلط بالناس هادياً لهم ومنيراً لهم حياتهم، ولكنه سيظل في السماء لا يتدنس بطين الأرض، يظل في السماء مثل الشمس، بعيداً عن بني البشر، فقط أشعته الذهبية هي التي ستصل إلينا أما هو ففي السماء دائماً وأبداً، دائماً وأبداً!! ياسبحان الله، هل نملك إلا أن نتعجب من هذه العبارات الشريكية، وهل لنا أن نسأل الإخوان: طالما أن نور حسن البنا أضاء القصور من أعلاها إلى أدناها، ألم يلحظ أحدهم أن نور البنا أضاء القبور أيضاً؟! إذ لربما يكون مصطفى السباعي نسي أن نور البنا له امتداد سرمدي لا ينقطع، ولم لا وهو الذي سيظل «دائماً وأبداً» لا ينقضي ولا ينتهي! وقد يمتد هذا النور فيصل إلى الجنة ليؤنس المؤمنين، وقد يتغمد الله أهل النار برحمته فيصل نور البنا إلى النار فيطفئها! وإنا لله وإنا إليه راجعون.

لذلك لا يأخذنا العجب حينما نقرأ فكرة «الإمامية» واضحة جلية في عيون الإخوان، إذ اعتبروا حسن البنا الإمام الملهم الموهوب الذي لم يقع في حياته في خطأ قط، فيقول الإخواني السوري الكبير سعيد حوى رحمه الله: «ونعتقد أنه لا جماعة كاملة إلا بفكر الأستاذ البنا وإلا بنظرياته وتوجيهاته»⁽¹⁾.

(1) سعيد حوى في آفاق التعاليم ص / 5.

في الفقرة السابقة يتحدث سعيد حوى - وهو أحد كبار الإخوان الذين تولوا مسئولية الإخوان في سوريا من عام 1979 إلى عام 1982 ثم أصبح من كبار المسئولين في تنظيم الجماعة الدولي وتوفي عام 1989 - يتحدث عن حسن البنا وجماعة الإخوان، فيدخلها إلى دائرة الكمال، ويضع قاعدة إخوانية مفادها أن فكر حسن البنا هو «الفكر الكامل» الذي استحوذ على درجة الكمال، وأن الجماعة لم تصبح كاملة إلا بفكر البنا وتوجيهاته!

شيخهم البنا هذا حيرَ ألبابهم وسلب عقولهم وقلوبهم، وأصبح في نظرهم مساوياً لسيدنا محمد ﷺ حتى إن الأستاذ محمود عبد الحليم رحمه الله يقول عنه في كتابه الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ الجزء الأول «لقد كنت أحرار في تصور قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن رسول الله إنه كان خلقه القرآن، حتى لقيت حسن البنا وصاحبته فبدت الصورة تتضح أمامي».

وعلى ذات النسق يقول المرشد الثالث الأستاذ عمر التلمساني عن حسن البنا المرشد الأول: (لما كان الأمر أمر تجميع، وتكوين، وتوحيد مفاهيم أمة مسلمة، لما كان الأمر عودة المسلمين إلى الإيمان، لما كان الأمر كذلك اختار الله لهذه الدعوة إمامها الشهيد حسن البنا)⁽¹⁾.

في رأي الأستاذ التلمساني، رحمه الله، أن الإيمان قبل البنا كان إيماناً غائباً تماماً مثل الإمام الغائب الذي سيعيد للأمة إيمانها، وعندما أراد الله سبحانه أن يعيد للأمة إيمانها الغائب، الذي اختفى قطعاً في سراديب الجهالة اختار

(1) ذكريات لا مذكرات عمر التلمساني ص 8.

واحدًا من خلقه ليس مثل باقي الناس، هو حسن البناء، اختاره كي يعيد للأمة دينها المفقود، ولعلني لا أتعجب من هذه المفاهيم التي أصبحت هي النسيج العام لعقل الجماعة وقلوبها، فحسن البناء نفسه يتحدث في رسائله عن إيمان الإخوان، وإيمان غيرهم، فيقول في رسالة دعوتنا (والفرق بيننا وبين قومنا بعد اتفاقنا في الإيمان أنه عندهم إيمان مخدر نائم في نفوسهم لا يريدون أن ينزلوا على حكمه ولا أن يعملوا بمقتضاه، على حين أنه إيمان ملتهب مشتعل قوي يقظ في نفوس الإخوان المسلمين) أنزل حسن البناء حكمه على قومه كلهم، فقال إن إيمان قومنا مخدر، أطلق الرجل حكمه ولم يقيده ولم يضع فيه استثناء، ولم يقل حتى عبارة «إلا من رحم ربي» تلك العبارة التي نستثني بها أقوامًا إذا تحدثنا بنقيصة ورذيلة عمت وفشت، الاستثناء الوحيد الذي وضعه البناء هنا هو «إيمان الإخوان» فقط هم أصحاب الإيمان الملتهب المشتعل القوي اليقظ!

وبعد سنوات من مقتل حسن البناء من المعروف داخل الإخوان أن لقب البناء هو «الإمام الرباني» أو الملهم الموهوب، بل إن كتابات الإخوان حاليًا في صحفهم ومواقعهم أخذت منحى آخر إذ يكتبون دائمًا عبارة: «حسن البناء رضي الله عنه!» وكان من أعلام الإخوان الذين استخدموا هذه العبارة القطب الإخواني الكبير الشيخ محمد عبد الله الخطيب⁽¹⁾ - حيث وضعها كعنوان لمقال له في جريدة الحرية والعدالة، وكأن البناء كان من الصحابة المقربين أو أعلى منزلة منهم، ولا يقدح في هذا ما قد يقال من الإخوان تبريرًا

(1) الشيخ الخطيب هو واحد من كبار الإخوان وكان عضوًا بمكتب الإرشاد إلى عام 2009 ويشار إليه باعتباره مفتيًا للجماعة ومصدرًا فقهيًا لها.

لهذه العبارات إن هذه الصيغة صيغة دعاء!! لأن السياق اللغوي يظهر منه أنها صيغة إخبار لا دعاء.



للتقية قصة مع الإخوان، وهذه القصة مستمرة منذ عهد الشيخ المؤسس حسن البنا - الذي يطلقون عليه الإمام - إلى وقتنا هذا، لم يتخل الإخوان عن «تقيتهم» هذه في أي لحظة من اللحظات، آمن حسن البنا بها واعتبرها أصلاً من أصول العمل الحركي للجماعة، وتقية الإخوان لا تختلف عن تقية الشيعة في شيء، فهم يعتبرونها وسيلة من وسائل «التمكين» يسلكون سبيلها ليتقوا «الأعداء» ويتوسعون فيها حتى أصبحت أصلاً، تقية الإخوان والشيعة هي هي، لا فرق بينهما، وهي تختلف قطعاً عن «التقية الشرعية» فالتقية الشرعية هي مجرد فرع من الفروع، بينما هي عند الإخوان والشيعة من الأصول، والتقية الشرعية تستخدم مع الكفار لا مع المسلمين، ويقول سيدنا سعيد بن جبير⁽¹⁾ في ذلك «ليس في الإسلام تقية إنما التقية لأهل الحرب» بينما الشيعة والإخوان يستخدمون التقية مع غيرهم من المسلمين، والتقية الشرعية إنما تكون باللسان فقط، بينما تقية الإخوان والشيعة إنما تكون باللسان والأفعال.

إذن ما هي قصة الإخوان تاريخياً مع التقية؟ يحدثنا التاريخ أن الجماعة عندما كانت في بدايتها، وبينما الإنجليز يتلاعبون كما يشاءون بالملك فؤاد ويحركونه كيفما شاءوا، يأخذون منه ما يريدون، ويسلبون إرادته حتى صار

(1) هو من أئمة التابعين وكان فقيهاً تلقى العلم على سيدنا عبد الله بن عباس وسيدنا عبد الله بن عمر.

مطية لهم، فكرهه الشعب أيما كراهية، إلا أن الإخوان كانت لهم حاجة عنده وعند نظامه، فضلاً عن صلتهم بالإنجليز، تلك الصلة التي أوردتها الإخوان في تاريخهم تلميحاً، وأوردتها الباحثون تصریحاً، لذلك استخدم البنا التقية مع فؤاد وهو يخاطب الجماهير، وقال إن الملك فؤاد هو «ذخر للإسلام!» وأخذ البنا يداعب مشاعر فؤاد وينادي بأن يكون هذا الملك التابع للإنجليز «خليفة للمسلمين».

وبعد أن انتهى عهد فؤاد جاء عهد ابنه فاروق الأول، الذي أصبح ملكاً على مصر، وإذا أراد البنا الاستحواذ على فاروق أرسل له فرق الإخوان المسلمين تصطف في الطرقات لاستقباله ولتهنئته على سلامة العودة للبلاد لاستلام الحكم، وتمر السنوات ويقع فاروق في أتون الفساد، فخرجت المظاهرات ضده منددة بفساده ورجونته ونزقه وعلاقاته النسائية وإدمانه للقمار، إلا أن البنا رسم لنفسه طريق التقية فوصف فاروق باعتد بقوله إنه «ضم القرآن إلى قلبه ومزج به روحه»⁽¹⁾.

وعندما تحرك مصطفى النحاس رئيس حزب الوفد على المستوى الشعبي والبرلماني مطالباً بتقليص الصلاحيات الدستورية للملك فاروق، وخرجت المظاهرات الشعبية من كل الأحزاب والتوجهات السياسية تهتف «الشعب مع النحاس» فإذا بمظاهرات إخوانية تخرج لهم وكأنها جحافل مختبئة في كهوف سرية، والغريب أن هتافات الإخوان لم تنضم لمظاهرات الوطن، ولم تطالب بما طالب به الشعب، ولكنها انحازت لفاروق، فأخذت تهتف وكأنها

(1) تصريح حسن البنا لجريدة الأهرام في العدد الصادر يوم 12 / 7 / 1937.

تتعبد لله «الله مع الملك»! وكأن البنا أخذ عهدًا على الله أن يكون - الله - مع الملك! أو كأنه خرج بهذه المظاهرات، على سبيل التقية، باللسان والعمل، ليقرب بها من الملك فاروق صاحب السلطة العليا في البلاد.

ويستمر التاريخ في فضح تقية الإخوان، تلك التقية التي استخدموها في مواجهة المجتمع المصري بأكمله، حتى إن المؤرخين المحسوبين على جماعة الإخوان، والذين تحالفوا معها في أوقات كثيرة - ومنهم المستشار طارق البشري -⁽¹⁾ أبدوا استعجابهم من موقف الإخوان الذي كان مؤيدًا ومتحمسًا لرئيس وزراء مصر إسماعيل صدقي الذي كان ملقبًا بـ «عدو الشعب»⁽²⁾ - وعن التحالف بين البنا وإسماعيل صدقي يقول طارق البشري (مع كل ذلك، يبقى تأييد الإخوان لإسماعيل صدقي عصيًا على التبرير، من وجهة نظر الحركة الوطنية وصالح الإخوان معًا، وصدقي بأي معيار من المعايير هو رجل المصالح الأجنبية في مصر، ومن الناحية الوطنية لم يؤثر عنه إلا العداء لكل فصائلها، ومن الناحية الديمقراطية هو من هو عداء لها، ومن

(1) المستشار طارق البشري هو واحد من كبار رجال القضاء المصري حيث كان رئيسًا لمحكمة القضاء الإداري وهو مؤرخ ومفكر كتب العديد من الكتب تاريخًا للجihad السياسي للمصريين، وله صلات قوية بجماعة الإخوان، وظهرت هذه الصلات حينما وضعه الإخوان رئيسًا للجنة تعديل الدستور والذي جرى الاستفتاء عليه في 19/3/2011، ووقع البشري في سقطة تاريخية وسياسية وأخلاقية كبيرة حينما وضع نصًا في التعديل الدستوري يجعل اللجنة المشرفة على انتخابات الرئاسة لجنة مقدسة لا يجوز الطعن على قراراتها، رغم أن البشري نفسه كان قبل ذلك قد كتب ضد هذا المبدأ واعتبره مخالفًا للإسلام!

(2) لقب إسماعيل صدقي بـ «عدو الشعب» عندما كان رئيسًا للوزراء عام 1930 ووضع دستور عام 1930 وتوسّع فيه بخصوص صلاحيات الملك، وأصبح مرة أخرى رئيسًا للوزراء عام 1946 وفي تلك الفترة تحالف مع الإخوان، ثم استقال من الوزارة وتولى الوزارة من بعده محمود فهمي النقراشي الذي اغتاله الإخوان، توفي إسماعيل صدقي عام 1950.

الناحية الاقتصادية هو ذو العلاقة العضوية الوثيقة برءوس الأموال الأجنبية، وبالجاليات الأجنبية اليهودية المهيمنة على الاقتصاد وقتها، ولم تكن تنقصه شجاعة الجهر بكل ذلك، ولا تنقصه شجاعة الجهر وحيداً بمعارضته لحرب فلسطين في 1948، ومن ناحية الإسلام والتغريب، لم يؤثر عنه أنه تحلى أو تجمل بأي من آثار الإسلام، في أي من المجالات⁽¹⁾.

لم يستطع البشري تفسير تحالف البنا مع إسماعيل صدقي، مع أن طارق البشري نفسه تحالف مع الإخوان في كتابة تعديل للدستور هو الأسوأ في تاريخ مصر، حتى إن كثيراً من الكتاب - وأنا منهم - أطلقوا عليه «عدو الشعب» فهذا التعديل الدستوري كان يخالف المصالح الوطنية بكل المعايير، ولكن الذي لم يره البشري، أن البنا تحالف، باللسان والعمل مع إسماعيل صدقي من باب التقية، حتى يستطيع من خلاله الوصول إلى التمكين الذي يراه، تماماً مثلما تحالف الإخوان مع البشري ليضع لهم مادة في الدستور تمنع الطعن على قرارات لجنة الإشراف على الانتخابات حتى يسمح للإخوان بالتزوير من خلال آلتهم البشرية الضخمة، فإذا ما تم التزوير عجز الشعب عن الطعن قضائياً على تغيير إرادته ووصل الإخوان للتمكين الذي يريدون!

ومع إسماعيل صدقي لم يكن الأمر مجرد تحالف فحسب، ولكنه كان فعلاً بشعاً ضد الفطرة وضد الخلق السليم، فعندما شن الديكتاتور إسماعيل صدقي حملة اعتقالات واسعة - عام 1946، ثم قام بغلق العديد من الصحف التي

(1) طارق البشري، الحركة السياسية في مصر 1945 - 1952 ص: 58 - - 59

تعارضه، وكان هذا الفعل بمثابة تكميم للأفواه حتى تغيب الحقائق عن الشعب ويستطيع هو أن يمضي قدمًا في تحقيق مصالح الإنجليز، إذا بصحف الإخوان تصدر وهي تنشر في عناوينها الرئيسية تأييدًا لهذه الاعتقالات وتلك المصادرات!! مبررة ذلك - بأن الظروف تحتم هذا الأمر؛ لأن سلامة المجتمع وحرية الأمة فوق كل شيء! وكانت الكارثة التي رواها المستشار البشري وكثير من المؤرخين تتمثل في استقبال الإخوان في الجامعة لإسماعيل صدقي واعتدائهم بالضرب على باقي طلاب الحركة الوطنية ليمنعواهم من الهتاف ضد صدقي، وكانت الكارثة الأكبر التي تتجاوز كل الأعراف والثوابت الدينية، عندما وقف مصطفى مؤمن زعيم الطلاب الإخوان بالجامعة خطيبًا أمام إسماعيل صدقي، حينها بدأ خطبته - مستشهدًا بالآية الكريمة ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾⁽¹⁾.

أما القصة الواضحة التي تظهر عقيدة التقية لدى الإخوان فهي تبدأ بعبارة شهيرة قالها البنا هي «ليسوا إخوانًا وليسوا مسلمين» وهذه العبارة قصة، وهي قصة مرتبطة باغتيالات وتخريب وحرق وقتل، كان الإخوان قد قتلوا أحد المستشارين من رؤساء محاكم الجنايات اسمه المستشار الخازندار لأنه أصدر حكمًا بسجن أحد الإخوان، ومن بعده قتل الإخوان النقراشي باشا رئيس وزراء مصر، ثم تم القبض على خلية إخوانية وهم في سيارة «جيب» يحملون مفرقات وخططًا لحرق القاهرة، وبدأت النيابة العامة في التحقيق في هذه القضية التي عرفت بقضية السيارة الجيب، ولأن القضية كانت بمثابة مسار

(1) المرجع السابق ص 108

في نعش الجماعة في هذا العهد لذلك حاولت الجماعة التخلص من أدلتها، فتحرك النظام الخاص وكلف أحد أفرادهِ ويدعى «شفيق أنس» بوضع قنبلة حارقة بجانب دولاب حفظ أوراق القضية، إذ قدّم نفسه لسكرتير التحقيق على أنه أحد الموظفين من محكمة من محاكم الأقاليم وأنه مكلف من قبل المحكمة التي يعمل بها بتقديم بعض القضايا للنائب العام، ثم وضع حقيبة بها القنبلة بجوار الأرفف وزعم أنه سيذهب لمطعم قريب ليتناول إفطاره، وبعد انصرافه شك الموظف في الحقيبة فأعطاهما للأمن الذين قاموا بالتخلص منها في الطريق أمام المحكمة، فانفجرت القنبلة «الزمنية» وترتب على انفجارها مقتل وإصابة بعض المارة الأبرياء، وأمام هذه المشكلة الكبيرة قام حسن البنا بإصدار بيان يتبرأ فيه ممن قاموا بهذا الفعل وقال في بيانه عنهم: «إنهم «ليسوا إخواناً وليسوا مسلمين» وكان مما قاله في البيان: «إن الذين فعلوا هذا ليسوا إخواناً وليسوا مسلمين ولا يستحقون شرف المواطنة المصرية». وعندما وصل خبر هذا البيان لشفيق أنس في السجن أصابه الإحباط، فهو لم يفعل هذا الفعل عن أمره ولكنه قام به بناء على تكليف من الجماعة، فكيف للجماعة أن تتبرأ منه الآن!

لا شك أن الحالة النفسية لـ «شفيق أنس» كانت آنذاك في متهى السوء لذلك بادر إلى الاعتراف الكامل بجريمته وبالمحرضين والمساهمين والمشاركين معه، كان وقع هذا البيان أيضاً سيئاً على «عبد المجيد أحمد حسن» الذي قام باغتيال محمود فهمي النقراشي رئيس الوزراء، وعن هذا البيان ونفسية القاتل عبد المجيد أحمد يقول محمود الصباغ أحد كبار رجال النظام الخاص: (وقد هلت أجهزة الحكومة مدعية أن الغرض كان نسف المحكمة، وبالغت أبواق

الاتهام تهيب الجو للقضاء التام على الإخوان المسلمين، مما اضطر المرشد العام إلى إصدار بيانه: «ليسوا إخواناً وليسوا مسلمين» ليساعد على تخفيف حدة الضغط على الإخوان، وهو أمر جائز شرعاً في الحرب ويعد من خدعه، كما أوضحنا عند ذكر سرايا رسول الله ﷺ لاغتيال أعداء المسلمين، ولكن الأخ عبد المجيد أحمد حسن لم يتبه إلى ذلك، وتأثر بالبيان تأثراً قاده إلى الاعتراف على إخوانه⁽¹⁾.

هذا هو الرأي الذي وضعه محمود الصباغ تبريراً لبيان حسن البنا: «ليسوا إخواناً وليسوا مسلمين» كلماته واضحة بأن حسن البنا استخدم التقية، أو الخداع، لأن الحرب خدعة، ثم يقول: إن التقية هنا جائزة لأنه (أمر جائز في الحرب) وأجرى محمود الصباغ القطب الإخواني التاريخي مقارنة فقهية بين قتل الإخوان لمحمود فهمي النقراشي، المصري المسلم الوطني الذي كان من قادة الشباب في ثورة 1919، وبين سرايا أرسلها الرسول ﷺ لقتل أعداء المسلمين، وعاب الصباغ على عبد المجيد أنه لم يفهم التقية وغابت عنه فاعترف!! النقراشي في عيون الإخوان هو أحد أعداء الإسلام لأنه أصدر قراراً بحل جماعة الإخوان ومصادرة مقارها!! وقتله كان إقامة لسنة إسلامية تبيح للمسلم قتل الأعداء في الحرب، وبيان البنا هو تطبيق لـ: «الحرب خدعة»!

ولعلنا نجد في قتل الإخوان للمستشار الخازندار صورة كاملة للتقية، فبعد أن قام تحقيق داخل الجماعة حول هذه الجريمة، وقد كتب الدكتور

(1) حقيقة النظام الخاص ودوره في دعوة الإخوان المسلمين لمحمود الصباغ ص 452.

عبد العزيز كامل في مذكراته تفصيلات هذا التحقيق، وكذلك كتب محمود عساف سكرتير حسن البناء، ثبت أن البناء هو الذي أمر بقتل الخازندار وفقاً لما قاله عبد الرحمن السندي رأس النظام الخاص وقتها، حتى إن البناء تعهد بعد التحقيق بدفع دية القتل، ولكن الإخوان نكلوا عن دفع الدية بعد ذلك بمقولة: إن هذه الدية تلتزم بها «الحكومة»!! وتظهر التقية بعد ذلك بيومين إذ خرج حسن البناء للإخوان في لقاء الثلاثاء وهو لقاءؤه بالجماعة من كل أسبوع ليخطب فيهم خطبة تقوي إيمانهم..... وفي هذه الخطبة أنكر البناء قيام الجماعة باغتيال المستشار الخازندار!



قد تنتهي صفحات هذا الكتاب ولا تنتهي استدلالنا على «تقية الإخوان» المستمدة من فهم الشيعة للتقية، ومع ذلك فإننا لا بد وأن نترك التاريخ القديم لندخل إلى تاريخ الجماعة في العصر الحديث، قبل ثورة يناير وبعدها، فحين كشف بعضهم للرأي العام أن الإخوان عقدوا صفقة مع نظام مبارك عام 2005 خرجت القيادات تقسم بالله العظيم، والعيش والملح «وثرية أبيهم» إن الإخوان لم يعقدوا صفقة وإنما أبرياء من هذه الفرية اللعينة والكذبة المفضوحة، ثم بعد أن مر على السنين سنون وقامت الثورة المصرية خرج المرشد السابق الرجل الصريح الأستاذ مهدي عاكف وقال: نعم عقدنا صفقة مع النظام السابق عام 2005 وجلسنا مع شخصيات أمنية كبيرة واتفقنا على كل شيء، ثم التزم نظام مبارك بالصفقة في المرحلة الأولى للانتخابات وقتها، ثم نكل عن الاستمرار في الصفقة في المرحلتين الثانية والثالثة!

هل تريدون المزيد من الحكايات الطريفة عن تقية الإخوان وموقفهم عندما يفتضح المخبوء في أقيبتهم؟ عندك صفقة بيعة الإخوان لمبارك عام 1987، إذ وقف المستشار - مأمون الهضيبي⁽¹⁾ وقت أن كان رئيسًا للهيئة البرلمانية ليعلن بيعه الإخوان لمبارك، وقال في بيعته «وجدناك شريفًا فبايعناك، ووجدناك أمينًا فبايعناك، ووجدناك وطنيًا فبايعناك» وبعدها أعلن الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد⁽²⁾ استقالته من عضوية مكتب إرشاد الجماعة احتجاجًا على هذه البيعة لأنها تخالف اعتقاد جماعة الإخوان في الرئيس مبارك.

وفي ديسمبر من عام 2005 نشر الكاتب والصحفي الكبير حمدي رزق في مجلة المصور وثيقة منسوبة للإخوان اسمها «فتح مصر» وعند نشر هذه الوثيقة أنكرها الإخوان وأقسموا إنها مزورة، وبالغوا في إنكارهم إلى الحد الذي جعلهم يقيمون دعوى ضد الصحفي ومجلته إلا أن القضاء أصدر حكمه بصحتها.

وثيقة فتح مصر تكاد تطفح بالتقية بصورتها الشيعية، لم تحد عن مفهوم الشيعة للتقية قيد أنملة، إذ جاء فيها:

(1) المرشد السادس لجماعة الإخوان.

(2) الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد عالم أزهري وكان عضوًا بمكتب إرشاد جماعة الإخوان ومتخصصًا في علوم القرآن الكريم، استقال من عضوية مكتب الإرشاد عام 1987 عقب مبايعة الإخوان لمبارك حيث اعتبرها تقية لا تجوز.

برنامج عمل

مقدمة

لا ينبغي لأحدنا أن يتزعج من صيحات أعداء الدعوة وتربصهم بنا وكيدهم لنا، فهذا أمر منطقي اقتضته سنة التدافع بين الحق والباطل، والصراع بين الشر والخير، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ (الفرقان: 31) كما قال تعالى في شأن أعداء الدعوة: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُم حَتَّىٰ يَرُدُّوكُم عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ (البقرة: 217).

مبادئ

في ظل هذا الصراع والتدافع ينبغي أن يعلم الإخوان :
1 - حتمية المحنة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (العنكبوت: 2) وقافلة الإخوان لم يكن من شيمتها الجبن والخوف والهروب لأنها كانت وما زالت مستعلية بإيمانها فوق الظروف.

2 - وحدة العمل الإسلامي فريضة شرعية وقد أشار الحاج مصطفى مشهور، عليه رحمة الله، إلى وجوب توحيد العمل الإسلامي تحت راية واحدة وأشار الأستاذ فتحي يكن إلى أن وحدة العمل الإسلامي من الفرائض التي نتعبد بها لله مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ (الأنعام: 159).

1 - عن حتمية المحنة :

- (أ) وجوب الصبر عند المحن والابتلاءات.
- (ب) الخروج من دائرة الصبر السلبي إلى الصبر الإيجابي.
- (ج) الالتزام بالدعاء لله في كل الأوقات.
- (د) إدراك كما أن الصبر يكون عند المحنة فكذلك يكون أيضًا على الطاعة وكما يكون في الابتلاء يكون في الرخاء.
- (هـ) إدراك أن المحن تداري الأخطاء والرخاء يظهرها.

2 - عن وحدة العمل الإسلامي وخطر التعددية :

وقد أجملها فتحي يكن في الآتي :

- (أ) أعطت التعددية كثيرًا من المسلمين مبررات الهروب من الانتهاج الحركي.

(ب) فتت القوى الإسلامية وأضعفتها.

(ج) سهلت على أعداء الإسلام عملية تصفية الاتجاه الإسلامي باستفراد كل كيان على حدة.

(د) أفرزت حساسيات ومنافسات لدى أتباع كل تنظيم من آخر.

(هـ) أدت إلى تأخر العمل الإسلامي.

من هنا ينبغي علينا أن ندرك وجوب تصفية أي إسلامي آخر إما بضمه أو تفرغه أو احتوائه مع عدم استعجال النتائج.

كما يجب أن ندرك أهمية أن نظهر أمام الناس في صورة من يمثل الإسلام وحدنا دون غيرنا حتى تستقر الصورة أمام الجماهير وبالتالي تنفى تدريجيًا عن الآخرين.

حركات

- 1 - وجوب استخدام التخفي والتمويه لتحقيق خطة التمكين كما فعل الرسول (ﷺ) ولا يعني في الخفاء أن يكون على الوسائل لأن هذه المرحلة انتهت أسبابها ودخلنا مرحلة العمل العلني ولكن التخفي والتمويه يكون في الأهداف والغايات لا في الوسائل.
- 2 - استخدام المرحلة أي التدرج في الخطوات، والمرحلة تعني إقامة محطات الدعوى كما فعل الرسول (ﷺ)، المرحلة الأولى لفتح مصر:

الحركة

- 1 - إقامة قنوات اتصال بين الإخوان والحزب الحاكم وبشخصيات نافذة في العمل السياسي وقد تم هذا الأمر وتم وضعه في الاعتبار وهو في إطار التنفيذ والاستفادة من هذه القنوات في إتاحة أكبر هامش من الحرية لحركة الإخوان في الشارع.
- 2 - استخدام طريقة المسكنات والمهدئات مع النظام الحاكم وباقي المؤسسات والأحزاب المدنية.
- 3 - شغل الرأي العام بالإخوان واستخدام النقد الإعلامي الذي يتم توجيهه لنا في خلق حالة من التعاطف حولنا.

- 4 - استشار التعديل الدستوري وانتخابات الرئاسة في إثارة حالة من الجدل حول الإخوان.
- 5 - الاستفادة من حالة «الامتداد الإعلامي» والميديا العالمية في خلق مساحة من الحرية لحركة الإخوان في المجتمع.
- 6 - الدفع بعدد كبير من الإخوان لخوض الانتخابات البرلمانية والاستفادة من هذا في طرح اسم الإخوان والشعار على أوسع نطاق والإعلان عن إنشاء مكاتب إدارية للإخوان في المحافظات.
- 7 - إثارة حالة من الجدل حول شعار الإسلام هو الحل واسم الإخوان والمصحف والسيفين.
- 8 - تجريح المخالفين واتهامهم بالرشوة والعمالة لتحديد معظم المختلفين وإسكات البعض الآخر.
- 9 - موالاة اختراق المؤسسات الصحفية خاصة الحكومية منها والتوافق مع المؤسسات المستقلة.
- 10 - استشار الانتخابات في الدعوة والترويج لجمعية الحل الإسلامي وعالمية الدعوة واستخدام المساجد على أوسع نطاق.
- 11 - استخدام النقابات المهنية والمنظمات المدنية في خلق هامش كبير للحركة.
- 12 - ديمومة الاتصال بحركات حقوق الإنسان الدولية.

انتهى الجزء الأول

توقيع / خيرت الشاطر نائب المرشد

وأكثر الأشياء وضوحًا في هذه الخطة هو ما يتعلق بالتخفي والتمويه،
التخفي والتمويه هنا يتعلق - كما قالت الخطة - في الأهداف، وهذه هي
التقية بصورتها الشيعية!

كانت هذه الخطة هي الطريق المنهجي للإخوان لفتح مصر، لذلك لم
يتورع الإخوان عن تزوير انتخابات مكتب الإرشاد عام 2009، وقد أنكر
الإخوان التزوير ولكن الدكتور محمد حبيب⁽¹⁾ والدكتور إبراهيم الزعفراني⁽²⁾
فضحا هذا التزوير وأثبتاه من خلال مناقشات حامية مع قيادات الإخوان
وبالأخص مع محمود عزت نائب المرشد.

وعندما وعد مرشد الإخوان محمد بديع الشعب المصري بأنه لن يترشح
أحد من الإخوان في انتخابات الرئاسة، بل قامت الجماعة بفصل ابنها
عبد المنعم أبو الفتوح لأنه خالف قرار الجماعة وقرر خوض الانتخابات،
إذا بالجماعة بعدها تقرر خوض انتخابات الرئاسة بمرشح أصلي هو خيرت
الشاطر وآخر احتياطي هو محمد مرسي الذي أصبح فيما بعد رئيسًا، وهو
الأمر الذي يعتبر نكولًا عن الوعد. كتب أحد شيوخ الإخوان ويدعى الشيخ
فوزي شداد ينشر في موقع إخوان أون لاين يوم 21 / 4 / 2011 دراسة
شرعية تدور حول جواز النكول عن الحلف والوعد ثم أداء الكفارة، وفي

(1) نائب سابق لمرشد الإخوان، استقال من الجماعة عقب قيام بعض قيادات الجماعة بتزوير انتخابات
مكتب الإرشاد للإطاحة به من عضوية المكتب ومن ثم قطع الطريق عليه حتى لا يصل لموقع
المرشد.

(2) عضو سابق بمجلس شورى الجماعة استقال منها عقب تزوير انتخابات مكتب الإرشاد ومجلس
شورى الجماعة.

الدراسة استدلالاً فقهية فاسدة في غير موضعها مثل (جواز الصلح مع غير المسلمين أو إيهامهم بالصلح للحصول على منفعة منهم بذلك) واستدلّ الباحث الإخواني في دراسته بأن الرسول ﷺ تصالح في غزوة الخندق مع قادة غطفان على أن يمنعوا عنه الكفار من ناحيتهم على أن يعطيهم ثلث ثمار المدينة، ثم نكل الرسول ﷺ عن وعده لأن الصحابة لم يوافقوا على هذا الوعد!! والاستدلالات طبعاً في غير موضعها والقياس فيها فاسد؛ لأن فقه الحرب مع الكفار يختلف عن فقه السلام والدولة المسلمة إلا إذا كانوا يعتبرون أن مصر ليس فيها إسلام وأنها دولة حرب مع المسلمين (الإخوان)!

وفي 2010 قبل ثورة يناير صرح المرشد محمد بديع في برنامج العاشرة مساءً بأن «مبارك أب لكل المصريين وأنه لا يمانع في أن يرشح جمال مبارك نفسه للرئاسة» رغم أن المظاهرات كانت قد انتشرت في الشارع المصري رافضة مسلسل التوريث.

وفي الفترة الانتقالية التي أدار فيها المجلس العسكري والمشير طنطاوي شئون البلاد خرج الإخوان في جمعة 29 يوليو 2011 - يهتفون له «يا مشير يا مشير ألف تحية من التحرير» وأيضاً «يا مشير يا مشير..م النهارده انت الأمير» وعندما وصل مرسى للحكم وحانت له لحظة تمكن قام بالإطاحة بالمشير طنطاوي رئيس المجلس الأعلى للقوات المسلحة ووزير الدفاع، فلم ينل المشير مع الإخوان إلا الطرد والإقصاء.

كانت هذه انتقالات قصيرة - على قدر الإمكان - لبيان أن الإخوان

يؤمنون بتقية الشيعة، لا التقية الشرعية التي هي من الفروع عند أهل السنة وهي رخصة ولا تمارس إلا مع الكفار.

وإذا كان اعتناق الإخوان لمناهج الشيعة فإن ذلك كان بسبب شخصية البنا وإحساسه بذاته، وشعوره بأنه إمام مهدي أرسله الله ليصحح للأمة إسلامها، فإذا كان هذا هو الذي دفع البنا للتأثر بالشيعة، فما هو رأي الشيعة في حسن البنا؟

الفصل السابع

الغزل السياسي الرفيع

قدّم «المرشد» حسن البنا للشيعة هدية هي الأقيم عبر تاريخهم، ساعدهم في إنشاء دار لتقريب السنة إليهم، فتح الأبواب لهم من خلال هذه الدار، فكان أن وافق الأزهر بعد سنوات من فتح هذه الدار - من خلال الشيخ محمود شلتوت - في فتوى هي الأغرب عبر التاريخ، على مذهب الإمامية الإثنا عشرية واعتباره من مذاهب السنة!! لذلك فقد حصل حسن البنا على مكانة كبيرة عند الشيعة، مكانة سامقة لم يصل إليها أحد من أهل السنة في عيون الشيعة، وحين أصبح آية الله الخميني قائدًا لإيران بعد الثورة بحث عن لقب سياسي لنفسه فلم يجد أفضل من لقب المرشد كشكل من أشكال رد الصنيع للبنا والإخوان، وكان اختياره لهذا اللقب بمثابة رسالة شكر للإخوان، وكأنه يقول لهم ول مؤسسه البنا: «نشكركم لحسن تعاونكم معنا».

رد الشيعة الهدية للإخوان بأحسن منها، فقد سمحوا للإخوان بإنشاء تنظيم لهم في إيران، وجعلوا كتب سيد قطب من المناهج الدراسية لطلبة الحرس الثوري فيما يتعلق بدروس العقيدة، وأصدروا التصريحات المتتالية التي تحمل قدرًا كبيرًا من العرفان لجماعة الإخوان، بيد أنهم لم يكتفوا بهذا

قالود المتبادل يحتم عليهم استمرار الغزل، والأيام تجري بينهما بالماء العذب الفرات، والدنيا تفتح لهم أبواب الحكم، والحكم له ضروراته، وتوابعه، وتنازلاته، وزلاته؛ لذلك قامت إيران الرسمية بتوجيه الشكر لحسن البناء، عبر أحد دبلوماسييها الكبار، لم يكن هذا الدبلوماسي ممثلاً لنفسه حين قدم آيات العرفان للبناء، ولكنه كان يمثل شيعة إيران، ففضلاً عن أنه أحد كبار الدبلوماسيين هناك، إلا أنه كان أيضاً أحد أكابر رجال الدين بها، وقبل أن ندخل إلى خطاب الشكر الذي كتبه هذا الدبلوماسي الشيعي الكبير والذي تنضح منه مشاعر الحب والتقدير، يجب أن نعرف من هو صاحب هذا الخطاب؟ وما هي مرجعيته؟ وما هي قصته؟

«سيد هادي خسرو شاهي» أحد كبار سفراء إيران في العالم، كان منذ سنوات قليلة رئيساً لمكتب رعاية المصالح الإيرانية في مصر، عاش فيها عدة سنوات وتقابل مع قيادات جماعة الإخوان ومرشدها مصطفى مشهور أكثر من مرة، ثم التقى بالمرشد السادس مأمون الهضبي عدة مرات، كانت اللقاءات تتم أحياناً في مقر جماعة الإخوان الذي كان كائناً آنذاك في حي النيل، إلا أن معظم اللقاءات كانت تجري ليلاً في فيلا مملوكة لأحد قيادات الإخوان منشأة حديثاً في حي «التجمع الخامس» الذي يقع شرق القاهرة، لم يعلم أحد طبيعة هذه اللقاءات، أو ما الذي كان يتم فيها، وما هي الاتفاقات التي كانت تجري بينهما على قدم وساق، إلا أن تصريحات الإخوان المتتالية المؤيدة لمواقف إيران السياسية كانت تكشف عن نجاح سيد هادي خسرو شاهي في مساعيه الدبلوماسية.

عام 1938 وفي مدينة تبريز عاصمة أذربيجان الشرقية ولد «سيد هادي

خسرو شاهي» لأب من رجال الدين، شُبَّ خسرو عن الطوق في مدينة ذات تاريخ تحيط بها من جهة الجنوب جبال لها طبيعة خاصة، تكسوها الثلوج طوال العام، كانت عائلته تتشكل من نخبة من رجال الدين الشيعة، وهي تنحدر من أولئك الصفويين الذين نصبوا المذابح لأهل السنة في إيران كي يجبروهم على الدخول إلى طوائف الشيعة، يقول ياقوت الحموي في كتابه المعروف «معجم البلدان» عن مدينة تبريز: (تبريز: هي أشهر مدُن أذربيجان وهي مدينة عامرة حسناء ذات أسوار محكمة بالآجر والجص، وفي وسطها عدة أنهار جارية، والبساتين محيطة بها، والفواكه بها رخيصة. وعمارتها بالآجر الأحمر المنقوش والجص على غاية الإحكام. وكانت تبريز قرية حتى نزلها الرواد الأزدي المتغلب على أذربيجان في أيام المتوكل، ثم إن الوجناء بن الرواد بَنَى بها هو وإخوته قصورًا وحصنها بسور فترها الناس معه، ويعمل فيها من الثياب والنسيج ما يُحمل إلى سائر البلاد شرقًا وغربًا، ومر بها التتار لما خربوا البلاد في سنة 618 فصالحهم أهلها ببدول بذلوها لهم فنَجَّت من أيديهم وعصمها الله منهم).

ومن أسف فإن تبريز مدينة خسرو شاهي كانت من أوائل المدن الإيرانية التي وقعت في يد الصفويين فأعملوا فيها القتل والذبح حتى يجبروا أهلها على «لعن أسيا دنا عمر بن الخطاب وأبو بكر الصديق وعثمان بن عفان» بالإضافة إلى أمنا «السيدة عائشة رضي الله عنها».

ومن عجب أن هذه المدينة فتحت أبوابها للصفويين عن حسن نية ودون قتال، بحسب أنهم ظنوا أن الصفويين من المسلمين، وكان عدد سكان تبريز وقتها يبلغ مائتي ألف كلهم من أهل السنة، يتكلمون باللهجة «الأذرية»

التي هي إحدى اللهجات الفارسية القديمة، وحين دخل الشاه إسماعيل الصفوي الجامع الكبير بالبلد وصعد إلى المنبر، وجوشه تحيط بالمكان وتعج في الجامع بسيوفهم المشرعة، إذا به يطلب من المسلمين المصلين أهل السنة أن يتركوا ما هم عليه ويتبرءوا من أهل السنة، ويدخلوا إلى الطوائف الشيعية، ولكن المسلمين بالمسجد هالهم الأمر، واستقبحوا هذا الفعل، إلا أن أتباع الشاه إسماعيل الصفوي الواقف على المنبر محتمياً بجنوده وجبروته بادروا بلعن الصحابة والسيدة عائشة جهرة وبأصوات منكرة، فوضع أهل المدينة أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعوا هذا اللعن القبيح، وعندما أراد عدد من كبار العلماء الخروج من الجامع احتجاجاً على هذا المروق من الدين فإذا برجال إسماعيل الصفوي يعملون القتل فيهم، وأصبح الجامع موضعاً، لا للصلاة، ولكن لمذبحة كبيرة ظل التاريخ يذكرها حتى الآن، وفي اليوم التالي استمر القتل حتى قُتل أكثر من عشرين ألف مسلم سني، ومن بعد ومن خلال أعمال التنكيل أصبحت مدينة تبريز شيعية، وأستطاع الصفويون قهر أهل السنة في إيران كلها وتحويلها إلى دولة شيعية.

في تلك المدينة كانت أيام هادي خسرو شاهي، شهدته شوارعها وهو بحث الخطى ذاهباً إلى دروس العلم، يتلقاها من المراجع الشيعية الكبار، وشهدت جبالها رحلاته إليها إذ كان عاشقاً للتسلق وكأنه يضع لنفسه تاريخاً سيكون ذات يوم، سيظل هذا الرجل مثابراً على عقيدته مدافعاً عنها، منافحاً عن أولئك الذين وقفوا مع شيعته، وكأنه يتسلق جبلاً يبتغي من خلاله الوصول بالشيعية إلى قمة العالم.

كان خسرو يرتدي منذ شبابه الأول عمامة سوداء، وللعمامة السوداء

رمزية لدى الشيعة، فمن يرتديها إنما يشير إلى أنه أحد أحفاد سيدنا علي بن أبي طالب، ولذلك فإن كل واحد منهم أيضًا كان يُلقب بالسيد مثلما يتلقب أهل السنة من أحفاد الرسول ﷺ بـ «الشريف» ومن أجل هذا أيضًا ظل لقب السيد هو اللقب الملازم لهادي خسرو حتى الآن إذ لم يقبل استبداله بأي لقب آخر من تلكم الألقاب التي تمنح لمن يشغلون مواقع سياسية أو تنفيذية، فإذا ما أصبح أحد أحفاد سيدنا علي - من الشيعة - رجلًا من رجال الدين كان له آنذاك أن يضع على رأسه عمامة سوداء كي يعلن عن نسبه الذي ينتمي إليه، أما باقي رجال الدين الذين لا يحظون بهذا النسب فإنهم يضعون على رؤوسهم عمامة بيضاء.

وفي غضون عام 2001 جاء هادي خسرو إلى مصر كي يعمل رئيسًا لمكتب رعاية المصالح الإيرانية، ولكنه لم يبدل ثيابه، ولم يرتد الملابس الإفرنجية، بل ظل بزيه الشهير الذي لا يرتديه إلا رجال الدين الشيعة من أحفاد سيدنا علي، وكانت العمامة السوداء هي العمامة التي اشتهر بها خسرو في مصر حتى بات يعرف بين المثقفين ورجال السياسة بالرجل صاحب العمامة السوداء.

تأثر خسرو شاهي بشخصية «جمال الدين الشيعي» الشهير بالأفغاني، ودرس حياته وكتب عنه، بل ظل أكثر من خمسين عامًا يجمع آثار الأفغاني الفكرية والحركية مثل: مجلة العروة الوثقى والرسائل والكتب والمقالات، واستطاع خسرو شاهي في النهاية أن يصدر من القاهرة عام 2002 موسوعته الكبيرة التي اشتملت على تسعة أجزاء في سبعة مجلدات بعنوان «الآثار الكاملة للسيد جمال الدين الحسيني الأفغاني» وفي ذات الوقت ظهر

تأثر خسرو شاهي بتقي الدين القمي الذي أنشأ مع حسن البنا دارًا للتقريب السنة من الشيعة، وجد خسرو أنه يجب أن يكمل المسيرة، فها هي الفرصة سانحة، فالأصدقاء يمدون أيديهم، وبعض الإخوان ترك المذاهب السنية والتحق بالشيعة دينًا ومذهبًا، فها هو أحد أقطاب الإخوان القدماء المستشار الدمرداش زكي العقالي⁽¹⁾ الذي كان متيًا بحسن البنا وتاريخه، ها هو يصبح شيعيًا كبيرًا له تقديره في المجتمع الإيراني بل يصبح المسئول الأكبر عن شيعة مصر، ومن بعده الدكتور أحمد راسم النفيس⁽²⁾ الذي ظل ولا يزال يمارس نشر العقائد الشيعية في مصر بدأب وإصرار كبيرين، وأحمد راسم النفيس لم يكن واحدًا عاديًا من عوام المسلمين ولكنه كان من زعماء طلبة الإخوان المسلمين في الجامعة في السبعينيات من القرن العشرين، ومع فريق من الشيعة المصريين من أصحاب الجذور الإخوانية كانت هناك جماعة الإخوان الأم التي كانت تمارس أنشطتها بشكل مستمر رغم التضييق الأمني والسياسي في بعض الأحيان، واللقاءات المحرمة تتم ليلاً في التجمع الخامس الذي كان منطقة نائية وقتئذ، وفي أذهان الجميع دار التقريب التي يراهنون على أنها ستؤتي ثمارها، ولن يجني الشيعة هذه الثمار إلا بالتوافق مع الإخوان والاتفاق معهم، فهم حلفاء أمس وما زال الحلف قائماً بينهما.

(1) يشكل المستشار الدمرداش العقالي الزعيم الروحي للشيعة في مصر، حالة فريدة على الساحة الإسلامية فالرجل كان رئيسًا لمحكمة الاستئناف وعضوًا بمجلسي الشعب والشورى، ونائبًا لرئيس حزب العمل المصري قبل إغلاقه ومستشارًا للرئيس السابق حسني مبارك، نشأ الدمرداش العقالي وتربى في كنف حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمين، ومع ذلك فقد فاجأ الجميع بتحويله من التسنن إلى التشيع، وفي كل حواراته يعتبر أن البنا هو أستاذه ومعلمه وصاحب الفضل عليه.

(2) أحمد راسم النفيس طبيب مصري كان رئيس اتحاد طلاب كلية الطب بجامعة المنصورة عن الإخوان المسلمين من عام 1975 : 1977 وهو حاليًا من أبرز شيعة مصر ومن أكثر المتحمسين لنشر مذهب الإمامية الإثنا عشرية.

ومن أجل مسيرة «التقريب» أو بمعنى أصح «التميع» أصدر خسرو شاهي وهو في القاهرة كتابين عن عقيدة الشيعة، ثم نشر كتابًا لأستاذه الشيعي «آية الله ناصر مكارم الشيرازي» وهو كتاب يرفع من قدر عقيدة الشيعة الإمامية ويجعلها أنسب العقائد للمسلمين، وقد كتب خسرو شاهي مقدمة لهذا الكتاب عبر فيها عن فكره وطريقته، إذ قال في المقدمة: إنه يرجو أن يكسر هذا الكتاب الحواجز النفسية والعقلية بين السنة والشيعة، كان خسرو في مقدمته يتمنى أن يتقبل أهل السنة عقيدة الشيعة الإمامية الإثنا عشرية قبولًا حسنًا، ولكي يثبت خسرو للإخوان أن الشيعة يضعون حسن البناء في منزلة عليا فقد قام بترجمة الكتاب الشهير لريتشارد ميشيل «تاريخ جمعية الإخوان المسلمين من البداية إلى الآن» إلى اللغة الفارسية، وقد ظل خسرو عاكفًا على هذه الترجمة عدة سنوات، كما كتب كتابًا عن البناء بالفارسية تحت عنوان «الإخوان المسلمون أكبر حركة إسلامية معاصرة» حيث اعتبر في كتابه هذا أن جماعة الإخوان هي أنضج حركة سنية عبر التاريخ، وأعطاهما مقامًا كبيرًا بسبب أن البناء ساهم في إنشاء دار التقريب مع تقي الدين القمي!

نستطيع القول إذن: إن هادي خسرو شاهي هو الامتداد الشيعي لمحمد تقي الدين القمي، وهو من وضع بصمة جديدة لكي تستمر دار التقريب في فاعلياتها، من أجل هذا جاء خسرو إلى مصر عام 2001 وظل بها ثلاث سنوات حيث أتم كامل الاتفاقات مع جماعة الإخوان كي تستكمل مسيرة التقريب، ولكن أي تقريب هذا الذي يرجونه، هل تقريب الشيعة من السنة، هل ساروا قدمًا في التوقف عن سب الصحابة، هل تركوا القول بعصمة

الأئمة؟ مسيرة التقريب التي بدأها حسن البنا مع تقي القمي كانت تسير في اتجاه واحد، اتجهوا إلى إيران، أما الطريق إلى مصر ونجد والحجاز فمسدود، هذا طريق من طرف واحد، والطرق ذات المسار الواحد هي دائماً طرق لا تعرف قبول الآخر.

وفي عام 2006 كانت قد مرت مائة عام على مولد حسن البنا، لم يفوت قائد التقريب الجديد الفرصة، بل جعلها مناسبة مناسبة لإعادة زرع فكر التقريب ذي الاتجاه الواحد، فرصة لكي يستمر إخوان البنا في الاقتراب من شيعة الخميني، آنذاك كتب هادي خسرو شاهي دراسة طويلة عن حسن البنا وعلاقته بالشيعة، لم يكتب خسرو هذه الدراسة باعتباره واحداً من المثقفين أو المهتمين بالحركة الإسلامية، ولكن بصفته وقتها كرئيس لمركز البحوث الإسلامية ومستشار وزير الخارجية الإيرانية، كانت الصفة حاضرة بقوة في الدراسة التي كانت عبارة عن غزل سياسي رفيع، وقد جاءت على النحو الآتي:

مقدمة

يصادف العام الميلادي 2006 الذكرى السنوية المئوية لمولد الشيخ حسن البنا المؤسس والمرشد لجمعية الإخوان المسلمين في مصر... وبهذه المناسبة، إضافة إلى المراسم الخاصة التي أقيمت في مصر وبعض البلدان العربية أقامت «الجماعة الإسلامية» في باكستان كذلك مراسم خاصة، وأصدرت كتاباً خاصاً حول الإمام حسن البنا والإخوان المسلمين.

قبل أشهر، كان الزعيم والمرشد للجماعة الإسلامية الباكستانية مولانا «القاضي حسن أحمد» قد جاء إلى طهران للمشاركة في ندوة من الندوات

وطلب مني نظرًا إلى الاهتمام والمعرفة التي تتوافر لديّ في هذا المجال، إعداد مقال وإرساله إلى باكستان كي تتم ترجمته إلى لغتي الأردو والإنجليزية لطبع في الكتاب الخاص الذي يصدر بهذه المناسبة... أعددت هذا المقال بهذه المناسبة وأرسلته إلى الجماعة الإسلامية في باكستان، والآن قد أرى من المناسب أن يتم نشر الترجمة العربية لهذا المقال لزيادة معرفة الشعوب المسلمة، بالشيخ حسن البنا وأفكاره وأهدافه.

ميلاد النور

يفصل بين ولادة الشيخ حسن البنا حتى يوم استشهاده (1906 - 1949) أربع وأربعون عامًا من الجهود والعمل والجهاد والحياة الصاخبة والمثمرة، وقد دخل الشيخ البنا المعترك السياسي والمجتمع وهو يحمل نفسية «صوفية جهادية» وعند تشرفه بالشهادة خرج هذا المجاهد البطل من مسرح الحياة حسب الظاهر، لكن التأثير المعنوي والثقافي الذي تركه في العالم الإسلامي والعربي مازال باقياً، ويشكل تراثه الفكري منارة للإخوان المسلمين. كان الشيخ حسن البنا الذي ينبغي اعتباره بحق أحد الدعاة من أهل القبلية في عصرنا، النموذج النادر للقادة السياسيين والمفكرين الدينيين الذين لم يألفوا التعب والملل في نشر وترويج الفكر الإسلامي ومعارفه.

وكان الشيخ حسن البنا مصلحاً اجتماعياً وزعيماً دينياً وكان يشكل محوراً لفكر وحركة مختلف الفئات والأطراف في المجتمعات الإسلامية والعربية، وقد أسس في فترة زمنية قصيرة منظمة ومؤسسة إسلامية ما زالت تعتبر عاملاً رئيسياً ومؤثراً في التيارات السياسية والفكرية في العالم الإسلامي

والعربي... المنظمة التي مازالت تعتبر عنصراً جديراً بالاهتمام في المعادلات السياسية في مصر.

كان الشيخ حسن البنا يتمتع بقوة خارقة في تعبئة الشعب المصري المسلم وتنظيمه، وكان المثال المطلوب للعالم الإسلامي والزعيم الفكري والحركي، ويشهد معاصروه من الباحثين السياسيين والمؤرخين بنبوغته وقوته الخارقة في قيادته التنظيمية العالية.

وقد جعلته خبراته منذ فترة حدائته يحضر المجالات الثقافية والمؤسسات الاجتماعية والجمعيات الخيرية والدينية مرشداً وزعيماً، ونيراً ويقظاً وواعياً ذا أثر فاعل في التحولات السياسية والاجتماعية والثقافية في بلاده.

واقترنت سوابق حضوره في جماعة السلوك والأخلاق وجماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر و«طريقة إخوان الحصافية» بخبرات قيمة تركت تأثيراً بالغاً في بلورة شخصيته باعتباره زعيماً ومؤسساً.

في عهد حدائته تزعم حسن البنا «جمعية الحصافية للبر» وذلك من أجل صيانة الأخلاق الإسلامية في المجتمع المصري المسلم، والتصدي لفعاليات الهيئات التبشيرية الدينية الغربية التي أوفدت إلى البلاد العربية للتبشير بالمسيحية، في عام 1927 لعب الشهيد حسن البنا دوراً محورياً في تأسيس «جمعية الإخوان المسلمين» وفي الثانية والعشرين من عمره أسس جمعية الإخوان المسلمين مع ستة من زملائه.

كان للشيخ حسن البنا منذ شبابه حضور في التربية والتعليم في مصر باعتباره معلماً للغة العربية ومربيّاً للأخلاق والمعارف الإسلامية، وقد أكمل في

هذا المنحى مهاراته وفنونه في نشر وتعليم الديانة الإسلامية وأحكامها، مما ترك ذلك الأثر في تكوينه الفكري وقدراته النفسية والشخصية، وبعد معرفته وتعاونه مع كل من «محب الدين الخطيب» و«الشيخ رشيد رضا» تكاملت شخصيته العلمية والمعرفية، كما ألَّفَ فنون الصحافة وقوانين العمل في الأجهزة الإعلامية من خلال عمله في الصحافة المرتبطة بالتيار الإسلامي آنذاك.

والعجيب أنه لم يتأثر بالأساليب المتطرفة لتلك الشخصيتين حول المذاهب الإسلامية، سواء في فترة تعاونه معها أو بعدها، وجعل الطريقة المنطقية للتقريب والتألف بين المذاهب الإسلامية ضمن برامج الحركة.

وبات حسن البنا من خلال تنظيمه الدقيق ونشره لأسبوعية المطبوعات الإسلامية يشكّل الطليعة والرائد للأجهزة الإعلامية والنشريات الإسلامية الملتزمة، وكانت نشرات الإخوان المسلمين تلعب دوراً أساسياً في الاهتمام بالصحوة «للمرأة المسلمة» وتنظيم المرأة المسلمة في تشكيلات «الأخوات المسلمات» من جانب حسن البنا، والتي كانت تُدار بناء على دعوته بإشراف السيدة زينب الغزالي، والتي كانت من مؤشرات أفكاره النهضوية الشاملة.

وفي مجال الكفاح وحركة النضال ومعاداة الاستعمار البريطاني والفرنسي في البلدان العربية، كان حسن البنا ومنظمة الإخوان المسلمين دائماً حاضرين وفاعلين وفي الخط الأمامي لمواجهة الأعداء، ويكفي أن نشير إلى ذكائه هذا وبعد النظر الذي كان يتحلى به بأنه قد عاصر اثنتي عشرة وزارة من الحكومات المصرية، وكان تعامله وسلوكه مع أية واحدة منها بما يتطابق وينسجم مع

المقتضيات الزمنية، وكانت قضية فلسطين وضرورة تحريرها من نير وهيمنة الصهاينة تحتل موقعاً محورياً في الفكر السياسي لحسن البنا. وكان البنا يؤكد دائماً أن القضية الفلسطينية هي قضية المسلمين كافة في العالم، وكان يرى أن بريطانيا والصهاينة يفهمون لغة واحدة وهي «لغة الثورة وقوة الأسلحة».

وقد أصدر حسن البنا باعتباره المرشد للإخوان المسلمين في السادس من شهر آيار عام 1948 م فتوى «الجهاد المقدس» لتحرير فلسطين، وعباً كتائب المجاهدين وقام بتنظيمها في كافة أرجاء العالم العربي - وخاصة في مصر وسوريا والأردن والعراق - ولولا خيانة الحكام وقيادات الأنظمة العربية لكان المسلمون قادرين على قمع الصهاينة وتحرير فلسطين منهم... وفي أعقاب حضور المجاهدين من الإخوان المسلمين في الحرب ضد الصهاينة ودفاعهم البطولي عن الأراضي الفلسطينية المسلمة ازدادت المؤامرات والدسائس ضد حسن البنا وتنظيمه، وقد دفعت ضغوط بريطانيا الحكومة المصرية إلى إصدارها قراراً بحل تنظيم الإخوان المسلمين، وتم بذلك استدعاء كافة القوى المحاربة والمجاهدة من الإخوان المسلمين من جبهات الحرب ونزع أسلحتهم، وبعدها بفترة وجيزة استشهد حسن البنا بتاريخ 12 فبراير شباط عام 1949 على أيادي مرتزقة الحكومة الدائرة في التبعية الاستعمارية، وكان حسن البنا في الواقع شهيد دفاعه عن القضية الفلسطينية وكفاحه ضد المستعمرين، لكن العناصر الدائرة في التبعية البريطانية والأمريكية تمكنت حسب الظاهر من اغتيال الشيخ حسن البنا إلا أنها لم تفلح في اغتيال فكره ومسار حركته أو إيقافها، وما زالت الشجرة المباركة التي زرعها الشيخ البنا تنمو وتؤتي ثمارها.

مكانته في التيارات الإسلامية

كان نشاط حسن البنا ونهضته في المبادئ ومفاهيمها المطروحة في الواقع مكماً للتيار الإسلامي السابق له، والذي كان قد بدأه السيد جمال الدين الحسيني المعروف «بالأفغاني» في أواخر القرن التاسع عشر؛ فالسيد جمال الدين سافر إلى مصر مرتين وأقام في القاهرة؛ واشتغل بالتدريس واهتم بتربية الأفراد وإلقاء الخطب في المحافل والجامع الثقافية، وقد أوجد حركة فكرية عظيمة هناك، وله دور قيادي في تشكيل أو تحريك المحافل المثقفة في مصر وفي باقي البلدان العربية، ويؤكد معظم المؤرخين والباحثين في تاريخ الحركة الإحيائية الإسلامية على دور السيد جمال الدين، فالسيد استطاع بنوغة الخارق في فترة قصيرة جمع الكثير من التلاميذ والمريدين له حول الأفكار الإحيائية الإسلامية، وتأسيس حركة الصمود الشاملة، ويمكن تلخيص مبادئ هذه الحركة في:

1 - «الالتزام والتعهد بمبادئ الدين الإسلامي الحنيف وانتهاج طريق السلف الصالح للأمة الإسلامية».

2 - تحرير وخلص الأمة من الاستبداد الداخلي والخارجي.

3 - استيعاب العلوم والفنون الحديثة من أجل كسب الاقتدار للأمة الإسلامية.

وكان السيد جمال الدين الحسيني قد اعتبر الجهل والتوجه الخرافي للمسلمين وابتعاد العالم الإسلامي عن الحركة الحضارية والعلوم الحديثة الأساس في انحطاط هذه الأمة. ولذلك كان يدعو علماء هذه الأمة إلى تعبئة طاقاتهم وتشجيع المجتمع الإسلامي لخلاصه من الجهل والخرافات.

وقد أكد السيد جمال الدين الحسيني في حركته كثيرًا على ضرورة المواجهة والمقاومة للاستبداد الداخلي والاستعمار الخارجي. وفي الواقع كان لجهوده وأفكاره دورٌ أساسيٌّ في تكامل الفكر الإسلامي. وكان مشروع الإسلام التحرر من «قيود التقليد الأعمى» والتأكيد على فتح «باب الاجتهاد» ومشروع «الإسلام السياسي المناضل» والمعارض للطغيان والاستبداد الداخلي والخارجي من نتاجات أفكاره والتي كانت مؤثرة في حركة التيارات الإسلامية المستقبلية.

كان الشيخ محمد عبده تلميذًا وزميلًا للسيد جمال الدين الحسيني باعتباره مصلحًا اجتماعيًا وثقافيًا ومكملًا لمسار السيد جمال الدين في دخوله معترك الحركة الإسلامية، وقد أثرى بإصلاحاته الثقافية والتعليمية الحركة الإسلامية وعمل نحو تكاملها.

وكان للشيخ محمد عبده حضور فاعل في مختلف شئون حياة المجتمع المصري وبلدان شمال إفريقيا؛ كتونس والجزائر والمغرب وسوريا ولبنان. وقد أثمرت أفكاره نتائج طيبة وخالدة في البرامج الإصلاحية التي أجريت في جامعة الأزهر المصرية. وكما يقول حسن البنا في كتاب مذكراته الذي جاء باسم «مذكرات الدعوة والداعية» بأنه جاء بعد السيد جمال الدين الحسيني والشيخ محمد عبده ليواصل مسار الحركة الإصلاحية الإسلامية وطريقاتها. وكان حسن البنا تلميذًا لمحِب الدين الخطيب والشيخ رشيد رضا صاحب تفسير المنار، وتلميذًا خاصًا للشيخ محمد عبده.

حسن البنا وحركة الإخوان المسلمين هما اسمان مترابطان لا ينفصلان عن

بعضها أبدًا. لعب حسن البنا باعتباره المرشد والمصلح والمعلم من خلال عرضه النظريات الإسلامية دورًا بارزًا في إثراء الحركة الإسلامية والتيارات الإسلامية السياسية. وما من شك كان للإخوان المسلمين باعتبارهم الرياديين بين الأحزاب والمنظمات الإسلامية في القرن العشرين دور قيم في تنامي الحركة الإسلامية، وضرب الأسس الثقافية الغربية والعلمانية في العالم العربي والإسلامي.

ويعتبر حسن البنا في التاريخ الإسلامي والعربي المعاصر، أكبر شخصية إسلامية. وقد كُتبت حوله وحول آثاره وأفكاره الكثير من الكتب والدراسات وما زال البنا إلى اليوم وبعد مرور 75 عامًا على تأسيس حركة الإخوان المسلمين رائدًا وقائدًا، وما من شك لعبت البحوث ونقد الأفكار ودراسة الأبعاد الشخصية لحسن البنا؛ دورًا مؤثرًا في تطور الفكر السياسي الإسلامي وتقدمه. وبالرغم من العمر القصير لحسن البنا كان له الدور في بلورة التيارات السياسية والإسلامية في مصر وباقي البلاد العربية وإن التشكيلات التي نظمها في عام 1928 م مع ستة من زملائه، مازالت موجودة رغم عمليات القمع والإعدامات والضغط وحالات الكبت والاستبداد الممارس من جانب الحكومات المتتالية؛ منذ حكم الملك فاروق وكانت ولا تزال من ناحية الرأي العام منافسة للحزب الحاكم في البرلمان المصري، ولولا دسائس ومؤامرات الدوائر الغربية وتعاون الاستبداد الداخلي معها لكان تيار الإخوان المسلمين يسيطر على قيادة المجتمع في مصر، بل وكان يحظى بالسيادة والاقتدار في البلدان العربية وباقي البلدان الإسلامية كذلك.

وقد ترك حسن البنا في المجال الفكري والعملية آثارًا وأفكارًا يمكن الإشارة إلى موجز منها على شكل مفهرس كمايلي:

مفهوم الإصلاح: يرى حسن البنا أن الإصلاح يجب أن يحظى بشكل ومحتوى محلي ولا يكون تقليدًا للغرب ومفاهيمه وفلسفته. لأنه كما يعتقد أن النظريات والأنماط والنماذج الغربية لا تنطوي على الفاعلية اللازمة في المجتمعات الشرقية.

مفهوم الحركة: ينطوي مفهوم الحركة في فكر حسن البنا على مكانة واسعة كما يرى حسب وجهة نظره أن لهذا المفهوم ثلاثة أركان أساسية وهي عبارة عن:

النموذج المفضل: يرى البنا أن هذا المثل هو القرآن الذي يشكل أساسه الإيمان بالله المتعال. كما يرى أن الأمة الإسلامية تبلغ سيادتها الكاملة عندما تؤمن بالله عز وجل.

القوة المادية: يرى أن حركة الأمة الإسلامية لا تتكامل ولا تنتصر إلا في حالة بلوغها القوة المادية في مختلف جوانبها: كونوا أقوياء ما استطعتم وأعدوا أنفسكم ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ وهذه الآية الشريفة موجودة في علامة الإخوان المسلمين ومرسومة بشكل بارز فيها.

الاقتدار المعنوي: إنه لا تكتمل أركان الحركة الإسلامية إلا بحصول تغيير في الذات. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

إذن ينبغي البدء بأنفسنا وبعدها التفكير بتغيير المجتمع.

الدين والسياسة: إن الإسلام يستجيب للمقتضيات الزمنية والمشاكل المعاصرة؛ ولذلك كان يعارض بوضوح نظرية فصل الدين عن السياسة ويقول: «إننا نعارض وجهة نظر الدكتور طه حسين والآخرين ممن يؤمنون

بنظريات «فصل الدين عن السياسة» و«الدين عن الوطنية» ونؤمن بأن الإسلام لا يتعارض مطلقاً مع السياسة والعلم والتوجه الوطني».

البنى التحتية السياسية للحركة: بحث عن البنى التحتية للهيكلية السياسية لتشكيل حركة عالمية إسلامية وكان يرى أن القواعد الأساسية لهذه الحركة هي عبارة عن:

القيادة: إن المثال لهذه القيادة هو الرسول الإسلامي الكريم.

الوحدة: إن الوحدة هي القاعدة الأساسية للحركة. ولا يتيسر انتصار الحركة الإسلامية دون إزالة عوامل وعناصر التشتت والفرقة بين أبناء الأمة الإسلامية.

التحرر من الهيمنة الاستعمارية: استخدم مصطلح الاستخراب «طلب الخراب» بدل مصطلح الاستعمار. واعتبار الاستعمار عنصراً مخرباً لوحدة الأمة الإسلامية، ومانعاً أساسياً أمام إيجاد الحركة الإسلامية. لذلك كان يدعو الأمة الإسلامية إلى مقارعة الاستعمار والتخلص من قيوده لتتاح لها المقدمات اللازمة «لحركة شاملة».

إقامة حكومة إسلامية: إن تشكيل الحكومة الإسلامية على قواعد الأحكام القرآنية وسنة الرسول الكريم ﷺ والسيرة النبوية الشريفة تشكل ضرورة حيوية ولازمة لتشكيل حركة إسلامية.

أسباب انحطاط وتخلف العالم الإسلامي: يؤكد البنا في منحنى التفكير حول كيفية إيجاد الحركة الإسلامية الشاملة، وضرورة إجراء الدراسات والبحوث حول أسباب انحطاط العالم الإسلامي كي تتوضح في رحاب

هذه الدراسات الآفات والأخطاء الماضية لتفاديها، ويتم بذلك تبين تجربة انحطاط وتخلف العالم الإسلامي، والعمل على تنمية الحركة الإسلامية؛ وذلك من أجل عدم تكرار التجارب المرة للانحطاط والانهيار للعالم الإسلامي.

ويبحث البنا التخلف الموجود في العالم الإسلامي، ويرى أن للعوامل التالية دورًا فاعلاً في تخلف الدولة الإسلامية والتوقف عن مواصلة حضارتها:

1 - الخلافات السياسية والعنصرية والنزاع حول المناصب والسلطة: لقد تعرضت الدول الإسلامية خلال القرون الماضية إلى الخلافات السياسية والقومية متيحة بذلك مجالات التفرقة والتشتت بين أبناء الأمة الإسلامية.

2 - الخلافات الطائفية والمذهبية: تعمل الخلافات المذهبية بين الطوائف والمذاهب الإسلامية نحو زعزعة وحدة الأمة الإسلامية وتتيح انهيار قواعد الاتحاد الإسلامي.

3 - التوجه نحو الدنيا والانغماس في الملذات الدنيوية: كان حسن البنا يرى أن أهم عوامل تخلف العالم الإسلامي «التوجه نحو الدنيا» من جانب المسلمين، وابتعادهم عن الإيمان بالآخرة وتركهم التعاليم الإسلامية في تنظيم حياتهم في هذه الدنيا.

وكان السبب الرئيسي لضعف المسلمين كما يرى البنا «حب الدنيا وخشيتهم من الموت» وقد نسوا بذلك الحياة الأخروية وطلب الشهادة والمجاهدة في سبيل الله.

ويرى أن الانغماس في الملذات العابرة الدنيوية يتيح عوامل ضعف الأفراد والدول.

4 - الابتعاد عن الركب الحضاري الإنساني وعن اكتساب المهارات والفنون والعلوم الحديثة: في أعقاب انغلاق دور العلم والفضيلة بقي العالم الإسلامي متخلفاً من الناحية الفكرية والحضارية. وبعد انغماس مفكري العالم الإسلامي في العلوم والفلسفات العقيمة وغير المجدية للآخرين عرّض ذلك الأوضاع العلمية والفكرية للعالم الإسلامي إلى أزمة داخلية. وقد نسي المسلمون الأحاديث النبوية الشريفة من أمثال: «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد» و«اطلبوا العلم ولو كان في الصين» تخلفوا بذلك عن ركب الحضارة والعلم وكان تغلب الجهل عليهم سبباً أساسياً في انحطاط الأمة الإسلامية.

5 - غرور الحكّام المسلمين وعدم اهتمامهم بشئون المسلمين: لقد اغتر المستولون المسلمون باقتدارهم وهيمتهم الظاهرية ناسين بذلك اهتمامهم بشئون المسلمين. من جانب آخر يرى أن ترك المسئوليات والالتزامات والواجبات الخطيرة لقيادة الأمة الإسلامية بأنها من العوامل الأساسية لفشل هذه الأمة وضعفها.

6 - التبعية العمياء للأقوياء والناهجين لمنطق القوة: لقد أتاح اندحار المسلمين أمام القوى الاستعمارية والغربية المجال للانتهاج الأعمى للبلاد الإسلامية لأهداف وأفكار هذه القوى، وبات التقليد للثقافة الغربية دون التفكير بتأثيره والدراسة لها يشكل مصدراً لانحطاط الأمة الإسلامية.

طريقة حسن البناء في تشكيل الحركة الإسلامية

كان حضور زعيم حركة الإخوان المسلمين ومؤسس هذه الحركة في الساحة السياسية وفي المجتمع المصري قد مكَّنه من التعرف على التيارات السياسية والثقافية السائدة في المجتمع، ويات يعي متطلبات مختلف فئات الشعب المصري، ومن خلال معرفته خبرات السلف الصالح وزعماء التيارات الإسلامية على مر التاريخ، اتخذ طريقة خاصة وشعبية في منحى الدعوة الإسلامية وإقامة الحركة الإسلامية التي من شأنها أن تكون منسجمة تمامًا مع الظروف والمقتضيات الزمنية. ومن خلال رؤيته الإسلامية العميقة ودراساته التاريخية وبحوثه الفكرية مع وعيه لأساليب المصلحين والسلف الصالح توصل إلى النتائج التالية:

- اختار الإسلام موقفًا مرنا حيال الأساليب الإصلاحية والثورية.
 - ينبغي أن تكون كافة الوسائل والسبل الإصلاحية في خدمة الحياة الجديدة ومشروع التغيير الثوري في المجتمع.
 - الدعوة للعدالة والحرية والبحث عن المساواة، لا ينبغي أن تكون بديلاً للشرعية الإلهية أو تحل محلها.
 - الديمقراطية يجب ألا تكون بديلاً لنظام الشورى الإسلامي.
 - الحكومة العلمانية ذات التوجه الإنساني والمجتمع المدني الغربي لا ينبغي أن يكونا بديلين للحكومة الإسلامية والمجتمع الإسلامي.
- لكن طبيعة حسن البناء وهويته الواضحة تتبلور في عدة مراحل يمكن اعتبارها كالتالي:

مرحلة التبليغ والدعوة: يتم في هذه المرحلة إعلام المجتمع بأفكار ومعارف الدين الإسلامي.

مرحلة التشكيل: في هذه المرحلة يتم انتخاب زملاء وأنصار الحركة الإسلامية وتنظيمهم ليتم بذلك تقوية عملية الإعلام الإسلامي ليتيحوا المجال لظهور الحكومة الإسلامية في الساحة السياسية في المجتمع.

مرحلة إيجاد الدولة الإسلامية: في هذه المرحلة تتم إقامة النظام السياسي الإسلامي في المجتمع ويصبح تنفيذ الأحكام والشرعية الإلهية شيئاً عملياً.

مرحلة إحياء الخلافة الإسلامية: الحكومة الإسلامية الشاملة وبرامج مراحل الحركة: يرى حسن البنا أن أية واحدة من المراحل الأربع المذكورة أعلاه لها برامجها وأهدافها وأولوياتها وأدواتها. وتكون مؤشراتنا على النحو التالي:

(١) مرحلة التبليغ والدعوة الإسلامية:

أهداف وأولويات هذه المرحلة من وجهة نظره تكون على النحو التالي:

- تربية وتعليم الأمة الإسلامية.
- إيقاظ الأمة الإسلامية وتوعيتها.
- تغيير الأعراف والأنظمة غير الإسلامية السائدة في مجتمع المسلمين.
- تهذيب النفوس ورشدها وأخلاقها في المجتمع الإسلامي.
- نشر وترويج مبادئ الحق وأصوله والفضيلة الإسلامية.

آليات وأدوات هذه المرحلة:

تشكيل صفوف ومحافل ومجالس دينية وبيان الحقائق لتنمية الطلاب والتوعية الإسلامية الشاملة للمسلمين.

اختيار وانتخاب العناصر الناشطة والصالحة والمسئولة لتولي المسؤوليات والواجبات الشرعية في خدمة الإسلام وأركانه، وتشكيلها في الأطر والنماذج التنظيمية وتوجيه إجراءات وعمليات التوعية للأمة الإسلامية بمسئولياتها في المرحلة الأولى للحركة الإسلامية.

تنظيم الخدمات الاجتماعية والعامة المحققة لرخاء الشعب، وإزالة المشاكل المادية والمعنوية من المجتمع الإسلامي.

(ب) مرحلة الدعوة وانتخاب الصفوة:

أولويات وأهداف هذه المرحلة:

الهدف الأساسي لهذه المرحلة هو إرساء العلاقات مع الشخصيات البارزة والصفوة في المجتمع والفئات والأطراف ومختلف التيارات السياسية والاجتماعية. وقد جرّب عملياً هذه المرحلة في المجتمع المصري واكتسب عبر هذا السبيل الكثير من النجاحات في منحى خدمة الأهداف الإسلامية السامية والحركة الإسلامية.

يرى البنا أن أهم الآليات لتفعيل هذه المرحلة، تتمثل في الحضور الفاعل في الساحة السياسية والمجتمع الإسلامي، وإيجاد علاقات سياسية وإنسانية ودينية مع الصفوة والشخصيات المهمة في المجتمع كي لا تكون لهم ميول معارضة وعدائية للإسلام.

(ج) مرحلة تشكيل الدولة الإسلامية:

ويرى أنه بعد النجاح في مرحلة التبليغ والإعلام ومرحلة تكوين المجتمع الإسلامي، تحل مرحلة إيجاد (الأمة الإسلامية). ومن جملة الأهداف والأولويات لهذه المرحلة التي توقعها البنا هي عبارة عن:

- تحرير البلدان الإسلامية من هيمنة الأجانب غير المسلمين.
- فهذا التحرر والاستقلال ينبغي أن يكون في الجوانب السياسية والاقتصادية والثقافية.

- إصلاح هيكلية الحكومة الموجودة ومختلف مؤسساتها لبلوغ مرحلة الدولة الإسلامية المرجوة. وطبيعي أن يكون لأسلوب الإصلاح مراحل مختلفة منها: بدء الإصلاح بالنصيحة والإرشاد لأركان الحكومة الموجودة، ولكن في حالة عدم إمكانية استجابة الحكومة ينبغي استخدام الكفاح السياسي وأخيرًا القوة وإزاحتها عن السلطة.

(د) مرحلة عودة الخلافة الإسلامية:

إن هدفه النهائي هو رسم الإطار النظري لهذه المرحلة على النحو التالي:

تتحرك الدول الإسلامية من خلال تشكيلها للاتحادات والائتلافات السياسية والأمنية والاقتصادية والثقافية وستتحرك خطوة بخطوة ومرحلة بعد مرحلة نحو الاندماج والانسجام تحت العلم الموحد للخلافة الإسلامية. وسيتخب المسلمون بعد تشكيل «حكومتهم الإسلامية الموحدة» زعيمهم أو خليفته من بين الأفراد الصالحين والملتزمين والواعين للشريعة الإسلامية والملتزمين بالأحكام القرآنية والسيرة النبوية الشريفة دون أخذهم في الاعتبار الانتفاءات في جنسياتهم أو أوطانهم.

التعامل مع الحكومات

يطرح الشيخ للتعامل مع الحكومات الموجودة والذي يشكل جزءاً من الإجراءات والأهداف الاستراتيجية للمرحلة الثانية للنهضة الإسلامية مبادئ وقواعد ويقول في هذا الجانب:

إننا لا نريد السلطة والحكومة «لأنفسنا» وسنختار من يكون مستعداً لتولي أمرها وهو ملتزم بأحكام الشريعة الإسلامية ووفي لها، وفي مثل هذه الظروف سنكون جميعاً جنوده ونصيرين له. ولكن في حالة عدم عثورنا على الشخص الذي يتولى قيادة الدولة الإسلامية، فإننا سنتولى تشكيل الحكومة الإسلامية، وإننا سوف لانألو جهداً في سبيل بلوغ ذلك والوصول إليه.

إننا سنقترح مشاريعنا لإصلاح شئون المسلمين والحكومة وسنجري حواراً مع الحكومة بنفس الأدبيات واللغة التي تستخدمها. ومن الطبيعي سيكون من اللازم الاتصال مع الحكومة والحوار معها لطرح مقترحاتنا. إننا نعلم أن الذين تربوا في أحضان الاستعمار سوف لا يصغون إلى رغباتنا ومطالبنا نحو إصلاح الأمور وتشكيل الدولة الإسلامية. كما أننا لانتوقع أن يهتموا بمطالبنا المشروعة. لكننا سنواصل نصائحنا ومواعظنا وحوارنا مع هذه الحكومات كي تتم الحجة عليها ونعمل بالواجب الشرعي الملقى على عاتقنا.

ولكن من الممكن أن تتصرف الحكومة معنا بالعنف، فعندها ينبغي علينا أن نبدي الحلم والمرونة كي يتم بذلك احتواء إعصار غضب السلطة الحاكمة وسنعود ثانية إلى مسرح الكفاح والمقاومة.

التغيير والتحول

(أ) الكفاح البرلماني: لقد جرَّب حسن البنا والإخوان المسلمون هذا التوجه: كان الإخوان المسلمون في زمن مرشدتهم الأول حسن البنا قد شاركوا في ساحة التنافس في الانتخابات، وتنافسوا مع الأحزاب السياسية في عهد الملك فاروق. وبعد استشهاد حسن البنا والإفراج عن الإخوان المسلمين من السجون كان للإخوان حضور ناشط في الانتخابات البرلمانية المصرية، ورغم القيود ومختلف الضغوط الموجهة إليهم من جانب الأجهزة الأمنية والبوليسية للأنظمة الحاكمة حققوا انتصارات مذهشة.

(ب) الوصول إلى السلطة عبر الانقلاب: كان الانقلاب يشكل أعنف سبيل للسيطرة على السلطة، وبلوغ الحكم، غير أنه لم يلاحظ في تاريخ هذه الحركة أي أثر من القيام بهذا الشيء، ولم يؤيد الإخوان المسلمون هذه الطريقة أو استغلالها لتسليم مقاليد الحكم أبداً.

(ج) استخدام القوة لإزاحة الحكومة: من الطبيعي لم يبلغ حسن البنا موضوع استخدام القوة لإزاحة الحكومة غير الشرعية، لكنه اعتبر استخدام القوة والعنف لبلوغ الحكم والسلطة في البلاد الإسلامية آخر وسيلة وطريقة. والخلاصة: تكون وجهة نظره حول نظرية التحول والتغيير الاجتماعي والسياسي لبلوغ تشكيل الدولة الإسلامية على الوجه التالي:

1 - الإسلام يستخدم كافة السبل في كافة المجالات والجوانب لتغيير المجتمع.

2 - من الممكن استخدام الطريقة الإصلاحية في بعض الظروف اعتمادًا على متطلبات الأوضاع والمقتضيات الزمنية.

3 - كان البنا لا يؤمن بالطريقة الثورية وأسلوب العنف لبلوغ أهداف تغيير المجتمع العلماني المصري إلى مجتمع إسلامي، وكان يوصي دائمًا بانتهاج الأسلوب المرحلي والإصلاحي.

4 - كانت طريقة استخدام القوة والعنف لإيجاد التحول في ظروف المجتمع المصري حسب رأيه تابعة لظروف وضوابط محددة وصعبة. وحتى في هذه المرحلة لم يسمح أبدًا باستخدام الإرهاب والاغتيال والتخريب والتفجير للوصول إلى السلطة رغم مزاعم أعدائه في هذا الجانب....

5 - لقد أجاز التنافس في الانتخابات البرلمانية في حالة وجود إمكانية العمل للوصول إلى السلطة.

مكانة المرأة في الفكر النهضوي السياسي لحسن البنا

احتل الاهتمام بشئون المرأة ورفع مكانتها و منزلتها، موقعًا متميزًا في المشروع النهضوي لحسن البنا. وكان البنا طليعيًا ورائدًا في مشروع الاهتمام الخاص بشئون المرأة المسلمة، وفي الواقع كانت الاستجابة الملتزمة لهذا بشكل ضرورة تاريخية.

في أوائل العقد الأول من القرن العشرين كانت مصر ساحة لفعاليات نواة حركة تحرير المرأة العربية، وظهرت هذه النواة بدعم شامل من جانب الاستعمار البريطاني تحت ستار الحركات التنويرية والتوجه الغربي. وكانت المرأة المصرية في تلك الظروف كباقي النساء في البلدان الإسلامية والعربية

تعيش حالة من الجهل المطلق والتخلف الفكري والثقافي، وكانت مبادرة حسن البنا في موضوع رفع منزلة المرأة المسلمة في مصر تشكل في الواقع أمرًا رياديًا واستجابة للمتطلبات الاجتماعية والسياسية المصرية آنذاك. وقد قام البنا بتأسيس تنظيم «الأخوات المسلمات» كخطوة مهمة نحو نهضة رفع المستوى الفكري والثقافي من خلال تأسيسه وإيجاده للمراكز التعليمية والخيرية، وقد أتاح ذلك مجالات مناسبة نحو تحول مجتمع المرأة المصرية.

لقد شكّل تأسيس منظمة خاصة للنساء باسم «الأخوات المسلمات» مبادرة مهمة في تاريخ فعالياته والإخوان المسلمين. لأن هذه التشكيلات طرحت بعد ذلك باعتبارها المثل والريادة لحركة المرأة في العالم العربي والإسلامي. فمكافحة الأمية والحركة التوعوية للمرأة المسلمة والاهتمام بتربية الأطفال والناشئين كانت تشكل جانبًا من التعاليم التربوية والإجراءات العملية، لإيجاد التحول في مجتمع المرأة المصرية.

يرى البنا أن رفع المستوى المعرفي والإنساني للمرأة المسلمة يشكل جانبًا من عمليات التحول والتغيير في المجتمع الإسلامي، ويساعد على عملية تشكيل المجتمع الإسلامي والحكومة الإسلامية.

وكان يؤمن بعدم إمكانية نجاح وفوز الحركة الإسلامية في المجتمع المصري دون رفع مستوى ومكانة المرأة التي تشكل نصف المجتمع.

حركة تقريب المذاهب الإسلامية

كان اهتمام الشيخ حسن البنا وباقي قادة حركة الإخوان المسلمين بحركة التقريب بين المذاهب الإسلامية، يشكل أحد الدوافع والعوامل لمهاجمته

ومهاجمة أفكاره وجماعة الإخوان المسلمين غير المنصفة من جانب السلفيين مع مختلف أطرافهم. ففي أدبيات السلفيين الجدد تعتبر علاقات الإخوان المسلمين وقادتها مع ما يدعى بمعارضتي السنة والشيعة منهم خاصة أمراً مرفوضاً، ويعتبرون ذلك أحد الأدلة على وجود الانحراف والبدع في هذه الجماعة.

وقد تجلّى عمق الخلافات بين الإخوان المسلمين والتيارات الزاعمة للسلفية في الأحداث الأخيرة إبان الهجوم الوحشي للصهاينة على لبنان وحزب الله والمقاومة الإسلامية. وقد بلغ ذلك الحد الذي جعل وللأسف بعض العلماء السلفيين يعتبرون الدعاء لنصرة المقاومة الإسلامية اللبنانية بسبب الحضور الملحوظ وغير المنافس لحزب الله اللبناني في هذه الجبهة أمراً محرماً ومرفوضاً! غير أن الإخوان المسلمين وزعماءهم، وخاصة في مصر، أبدوا دعماً واسعاً للمقاومة الإسلامية في لبنان واعتبروا فتاوى بعض العلماء السلفيين أمراً مرفوضاً ومصدراً لإثارة الفتنة والفساد. كان حسن البنا يرى أن حركة التقريب بين المذاهب الإسلامية تشكل جانباً من دائرة حركة الوحدة الإسلامية، وهي في خدمة الأهداف السامية للحركة الإسلامية. باعتباره مفكراً من أهل السنة ومؤسساً ومرشداً للإخوان المسلمين، قد أرسى منذ القدم علاقاته مع علماء الشيعة وحوزاتهم العلمية واتخذ خطوات نحو تقوية حركة التقريب بين المذاهب الإسلامية، كما خطأ أخلافه من زعماء وقادة الإخوان المسلمين اقتداءً به خطوات إيجابية نحو هذا الجانب. ويعتقد بأن الاختلافات الفقهية لا ينبغي أن تكون سبباً في التفرقة بين المذاهب الإسلامية، إذ من شأن تشديد الخلافات أن يشكل مصدراً لضعف الأمة الإسلامية، ويمهد لتشتت وتفرق المجتمع الإسلامي.

وقد اعترف الشيخ بالمذهب الإمامي الشيعي، نظرًا للحقائق والدور القيم للشيعة في اعتلاء الإسلام والحضارة الإسلامية، واقتدى في ذلك بكبار علماء الجامع الأزهر، كالمرحوم الشيخ محمود شلتوت قبل إصدار فتواه الشهيرة، في الاعتراف بالمذهب الشيعي الجعفري باعتباره المذهب الخامس للمسلمين. وقد أرسى البناء علاقات طيبة مع علماء الشيعة. وكان يعتبر من جملة الطلائع في حركة التقريب بين المذاهب الإسلامية، وكان ضمن المؤسسين الأوائل «لجماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية في القاهرة إلى جانب العلامة الشيخ محمد تقي القمي».

تجدر هنا الإشارة إلى ثلاث نقاط وذكريات تاريخية بشأن الدور التقريبي للمرحوم حسن البناء:

كان آية الله السيد رضا الصدر من العلماء المعروفين في الحوزة العلمية في قم (نجل المرحوم آية الله السيد صدر الدين الصدر والأخ الأكبر للإمام موسى الصدر) حيث كان يقدم دروسًا في الأخلاق لطلابه في ليالي الخميس في بيته (وقد طُبعت كلماته في تلك الليالي في عدد من المجلات). في عام 1375 هـ أي حوالي قبل نصف قرن، في الليلة التي كنت حاضرًا تحدث السيد الصدر حول أسرار الحج وآثاره الاجتماعية ودوره في إيجاد الوحدة الإسلامية بين طوائف المسلمين. فقال أثر التبليغ والإعلام السيئ من جانب السلفيين الوهابيين واضح، احتج بعض المصريين في أحد المراسم التي أقيمت في موسم الحج، التي كان قد حضرها حسن البناء، من منطلق عدم معرفتهم لحقيقة التشيع، على الشيعة المشاركين في الحج... وعندما عرف المرحوم حسن البناء بالأمر حضر في مركز تجمع الحجاج المصريين وألقى

كلمة تنويرية محذراً فيها من مغبة هذا الشيء وقال: لا يحق لأي فرد أن يهاجم المسلمين الآخرين، وأضاف بعد ذلك في كلمته قائلاً: إن الفرق الموجودة بين بعض أهل السنة وبين الشيعة هو أن الشيعة يحبون أهل بيت الرسول أكثر من غيرهم وهذا الشيء أداء لهم للدين، فينبغي أن يشكل هؤلاء القدوة لنا نحن المصريين الذين لنا ولاء لأهل البيت (عليه السلام).

ثم أضاف آية الله الصدر قائلاً: لقد لعبت هذه الكلمة للشيخ حسن البنا دوراً أساسياً في تغيير التعامل مع الشيعة.

وكان المرحوم الشيخ مصطفى مشهور، المرشد السابق للإخوان المسلمين المصريين قد كتب لي رسالة - بخطه - كتب فيها حول هذا الموضوع قائلاً:

«لقد دعت حركة الإخوان المسلمين ومنذ تأسيسها من جانب مرشدها الكبير الإمام حسن البنا الجميع إلى غضّ النظر عن الخلافات المذهبية، والاتجاهات الدينية إلى الوحدة بين جميع المسلمين، ويشكل هذا الشيء في الواقع أمراً إلهياً؛ حيث يأمرنا الله عز وجل في كتابه: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ وكان الشهيد حسن البنا يولي اهتماماً بالغاً بهذا الموضوع في أقواله وأعماله.

خاطرة أخرى كان يرويها المرحوم العلامة الشيخ محمد تقي القمي مؤسس «دار التقريب بين المذاهب الإسلامية» في مصر؛ فكان يقول: بعد مقتل «أبي طالب اليزدي» في الحجاز من جانب السعوديين توقفت زيارة الإيرانيين للحج عدة أعوام.... وبعد بذل المزيد من الجهود لإزالة الشبهات قامت دار التقريب بطباعة كتيب مناسك الحج اعتماداً على المذاهب الأربعة لأهل السنة

ومذهب الشيعة الإمامية ليتضح وجود الإجماع الكلي بين المذاهب الإسلامية في مسائل الحج كذلك. لكن المؤسف هو أن المسئولين عن الحج منعوا نقل هذه المناسك إلى الحجاز، وعندما طرح هذا الموضوع على الشيخ حسن البنا، والذي كان من مؤسسي دار التقريب، طرح حلاً لافتاً للنظر لنقل مناسك الحج «للمذاهب الخمسة» وهو أنه أمر بطبع كافة مسائل الحج وفق آراء فقهاء المذاهب الإسلامية، في الصحيفة الرسمية الناطقة باسم الإخوان المسلمين. ثم بعث الصحف بواسطة الحجاج المصريين إلى الحجاز وتم توزيعها على الحجاج وترك ذلك أثراً بالغاً في إيجاد الوحدة بين المسلمين...

والنقطة الأخرى في هذا الجانب هي لقاء الشيخ حسن البنا مع آية الله كاشاني في زيارة الحج هذه. وبعد إجرائها الحوار قررا عقد مؤتمر إسلامي في طهران تشارك فيه شخصيات من العالم الإسلامي كي تتم فيه تقوية العلاقات الودية بين المسلمين أكثر فأكثر. لكن الشيء المؤسف عندما تابع آية الله كاشاني هذا الموضوع في طهران قبل بمخالفة الحكومة المالية القومية الإيرانية، آنذاك وقد منع بحجة عدم وجود (الميزانية اللازمة لانعقاد المؤتمر)... والأدهى من ذلك هو أن حسن البنا بعد عودته إلى مصر وبعد فترة وجيزة قد اغتيل من جانب حكومة الملك فاروق... وطبقاً لما كتبه المؤرخون المصريون، أن الوثائق الموجودة تشير إلى أن أحد أسباب ذلك الاغتيال يعود إضافة إلى موقفه من القضية الفلسطينية، إلى هذا اللقاء وقرار العالم الشيعي وعلماء أهل السنة العمل نحو «الوحدة».

القضية الفلسطينية في فكر حسن البنا وعمله

لقد كانت فلسطين وقضاياها دائماً من القضايا المحورية في الفكر السياسي والنضالي لحسن البنا والإخوان المسلمين. وكان الكفاح ضد بريطانيا والصهيانية في فكر المرشد للإخوان المسلمين يشكل جانباً مهماً من الكفاح لبلوغ تشكيل الدولة الإسلامية ووحدة الأمة الإسلامية. وكما أشرنا سابقاً فيما يتعلق بالحرب بين الصهيانية والعرب وفي فلسطين وحادث تقسيم فلسطين وتأسيس الكيان الإسرائيلي الغاصب في عام 1948 وضع حسن البنا باعتباره المجاهد المقاوم وزعيم الإخوان المسلمين كافة الإمكانيات والطاقات الموجودة لمنظّمته في خدمة تحرير فلسطين. ولم يأل جهداً نحو تعبئة المسلمين والمجاهدين العرب في هذا الجانب وأخيراً ضحّى بنفسه في هذا السبيل المقدس.

وكان نضال الإخوان المسلمين وقيادتهم ضد الاستعمار البريطاني، وحضور الإخوان المسلمين في الجبهات مع الفلسطينيين ضد الصهيانية في عام 1948 سبباً أساسياً في إصدار الأمر بحل جماعة الإخوان المسلمين واغتيال حسن البنا من جانب الحكومة المصرية العميلة، وكما تشير الملفات الموجودة والكتب والوثائق المنشورة وبموافقة من البلاط الملكي المصري الفاسد آنذاك.

وسلام الله عليه حيث كان شهيداً لمشروع الوحدة الإسلامية والقضية الفلسطينية التي تشكل أقدس قضية للأمة الإسلامية.

حسن البنا وأبو الأعلى المودودي

بمناسبة إقامة مراسم الذكرى السنوية لمولد حسن البنا في باكستان، من جانب «الجماعة الإسلامية» وقد أعدنا هذا المقال بتلك المناسبة - تجدر الإشارة هنا إلى مؤسس حركة الجماعة الإسلامية مولانا السيد أبو الأعلى المودودي. كان البنا والمودودي يشكلان أنموذجين نادرين من القادة والدعاة الإسلاميين المعاصرين اللذين أوقفنا حياتهما في سبيل سيادة الإسلام والجهاد في سبيل إعلاء شأنه.

وكانت بين هذين الزعيمين الإسلاميين قواسم مشتركة والكثير من التشابه وفيما يلي نشير إلى البعض منها:

1 - إِبصارهما النور في أسر دينية وملتزمة وقد أبصر المودودي النور في عام 1311هـ / 1903م بينما ولد البنا في عام 1314هـ / 1906م وذلك في أسرتين من أهل الفضيلة والعلم والتقوى وكان لأبويهما دور أساسي في تكوين شخصيتهما الإسلامية. وكان والدها المودودي والبنا من أهل العرفان والسلوك والأخلاق الإسلامية وقد ربا ابنيهما في إطار هذه المبادئ والمعارف السامية.

2 - لقد تربي كل من المودودي والبنا في أجواء عرفانية ومعنوية وقد تعرفا منذ بدء حياتهما على المبادئ والمفاهيم العلمية والنظرية للعرفان والأخلاق الإسلامية. وكانا ينهجان ويمارسان عملياً في حياتهما اليومية تلك المبادئ. كما التحق الاثنان بالمؤسسات التعليمية والتربوية الحديثة ودرسا التعاليم والعلوم الحديثة مازجين بذلك تلك العلوم بفنونها

من العلوم والأفكار الإسلامية بالعمل الصحفي، وارتباطها الوثيق بأبناء الشعب والمشاكل التي يعانونها كان من القواسم المشتركة بين المودودي والبنا مما ترك تأثيراً بالغاً في بلورة الشخصية القيادية لهذين الرجلين.

3 - كان الاثنان قد اشتغلا في العمل الصحفي منذ بدء مرحلة شبابهما. وقد دخل المودودي في العمل الصحفي وهو في الخامسة عشرة من عمره وكان يكتب مقالاته في صحيفة «مدينة» وكان البنا من جانبه يكتب مقالاته في صحيفة «المنار» وكان الاثنان من الطليعيين في تأسيس وإصدار الجرائد والصحف الإسلامية في مصر وفي باكستان.

4 - حضورهما المبكر في الرابطات والجمعيات الإسلامية: التحق المودودي في أوائل عهد شبابه «بحركة إحياء الخلافة الإسلامية» بينما جرب حسن البنا التنظيم والتشكيل بحضوره الناشط في الجمعيات الخيرية الصوفية والرابطات الأخلاقية ومكافحة الفساد والمنكر. كان المودودي والبنا يؤمنان بالعمل الجماعي والمنظم وقد نضجت وتبلورت هذه الأفكار فيهما في عهد حداثتهما.

5 - دورهما الريادي في تأسيس التنظيمات الإسلامية: أسس حسن البنا «جمعية الإخوان المسلمين» في عام 1928 في مصر كما شكل المودودي «الجماعة الإسلامية» في باكستان في عام 1941. وكانت أهداف وتطلعات هذين التنظيمين الإسلاميين متناسقة تماماً وتنشدان العودة إلى الإسلام الأصيل في كافة مجالات الحياة للمسلمين.

وهي من الأهداف الأولية للإخوان المسلمين والجماعة الإسلامية.

6 - التشابه في مراحل التنفيذ والعمل بين الإخوان المسلمين والجماعة

الإسلامية: كانت بين رؤى المودودي والبناء بشأن إصلاح المجتمع والأمة الإسلامية قواسم مشتركة كثيرة وكان الاثنان يؤمنان إيماناً راسخاً بالعمل المرحلي للإصلاح. وكان البناء والمودودي يؤمنان بأن تكوين الجماعة الإلهية والربانية، يشكل النواة الأولى للدعاة الإسلاميين ويشكل مرحلة أولى من الحركة نحو إصلاح المجتمع والأمة.

كان المودودي والبناء يؤكدان مرجعية القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة باعتبارهما المرشدين للأمة وينطويان على المبادئ الأولية والحازمة. كان البناء والمودودي يريان أن إصلاح نفوس المسلمين وتهذيبها يشكل خطوة أولى نحو إصلاح أخلاق الأسرة وعاداتها ومقدمة لإصلاح المجتمع بأسره والأمة الإسلامية. ويعني ذلك أنهما اعتبرا إصلاح الفرد المسلم يشكل النواة المركزية للبرامج الإصلاحية للأمة الإسلامية والقاعدة التحتية لحركة العودة وسيادة الإسلام على المجتمع والدولة الإسلامية.

7 - التجربة القمعية والسلوك العنيف للحكومات: عانى البناء والمودودي

في مختلف المراحل من نضالهما في الدعوة إلى الإسلام والدولة الإسلامية الآلام والكثير من المصائب وتعرضا من جانب الاستبداد الداخلي والاستعمار الخارجي لأنواع التعامل العنيف واللاإنساني. وكان المودودي والبناء رجلين مؤمنين صامدين وأنموذجين للمجاهدين. وقد تعرض المودودي مرات عدة إلى التعذيب والسجن لمدة ثلاثة أعوام في الفترة (1955 - 1957) وصدر حكم بإعدامه عن السلطة

العلمانية.. كما تعرض البنا في سبيل نشر التعاليم الإسلامية إلى الملاحقة والاعتقال وأخيرًا ضحّى بروحه العزيزة في سبيل الإسلام واغتيل في عام 1949 من جانب مرتزقة الملك فاروق وبأمر من السفارتين البريطانية والأمريكية في القاهرة (كما ذكرت ذلك الوثائق المنشورة).

8 - الإيمان بالإجراءات المدروسة: كان المودودي والبنا لا يؤمنان مطلقًا بالاستعجال وممارسة الإجراءات غير المدروسة وغير المبرجة، وكانا يوصيان أتباعهما بالصبر والمقاومة وعدم الاستعجال، وكانا يحذران من مغبة الاستعجال والتطرف الثوري والإجراءات غير المدروسة. ويعتبران التربية الإسلامية للأفراد بأنها تشكل الأساس لمراحل الدعوة للعودة إلى الإسلام وسيادة الشريعة الإلهية.

9 - عودة الخلافة: كان البنا والمودودي يعيشان إبان انهيار الدولة العثمانية وانحلال الخلافة العثمانية على يد كمال أتاتورك، وعملاً من خلال كفاحهما واحتجاجهما الشامل دفاعاً عن الخلافة الإسلامية ويشارك الاثنان في هذه الحركات.

كان الاثنان يؤكدان ضرورة عودة الخلافة وسيادة الشرع الإلهي الغائب، ليكونا من أهداف وتطلعات أية حركة إسلامية وكانا يعتقدان اعتقاداً راسخاً بالوحدة الإسلامية باعتبارها خطوة أولى نحو عودة الخلافة الإسلامية.

أبو الأعلى المودودي وسيد قطب

في الختام ينبغي أن نشير إلى نقطة وهي أن أفكار ونظريات المودودي تركت تأثيرات مختلفة على الحركات الإسلامية وروادها. وكانت مبادئ أفكار المودودي وأساسها تعتمد على ثلاثة أسس فكرية وعقائدية وهي:

«السيادة الإلهية والديمقراطية الإسلامية والتربية الإسلامية» فهذه القواعد الثلاث جاءت مقابل المبادئ الإدارية للحكومات المعاصرة المتمثلة «بالعرف الاجتماعي والديمقراطية والتربية على أساس الأفكار العلمانية!»

ولسيد قطب والمودودي باعتبارهما مُنظرين إسلاميين علاقات ومشاركات فكرية وعقائدية دون أن يلتقيا معًا ويقول أصدقاء المودودي: إن الأستاذ المودودي كان قد قرأ كتاب «معالم في الطريق» لسيد قطب في يوم واحد وكان قد قال بعد ذلك: كأي أنا الذي ألقت هذا الكتاب!

وكان المودودي والجماعة الإسلامية في باكستان قد أعلنوا احتجاجهما حيال إعدام سيد قطب في مصر وأعربا عن قلقهما وسخطهما بشكل علني وعلى شكل حملة صحفية ضد هذا الإجراء الإجرامي.

من جانبه كان سيد قطب قد تأثر بأفكار ونظريات المودودي، وكان قد نقل بعض المفردات والأسس النظرية لأفكاره من المبادئ الفكرية للمودودي.

وترك كتاب المصطلحات الأربعة في القرآن «الإله - الرب - العباد - والدين» للمودودي تأثيرات مختلفة وعميقة على الاتجاه الفكري لسيد قطب.

أهم العناصر الفكرية التي نقلها سيد قطب من المودودي هي عبارة عن: السيادة: بمعنى أن الله المتعال هو السيد والحاكم المطلق على الكون والعالم وهو وحده المشرع والبانى للشرعة لهذا العالم... وتكون القوانين الأخرى التي لم تكن جانبه باطلة وغير شرعية.

الجاهلية وتأويلها: في الحوار العقائدي والسياسي للمودودي وسيد قطب

تعني الجاهلية الانحراف عن الطريقة الإسلامية وسبيلها والحكم بقوانين غير إلهية وتشكل محاربة الجاهلية الأساس للنهضة والحركة الإسلامية وأن كل حكومة من الحكومات الموجودة في العالم الإسلامي أيًا كان نوعها يشملها هذا الحكم الإلهي.

التكفير: يرى المودودي أن خروج الفرد والمجتمع من الشريعة وارتداده عن السيادة الإلهية يعد كُفْرًا! لكن الأستاذ المودودي رفض إصدار أحكام التكفير ضد الفرد أو المجتمع وكان يدعو إلى المزيد من الحيلة والدراسة لذلك. وقد نفذ مفهوم تكفير الفرد والمجتمع في أدبيات ونظريات سيد قطب عن طريق مطالعة آثار المودودي ونظرًا للوضع الذي كان سائدًا في سجون النظام الناصري وحالات التعذيب الوحشي واللا إنساني الذي كان يمارس ضد الشباب الإخوان وحتى النساء المسلمات وضد سيد قطب نفسه، قد أدى إلى قيام سيد قطب بتكفير الحكم الموجود في مصر ووجوب الانتفاض ضده. وأخيرًا وبعد نشره كتاب «معالم في الطريق» أعدم سيد قطب صاحب تفسير في ظلال القرآن في 30 مجلدًا مع اثنين من قادة الإخوان في القاهرة.

وبعد موت المودودي وإعدام سيد قطب، انتشر مفهوم التكفير والكفاح ضد الطاغوت والعمل «بفرضية الجهاد» في أدبيات البعض من الشباب المسلم، ولكن بما أنهم لم يمتلكوا قوة التفسير والاجتهاد في هذا الجانب، قد دخلوا للأسف في وادي التطرف وكفروا بذلك كافة الأفراد والمجتمع المسلم وقد شكل ذلك بداية للانحرافات الشديدة التي تعرضت لها بعض المجموعات الإسلامية في العالم العربي وشبه القارة الهندية منزلين بإجراءاتهم اللاإنسانية ودون وعي ومن منطلق جهلهم ضربات موجعة بالحركة

الإسلامية. إننا نشهد وللأسف النماذج الوحشية والبربرية في ارتكاب المجازر بحق المسلمين من جانب العناصر التكفيرية. كل يوم في العراق وأفغانستان وباكستان.

تراث البناء والإخوان

زار حسن البناء في خطوة منه لتوعية الشعب المصري في فترة قصيرة مئات المدن والأرياف المصرية وقام بتنظيم الأفراد وإلقاء الخطب فيهم وتبليغ الديانة الإسلامية ومعارفها.

وقد طبعت الكلمات التي كان يلقيها في الأجهزة الإعلامية والصحافة المصرية آنذاك.

وتعتبر كتابات وكلمات حسن البناء تراثاً زاخراً بالقيم وقيماً وكمراجع فكري للإخوان المسلمين.

ومن بينها مجموعة «رسائل الإمام الشهيد حسن البناء» والذي مازال يشكل مصدراً فكرياً واجتماعياً وسياسياً لجماعة الإخوان المسلمين.



كانت هذه هي الدراسة الكاملة التي وضعها هادي خسرو شاهي عن حسن البناء، وقد استمد معظمها من كتابه الذي كتبه عن البنائين من كتاب ريتشارد ميشيل، وبغض النظر عن بعض الأخطاء التاريخية التي تناوّلها خسرو في دراسته مثل الإشارة إلى أن البناء كان مدرساً للغة العربية في حين أنه كان مدرساً للخط العربي إذ إن مؤهله المتوسط لم يؤهله إلا لتدريس الخط فقط،

ثم بالغ خسرو في بحثه في دور البنا في حرب فلسطين حتى إنه جعله البطل الأكبر لهذه الحرب وأن المؤامرات انعقدت للخلاص من البنا ثأراً للمواقف جماعته البطولية في الحرب ويقول خسرو في هذا الصدد عبارات غريبة لم يقلها أحد من قبل هي: أن البنا (لم يأل جهداً نحو تعبئة المسلمين والمجاهدين العرب في هذا الجانب وأخيراً ضحّى بنفسه في هذا السبيل المقدس) جعل خسرو من البنا ليس زعيماً للإخوان فحسب ولكن زعيماً لكل المجاهدين العرب وأعطاه نيشاناً تاريخياً لأنه على حد زعمه هو الذي قام (بتعبئة المسلمين والمجاهدين العرب) للجهاد في فلسطين ضد اليهود!! وكأن الأمة كلها لم تكن تعرف إلا حسن البنا أو كأنها سلمته قيادها، هذه المبالغة الممجوجة لا يعرفها إلا من كانت لديه عقلية جبلت على المبالغة، وهذا هو نهج الشيعة الذين تعودوا تقديس أئمتهم وجعلهم في منزلة أعلى من باقي البشر، وللعلم فإن الكتاب التي أرسلها البنا إلى فلسطين لم تذهب إلا لغزة وخان يونس ولم تدخل إلى العمق الذي كانت الحرب فيه على أشدها، إذ إن الذي قاتل قتالا حقيقياً من المتطوعين هم كتائب «أحمد حسين» صاحب جمعية مصر الفتاة، ولكن دعايات الإخوان أعطت لجماعتهم الدور الريادي على غير الحقيقة!

وفي هذه الدراسة أيضاً أخطاء كثيرة متعلقة بقسم الأخوات المسلمات وآراء البنا بخصوص المرأة إذ إن البنا لم يعط المرأة حقاً ولا مكانة، بل إن نظرت لها التي كتبها في كثير من مقالاته هي نفس النظرة التقليدية التي تبناها العلماء في عصره، فلم يعرف عنه تجديدًا أو فقهاً في هذا المجال أو في غيره من المجالات.

إلا أن اللافت أن الشيعة من خلال هادي خسرو شاهي وصفوا البنا بأنه

«النور» فقال عن مولده «مولد النور» وكأن إعطاء صكوك النورانية هو من الأمور المعتادة عند الشيعة، ولعلنا نلاحظ أن وصف البناء «النور» هو نفسه ذات الوصف الذي أعطاه له القيادي الإخواني السوري «مصطفى السباعي»، إذ وصف البناء «النور الذي ظل في السماء يغمر الأرض ولا يخالط التراب!».

وعند حديث خسرو عن التقريب بين السنة والشيعة ظهر لنا سبب هذا الاحتفاء غير العادي! كان السبب خافيًا لم يرد في كتابات الإخوان، فالمعروف أن الإخوان يقولون: إن حسن البناء ساهم فقط في إنشاء دار التقريب، ولكن الذي أفتى بجواز التعبد لله على مذهب الإمامية الاثنا عشرية هو الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر بعد وفاة حسن البناء بعدة سنوات، ولكن خسرو يكشف الغطاء عن شيء آخر، كان حسن البناء هو أول من اعترف بالمذهب الإمامي الشيعي، كاد خسرو يقول في بحثه «إن البناء اعتنق المذهب الإمامي الاثنا عشري» ولكن خسرو اكتفى فقط بمسألة الاعتراف! فقال (وقد اعترف الشيخ بالمذهب الإمامي الشيعي!).

وقد أورد خسرو أسباب إيمان البناء بهذا المذهب الشيعي فقال إنه آمن به (نظرًا للحقائق والدور القيم للشيعة في اعتلاء الإسلام والحضارة الإسلامية!) آمن حسن البناء بالشيعة ومذهبهم - كما قال خسرو - لأن هناك حقائق وبراهين تثبت أن الشيعة ساعدوا في اعتلاء الإسلام! كان هذا هو ما وقر في عقيدة البناء، بل إن هذا التأثير وهذه العقيدة لا تمكث في نفسية البناء لا تتحرك ولكنها كانت فاعلة ومؤثرة لدرجة أن عددًا من شيوخ الأزهر تأثروا بها اعتنقه البناء، ومن أجل البناء، والبناء فقط، أصدر الشيخ شلتوت فتواه الشهيرة!

ومن أخطر ما أورده خسرو شاهي في دراسته هو ما ذهب إليه من أن البناء ساهم، لا في التقريب، ولكن في نشر المذهب الشيعي في مصر، وقام بدور في ذلك بين الحجيج المصريين البسطاء، وأظن أن التاريخ سيقف كثيرًا أمام عبارات خسرو التي رواها عن آية الله السيد رضا الصدر⁽¹⁾ - كانت هذه العبارات كاشفة عن أن البناء كان حريصًا غاية ما يكون الحرص على نشر المذهب الشيعي في مصر، وتخلص القصة التي رواها الصدر ونقلها عنه خسرو في أنه (احتج بعض المصريين في أحد المراسم التي أقيمت في موسم الحج - التي كان قد حضرها حسن البناء - من منطلق عدم معرفتهم لحقيقة التشيع، على الشيعة المشاركين في الحج... وعندما عرف المرحوم حسن البناء بالأمر حضر في مركز تجمع الحجاج المصريين وألقى كلمة تنويرية محدّراً فيها من مغبة هذا الشيء وقال: لا يحق لأي فرد أن يهاجم المسلمين الآخرين، وأضاف بعد ذلك في كلمته قائلاً: (إن الفرق الموجود بين بعض أهل السنة وبين الشيعة هو أن الشيعة يحبون أهل بيت الرسول أكثر من غيرهم وهذا الشيء أداء لهم للدين، فينبغي أن يشكل هؤلاء القدوة لنا نحن المصريين الذين لنا ولاء لأهل البيت).

هوّن البناء من الفرق بين الشيعة والسنة، بل جعله أمراً مميزاً خصّ الله به الشيعة، فهم فقط يحبون آل البيت أكثر من حب السنة لآل البيت! وبما أننا في مصر نحب آل البيت فلا تثريب علينا إن اتبعناهم، فهم قدوة لنا، وهم أحبوا آل البيت؛ لأن هذا كان أداء لهم للدين!

(1) هو من العلماء المعروفين في الحوزة العلمية في «قم» كما أنه هو الأخ الأكبر للإمام موسى الصدر.

كانت هذه دعوة صريحة لا لبس فيها ولا غموض ولا تمويه ولا تقية، الشيعة قدوة لكم أيها المصريون البسطاء فاتبعوهم يحببكم الله لأن هذا أداء للدين، هل هناك أكثر من ذلك حتى يحتفي الشيعة بحسن البناء، وحتى يطلق الخميني على نفسه لقب المرشد إيماناً بالدور الذي لعبه البناء في فتح الطريق أمام الشيعة في مصر؟

ويقول خسرو في دراسته وهو يعترف بجميل البناء نحو الشيعة (وقد أرسى البناء علاقات طيبة مع علماء الشيعة، وكان يعتبر من جملة الطلائع في حركة التقريب بين المذاهب الإسلامية، وكان ضمن المؤسسين الأوائل لجماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية في القاهرة إلى جانب العلامة الشيخ محمد تقي القمي).

لم يكن البناء إذن مؤمناً فقط بالشيعة، ولم ينقل إيمانه إلى البسطاء فقط من المصريين ولكنه نقل ما آمن به لرجال الأزهر القريبين منه، ثم أقام علاقات طيبة مع رجال الدين من الشيعة.

كان هذا هو رأي البناء إذن في الشيعة، وهذا هو سبب حب الشيعة للبناء، اقترب البناء من الشيعة اقتراباً كبيراً، ولكن هذا الاقتراب أثار غضب علماء السنة على البناء، حتى أقرب المقربين من البناء اتهموه بخيانة عقيدته مقابل دراهم معدودة، ليس هذا كلامي ولكنه كلام أساتذة البناء المقربين.

الفصل الثامن

رفض الرافضة

كانت الرغبة في المعرفة تصاحب سيدنا آدم عليه السلام منذ أن خلقه الله، بث الله فيه هذه الرغبة فكانت هي الرغبة السابقة على «رغبة التكاثر» فحين بث الله الروح في آدم نظر غالبًا حوله وهو يتعجب من نفسه ومن حوله، وما بين ما، ومن، وكيف، ومتى، كانت اللحظات الأولى لآدم في الحياة، تاق آدم شوقًا للمعرفة، هذه هي أولى خطواته في الحياة ومع ذلك فقد أعياه التفكير في الحصول على إجابة لما تردد في ذهنه من أسئلة، فظل تائهاً في دروب المعرفة لا يحير جوابًا، إلى أن بث الله فيه تلك المعرفة التي تشوق إليها، فعلمه الأسماء كلها، أعطاه المعارف، وليست الأسماء هنا هي تعريفات للأشياء والموجودات والمحسوسات، بل إنها تتخطى هذا بكثير، فعلم الأسماء يشمل طبيعة الأشياء ونوعها وكنهها وفائدتها ومضارها، وحين وقف آدم أمام سر «الشجرة المحرمة» لم يجد للسر جوابًا، فالله سبحانه حرّم عليه الأكل من هذه الشجرة إلا أنه لم يعطه، لحكمة عنده، سر هذه الشجرة وسبب التحريم، كما لم ينبئه بفحواها، لذلك جهل آدم طبيعة الشجرة وسبب النهي عن الأكل منها، ولكن الرغبة في المعرفة تتحرق شوقًا في كيانه كله،

والشجرة أمامه، والنهي عالق في ضميره، أيتقدم من الشجرة ليأكل منها فيأثم ويعرف؟ أم يقتل هذه الرغبة في داخله فيثاب ويجهل؟ ظلت الرغبة في المعرفة تتلمظ أمامه وكأنها تقوده رغماً عنه إلى الشجرة، ظنّ الأب الأول للبشرية أن هذه هي شجرة الخلد والمُلْك الذي لا يبلى، ولم يفطن إلى أنه في الجنة خالد، وهو ملك في مملكته! لم يكن آدم عليه السلام عارفاً أنه إذا أكل من هذه الشجرة سيفقد الحالة النورانية التي تؤهله للبقاء في الجنة، فهذه هي شجرة الدنيا، فإذا أكلها حق عليه الهبوط إلى الحياة الدنيا، حجب الله عنه معرفة سر هذه الشجرة، فجهل بها وبأثر الأكل منها، ومن بعد ظل الجهل والنقص في المعرفة أمراً لازماً للإنسان، فكلنا يجهل، وكلنا يسعى لمعرفة ما يجهل ولكن بدرجات، وحين هبط آدم عليه السلام إلى الدنيا، كانت المعرفة التي بثها الله فيه هي السلاح الذي واجه به الحياة فاستمر فيها وظللنا بها، وكان الجهل والنقص الذي جبلنا عليه هو الدافع للمعرفة، فإذا كانت غريزة البقاء هي التي ستبقينا في الحياة الدنيا إلى قيام الساعة، فإن غريزة المعرفة كانت هي أول غريزة فطر عليها الإنسان وبها كان تعمير الأرض ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ من الآية 61 سورة هود، ومنذ أن وضع آدم قدمه على الأرض أدرك أن المعرفة بقاء.



هل كل من كان تواقاً للمعرفة يمر به ما مر بي؟ هل السعي للمعرفة إثم كبير؟ بعضنا يستحضر من ضميره تلك النغزة التي نهشت قلب سيدنا آدم

وهو يأكل من الشجرة المحرمة ليعرف، لاشك أنه اقترب من الشجرة وقلبه يرتجف، فهذه أول مرة سيعصي الله فيها، ولكن الرغبة في المعرفة كانت أكبر من احتمال فغوى، هل المعرفة غواية؟ لا ليست المعرفة غواية، ولكن للمعرفة غواية، إلا أن البعض يعتبر أن المعرفة من غير طريقه هي «غواية» يستدعي من الذكريات الكامنة في النفس الإنسانية لحظة «غواية» آدم، فيسقطها على المعرفة ذاتها، وقد أوقف هذا الأمر عقلي عدة مرات حينما كنت في الإخوان، كان أول ما أوقفني هو النهي الدائم عن السؤال، مع أن السؤال هو طريق المعرفة!! فإذا كان الأخ لحوّاحاً ومصرّاً على المعرفة فإنه يُقَابِلُ بآية قرآنية يضعونها أمامه وكأنها نهي عن المعرفة، إي وربي، يتحول الدين عند البعض إلى «كابح للمعرفة» من خلال آية كريمة هي ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِن بُدِّلَ لَكُم مَّسْئُوكُمْ﴾ لم يفهموها أو بالأحرى قاموا باستخدامها ليغلقوا طريق المعرفة أمام الأتباع، فمن عاش في الظلام ردحاً كره نور المعرفة قطعاً، ولكنني لم أكن ألفت التحذيرات والتنبيهات، كنت أخترق الحواجز والتعليمات وأخذ بعضي وأذهب إلى مقر الجماعة، أو بيت المرشد، لأسأل وأعرف وأعقب، وكان هذا يقدر عند بعضهم في إخوانيتي.

أذكر أنني تقابلت مع الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل في الربع الأول من عام 2013 واستمر اللقاء ما يقرب من الساعتين، وسألني: كيف يتحول الأخ في الإخوان إلى أداة طيعة في يد قياداته؟! ثم قال متعجباً: هذا شيء مذهل!

فقلت له: هناك قاعدة في الإخوان تسير عليها الجماعة هي «إذا دخلت الجماعة فاخلع نعلك وعقلك» ثم يرددون دائماً مقولة سيدنا علي بن أبي طالب «إن الدين لا يؤخذ بالعقل» وبهاتين يتم تدريب الأفراد وتطويعهم، ولكنني لم أخلع عقلي أبداً وإن كان قلبي قد طغى على عقلي بعض فترات، ولكن للطغيان زمن وجولة، وللعقل صيرورة ودولة، وقد صرت إلى عقلي حين انتهى طغيان مشاعري.

عندما وقعت تحت يدي الورقة التي عثرت عليها في مجلة النذير عام 1992 كانت بمثابة «فاتح شهية» للمعرفة، فقد وجدتني بعد أن قرأتها مشغولاً بمعرفة العلاقة التي ربطت بين الإخوان والشيعة، حتى أصبح هذا «الشغف» مصدر أرق لي في حياتي، فكان أن احتفظت بالورقة «الكنز» وقال لي نهمي للمعرفة هل من مزيد، ومن أجل المزيد ظللت في ذات الشهر أشد الرحال إلى مقر الجماعة بشارع سوق التوفيقية بمنطقة وسط البلد مرة كل أسبوع، لعلني أقابل أحد أفراد الرعيل الأول للجماعة فأسأله وأستحث ذاكرته، وفي ذات الوقت وجدتني فرصة كي أبحث في الأعداد القديمة لإصدارات الإخوان الصحفية التي كانت متناثرة في أرجاء المكان بلا عناية ولا اهتمام، وذات مرة لفت نظري في ركن ملاصق للمكتبة بعض «أفرخ أوراق» متنوعة الأحجام موضوعة في مكانها بلا ترتيب، وحين سألت عنها مسئول المقر قال لي: إنها أوراق قديمة خاصة بمجلة الدعوة التي كانت لسان حال الجماعة والتي توقفت عن الإصدار منذ سنوات.

فعدت أسأله: وعلى أي شيء تحتوي؟

قال بعدم اكتراث: بعض الأفرخ كبيرة الحجم بها «الرسم اليدوي» لصفحات المجلة، والأوراق الصغيرة فيها المقالات والتحقيقات لكثير من الأعداد، بعض هذه الأوراق تم إعدامها لأنها لا تمثل قيمة وكانت عبئاً على المكان، أما هذه الأوراق فقد طلب الأستاذ جابر رزق، رحمه الله، الاحتفاظ بها حتى يراجعها، إلا أنه مرض وسافر للخارج ثم مات إلى رحمة الله⁽¹⁾ ومن ساعتها ظلت هذه الأوراق في مكانها لم يراجعها أحد.

استمعت إلى الرجل ثم حملت هذه الأوراق وجلست إلى مائدة في المكان وأخذت أتصفح الأوراق فوجدت فيها كنزًا لا ينبغي تركه أبدًا، كان هذا الكنز بمثابة الشجرة المحرمة لي.

- هل أتركه أم أكل منه؟

- لا يوجد نهي عن تصفح هذه الأوراق.

- نعم ولكن يوجد نهي عن حملها وأخذها ثم امتلاكها فهي مملوكة للجماعة.

- ولكنها إذا ظلت هنا ستبید ولن يشعر بها أحد.

- وليكن ولكنها محرمة عليك.

- إنها معرفة، والمعرفة ملك لمن يحصل عليها، فهي كالماء والهواء.

- وليكن.

(1) الأستاذ جابر رزق كان من قيادات الإخوان المسلمين وكان من الشخصيات المقربة من المرشد الثالث الأستاذ عمر التلمساني، وكان يشغل وظيفة مدير تحرير مجلة الدعوة لسان حال الإخوان وظل في موقعه هذا إلى أن تم إغلاق المجلة رسميًا في أوائل الثمانينيات من القرن العشرين، وقد توفاه الله عام 1989 بعد رحلة مرض.

- ولكن لو أذن لي أحدهم أكون قد تجاوزت النهي.

- إذن ابحث عمن يأذن لك.

وفي هذا اليوم لم يأت أحد من كبار الإخوان إلى المقر، فحملت أفكاري وانصرفت.

وفي اليوم التالي مباشرة كنت هناك، وكان من حظي أن تقابلت مع الدكتور عبد المنعم أبو الفتوح الذي كان قد حصل على عضوية مكتب الإرشاد قبلها بسنوات قليلة وكان من أنشط أعضاء مكتب الإرشاد، وفي ذات الوقت كان وقتها يتولى مسئولية قسم المهنيين في الجماعة، لم أتحدث معه كثيرًا إذ كان مشغولًا بمقابلة بعض الضيوف من العرب، فانتهزت الفرصة وأخبرته عن الأوراق القديمة المهمة الملقاة بالجانب الملاصق للمكتبة، ونقلت إليه رغبتني في إجراء بحث في هذه الأوراق لعلني أجد فيها شيئًا له قيمته، فوافق سريعًا دون تعقيب وكأنه يقول لي: هي عندك أكثر فائدة من هنا.

وحينما انفردت بهذه الأوراق في بيتي كنت مثل «علي بابا» الذي وقع في الدهول حينما رأى كنز المغارة، وهأنذا جالس على مكتبي أمام جزء من كنز المغارة والذهول قد أخذ بلبى وملك مجامع قلبي، وأنا المتشوق للمعرفة ألتهم السطور بعيني، أخذت عيني تتملى الأوراق كأنني أنظر في وجه أحد الأجداد عاد من زمن سحيق ليخبرني عن دنيا انتهى زمنها ولكن أثرها ما زال باقياً، استراح قلبي لهذه الأوراق الصفراء التي شملت فيها رائحة التاريخ الذكية، وكأن للقديم عبقة وسحره!

كانت الورقة الكبيرة بها خريطة يدوية عنوانها «إنشاء جمعية السنة والشيعة» وتحتها عبارة «المقترح اسمها دار التقريب».

ثم بعض الخطوط الطولية والعرضية تحتها بعض البيانات، وفي الجانب الأيمن من الورقة توجد العبارات الآتية:

حضرة الأستاذ المفضل حسن أفندي البنا.

السلام عليكم ورحمة الله

رأيت أن يكون هذا تصوري لجمعية التقريب، ولك الحق في أن تعدل ما تشاء، ولكن لي رأي أرجو أن نعالجه معاً هو وجود علماء سنة يحاربون الجعفرية ويتقولون عليها بغير علم، مثل الأستاذ محب الخطيب والشيخ طه الساكت والشيخ السبكي، وكلهم أمل في قدرة فضيلتك على ضمهم للجمعية فإذا كانوا معنا سقطت حجبتهم في القول علينا.

المخلص الأمين

السيد محمد القمي

وبجوار التوقيع ختم الشيخ القمي.

لفت نظري في هذه الورقة «الوثيقة» أن القمي قال في خطابه للبنا وهو بصدد الاقتراح الذي أبداه لوقف الحملة ضد الشيعة عبارة «في القول علينا» والمعنى السابق يفيد أن هناك هجوماً من علماء السنة على الجعفرية، ثم يجمع القمي نفسه مع البنا في كلمة «علينا» ورغم أن هذه العبارة تفيد من ظاهرها أن هناك من يقول على دار التقريب، فإنها أيضاً تفيد أن هناك من يقول

على «الجعفرية» فلماذا جمع القمي نفسه مع البنا في علينا وهو يتحدث عن الشيعة!! إلا أننا سنأخذ بظاهر النص الوارد في هذه الوثيقة النادرة وسنفتح الباب الذي تحدث عنه القمي، باب التقول، فما الذي كان يقصده القمي هنا بالتقول؟



كان لا بد وأن أعود إلى الكتابات التي سطرها الشيوخ الذين «تقولوا» ماذا كتب الشيخ محب الدين الخطيب والذي كان أستاذًا للبنا ومقرَّبًا منه، بل إن البنا في مذكراته أشاد بأستاذه الخطيب وبفضله عليه، كان الشيخ محب الدين الخطيب⁽¹⁾ ومعه الشيخ رشيد رضا⁽²⁾ هما السند الذي استند إليه البنا وهو يخطو بجماعته خطواتها الأولى، فكيف يتقول محب الدين الخطيب على البنا والقمي؟!

وحين عرفت أن محب الدين الخطيب ألف كتابًا وقت إنشاء دار التقريب تحت عنوان «الخطوط العريضة للأسس التي قام عليها دين الشيعة الإمامية الإثنا عشرية»، أخذت أبحث عنه في المكتبات ولدى الأصدقاء إلا أنني

(1) هو أحد علماء السنة الكبار، ولد في دمشق عام 1886 وجاء إلى مصر في الربع الأول من القرن العشرين وساهم في إنشاء جمعية الشبان المسلمين وأصدر مجلة «الزهراء» واتصل به حسن البنا وصاحبه وأصدر مع البنا مجلة (الإخوان المسلمون) وله العديد من المؤلفات كما قام بتحقيق عدة مخطوطات وتوفي عام 1969.

(2) الشيخ محمد رشيد رضا هو أحد أعلام المسلمين وهو لبناني استقرت إقامته بمصر وله تفسير للقرآن الكريم «المنار» - وكان تلميذًا للشيخ محمد عبده وأصدر العديد من المؤلفات من أشهرها كتاب «السنة والشيعة» وكان البنا يعتبره أستاذه الأكبر.

للأسف لم أعثر له على أثر حتى وجدته في غضون عام 2004 في مكتبة أحد أساتذتي الكبار وهو الأستاذ أحمد إبراهيم أبو غالي فتلقفته منه وقرأته بعناية فائقة حتى إنني كدت أن أستنطق السطور لتشي لي بما لم يبح به الشيخ محب الدين الخطيب.

فاجأتني بعض العبارات في الكتاب، ودعنتني إلى إعادة التفكير في العلاقة التي كانت تربط البنا بالشيخ محب الدين الخطيب، هل بالفعل استمرت العلاقة بين الطرفين جيدة إلى أن مات البنا؟! صحيح أن محب الدين الخطيب رثى البنا بعبارات طيبة إلا أن ما يقال وقت الوفاة وفي الخطوب الجليلة لا يقاس عليه، ولكن المتبع للعامين الآخرين من حياة البنا وخاصة في الفترة التي بدأ البنا فيها تأسيس دار التقريب مع الشيخ القمي يجد أن العلاقة بينه ومحب الخطيب كانت فاترة!

ولكن ما هي العبارات التي كتبها محب الدين الخطيب في كتابه واستوقفني؟ قال:

(فقد لوحظ أنه أنشئت لدعوة التقريب دار في مصر ينفق عليها من الميزانية الرسمية لدولة شيعية، الدولة الشيعية الكريمة أثرتنا بهذه المكرمة فاخصتنا بهذا السخاء الرسمي وضنت بمثله على نفسها وعلى أبناء مذهبها..).

لم نعهد على الشيخ محب الدين الخطيب الحديث بسخرية، ولكنه هنا في عباراته هذه يسخر من تلك المفارقة العجيبة، مفارقة أن تنفق إيران

بسخاء على إنشاء دار للتقريب في مصر ولا تُنشئ مثلها في إيران! ثم إن الشيخ يلوح هنا بمسألة الإنفاق بسخاء، اللذان قاما بالإنشاء هما الشيخ البنا والشيخ القمي، والقمي جاء من إيران لهذا الهدف، وهو الذي كان يتلقى المال من إيران، وبذلك يكون الشيخ الخطيب وخز تلميذه البنا وخزعة متعلق بالمال الذي جاء من إيران وكيف أنه تم توزيعه بسخاء!

وأشار الشيخ محب الدين الخطيب في هامش الصفحة الثامنة أن نهج الإنفاق بسخاء هو نهج الشيعة وهو الذي ساعدهم على نشر المذهب الشيعي في العراق! فهل التلميح هنا وصل إلى درجة قريبة من الإفصاح؟

في باقي الكتاب استعرض محب الدين الخطيب عقائد الشيعة وأظهر مدى الخلل فيها والزيغ الذي اعتورها، إلا أنه أيضاً طرح قضية منطقية، هي كيف يكون الاقتراب من طرف واحد؟ أليس هذا الأمر يثير الشك والريبة؟ لماذا لم تأخذ الشيعة خطوة للاقتراب من السنة، أو بالأحرى لماذا نقرب نحن من الشيعة وهم على موقفهم العقائدي لا يغادرونه قيد أنملة؟ هذه أسئلة طرحها محب الدين الخطيب وأجاب عنها في كتابه بعد أن وضع جدولاً يوضح فيه الفروق بين الشيعة والسنة والتي من خلالها أيقن الشيخ أنه يستحيل التوفيق بينهما.

ولكن هل اكتفى الأستاذ محب الدين الخطيب بهذا الكتاب؟ لم يقف الخطيب ساكناً وهو يرى البنا يقطع شوطاً كبيراً في نشر المذهب الشيعي في

مصر تحت غطاء التقريب، لذلك كتب مقالاً يعتبر من أهم المقالات في هذا الصدد ونشره في مجلته الشهيرة «الفتح»⁽¹⁾ بالعدد 862، وقد أغلظ الأستاذ محب الدين الخطيب للبنا والإخوان في هذه المقالة، واتهمهم بالتسيب والميوعة تحت مسمى «إزالة الفوارق» وأقام عليهم الحجة ولأن حسن البنا تألم من هذه المقالة، ولأن الإخوان فوجئوا بها فقد أوقفوا آلة التاريخ التي لديهم فلم ينقلوها ولم يؤرخوا لها في كتبهم، على حد علمي، وهذه هي المقالة بالكامل.

كلام صريح وكلام مبهم حول خرافة التقريب بين المذاهب

وجه أحد المسلمين - بل أحد الإخوان المسلمين - في المحلة الكبرى سؤالاً إلى رصيفتنا مجلة الإخوان المسلمين الغراء الأسبوعية يقول لها فيه: «نرجو إيضاح موقف الإخوان من مذهب التقريب بين المذاهب الإسلامية بعد أن أعلن عنه الأستاذ تقي القمي محبذاً ومتفائلاً بانضمام فضيلة المرشد العام، ثم رد عليه الأستاذ محب الدين الخطيب ناقدًا» فأجابت مجلة الإخوان المسلمين على ذلك في العدد 217 من سنتها السادسة بما نصه: «يرى الأستاذ محب الدين الخطيب أن التقريب بين المذاهب مستحيل، لأنها مذاهب مقررة وموضوعة على أسس ثابتة، والتقريب بينها يتطلب نقض هذه الأسس وإنشاء مذهب ثالث، ويرى أن الممكن هو العمل على التعاون في المصالح

(1) مجلة الفتح من الإصدارات التي أصدرها محب الدين الخطيب، بدأ في إصدارها من مصر عام 1926 بالاشتراك مع كوكبة كبيرة من العلماء والمتقنين منهم أحمد تيمور باشا والشيخ محمد الحضر حسين وتوقفت المجلة عن الإصدار عام 1948.

المشتركة، ويرى الإخوان أنه يجب العمل على إزالة الفوارق أو بعضها ما أمكن، وكلما قلت الاختلافات أمكن التعاون والتوفيق».

وبما أن المسألة مسألة دين، والكلام في الدين يجب أن يكون صريحاً وواضحاً، فلا بد لنا أن نكون صرحاء واضحين في تفهم الغرض المقصود من «العمل على إزالة الفوارق أو بعضها ما أمكن» ومبدأ أن إمكان التعاون متوقف على الإقلال من الاختلافات «وكلما قلت الاختلافات أمكن التعاون والتوفيق».

إن المذهب الذي يتبعه تقي قمي هو المذهب الشيعي، والمذهب الشيعي يختلف عن المذهب الذي يتبعه الإخوان المسلمون والشيخ شلتوت والشيخ عبد المجيد سليم والشيخ الزهاوي في أمرين: أحدهما يتناول أصول الدين، والآخر يتناول فروع الدين. فنحن، معشر أهل السنة والجماعة، نرجع في أصول الدين إلى ما جاءنا به نبينا محمد ﷺ في الكتاب الذي أوحى إليه من الله، وفي السنة التي لا ينطق فيها عن الهوى، وإنما هي من تعليم الله له ووحيه، ومضت سنة أهل السنة في فهم كتاب الله أن يتحروا ما فهمه الصحابة رضي الله عنهم من النبي ﷺ، وما فهمه التابعون من الصحابة، وما فهمه أئمتنا الأربعة وإخوانهم الذين في طبقتهم عن شيوخهم من التابعين أو التابعين لهم بإحسان. والعقائد الإسلامية، وأصول الدين قد تلقاها أهل السنة عن النبي ﷺ من هذا الطريق: طريق التابعين عن شيوخهم من الصحابة الذين هم تلاميذ الهادي الأعظم. فكل أصل في الإسلام أو عقيدة مستمدة من كتاب الله بمفهومه الذي فهمه أصحاب رسول الله، أو من سنة رسول الله، منقولة بلسان أصحابه.

والمذهب الشيعي مبني على بغض أصحاب رسول الله وشتهم ولعنهم، يستثنون منهم عددًا قليلًا جدًا، وقد بلغ بهم الحقد على أكمل خلق الله بعد رسول الله أن كذبوا على سلمان الفارسي فادعوا عليه في كتاب الوافي (2/ 45) وهو من أمهات كتبهم الشرعية المعتمدة أن علي بن أبي طالب قال: «إن أول من بايع أبا بكر هو إبليس»! وفيه (2/ 47) أن جعفرًا الصادق قال في آية ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ نزلت في أبي بكر وعمر. ويقول شيخهم الكذوب أبو جعفر الكليني في كتابه (الكافي) 3/ 325 عن آية ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا...﴾ نزلت في أبي بكر وعمر وعثمان.

هذا قول أئمتهم الأولين في صفوة البشر من أصحاب رسول الله ﷺ، أما علماءهم المتأخرون؛ فهذا علامتهم المجتهد محمد مهدي السبزواري يقول في كتاب تاريخه 4 ربيع الآخر سنة 1347 بعث به إلى السيد إبراهيم الراوي من علماء بغداد: «قلتم أدام الله ظلكم: وإذا صدق قول الشيعة في ارتداد الصحابة كلهم الذين يتجاوز عددهم مائة ألف إلا خمسة أو ستة أو سبعة (والصواب ثلاثة) فلم يقاتل أبو بكر أهل الردة ويردهم إلى الإسلام؟ وكفره كفر حكمي لا كفر واقعي كعبادة الوثن والصنم. وقلتم وفقنا الله وإياكم: وهذا النبي مدة ثلاث وعشرين سنة يصحبه أصحاب كفار، ومدة طويلة أيضًا تصحبه زوجة كافرة لا يعلمهم... أقول: لم يعتقد الشيعة كفر الصحابة وعائشة في حياة النبي، وإنما قالوا إنهم ارتدوا بعد النبي».

فإذا كان هذا اعتقاد الشيعة في الصحابة فبديهي أنهم ينكرون فهم الصحابة لأصول الدين، ويرفضون أحاديث رسول الله ﷺ التي رواها هؤلاء الأصحاب، ودونها أقطاب المحدثين من أهل السنة، وفي طليعتهم الإمامان العظيمان البخاري ومسلم وسائر أصحاب الكتب الستة ومن في منزلتهم.

وتمتاز الأحاديث التي رواها أمثال هؤلاء بأن رواتها معروفون بالصدق والعلم والأمانة والتقوى وسائر ما تستلزمه عدالتهم في أخبارهم، وإن تفاوتوا في ذلك كما هو المشاهد في خيار الناس في كل زمان ومكان. وإذا توافرت هذه الصفات الطيبة في شيعي أو زيدي أو إباضي أو معتزلي فإنهم يقبلون روايته في كل شيء إلا فيما يتعلق بالمعاني التي انفردت بها نحلتهم فإنهم يجتنبونها من هذه الناحية ويقبلون سائر ما يروونه. مثال ذلك: الحسن ابن صالح بن حي الثوري الهمداني وأخوه علي كانا من الشيعة الزيدية وكانا عوناً لكل من يقوم من آل البيت بحركة أو ثورة، وفي بيتها اختبأ عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بعد واقعة باخرى التي قُتل فيها إبراهيم بن عبد الله المحض ابن الحسن المثنى ابن الحسن السبط في خلافة أبي جعفر المنصور. وكان سفيان الثوري ينكر عليها تشيعها وافتراقهما عن الجماعة حتى في الجمعة والجهاد. ولكنها لصلاحها وصدقها وتقواهما يقبل أهل السنة ما يرويانه على القاعدة التي ذكرناها، أما الشيعة الإثنا عشرية فيتبرءون منها ويذمونها في كتبهم المعتمدة؛ لأنها من الشيعة الزيدية وليس من الشيعة الإثنا عشرية.

وقد حصر الشيعة الإثنا عشرية تشيعهم باثني عشر رجلاً من أهل البيت لا يعترفون بغيرهم لا من الصحابة ولا من آل البيت، فكما لا يعترفون بأبي بكر وعمر وأم المؤمنين عائشة وأم المؤمنين حفصة لا يعترفون بالإمام زيد ولا بغيره من أعلام آل البيت. ولا يكتفون بذلك، بل يعتقدون أنَّ العصمة بهؤلاء الاثني عشر، ويعتبرونهم مصدر التشريع، وأول من اخترع لهم هذه العقيدة الضالة خبيث يسميه المسلمون (شيطان الطاق) وتسميه الشيعة (مؤمن آل محمد) واسمه محمد بن علي بن النعمان الأحول. دخل الإمام زيد بن علي (الذي يرجع إليه مذهب الزيدية) على ابن أخيه جعفر الصادق ذات يوم فوجد عنده هذا الملعون شيطان الطاق، وكان قد بدأ يذيع عقيدة العصمة لأناس مخصوصين من آل البيت وحصر الإمامة والتشريع فيهم، فقال له الإمام زيد: يا محمد بن علي أنت تزعم أن في آل محمد إماماً مفترض الطاعة معروفاً بعينه؟ فأجابه: نعم، أبوك أحدهم. قال له الإمام زيد: ويحك، وما يمنعه أن يقول لي؟ فوالله لقد كان يؤتى بالطعام الحار فيقعدهني على فخذه ويتناول البضعة فيبردها ثم يلقمنيها، أفتراه كان يشفق عليّ من حر الطعام ولا يشفق علي من حر النار؟ فأجابه شيطان الطاق: كان يكره أن يقول لك فتكفر فيجب عليك من الله الوعيد، ولا يكون له فيك شفاعاة، فتركك مرجئاً لله فيك المسألة وله فيك الشفاعاة، ومن ذلك اليوم قرر الشيعة عقيدة العصمة بعد النبي ﷺ لأشخاص عينوهم وجعلوهم مصدر تشريع، ولو اقتصر الأمر على ذلك لكان هيناً، ولكنهم جاءوا برواة عن هؤلاء الاثني عشر لم يشترطوا فيهم ما اشترطه أهل السنة في الرواة من الصدق والعلم

والأمانة والتقوى، ولو اشترطوا ذلك لقبولوا أمثال الحسن بن صالح بن حي الثوري وأخيه علي، بل لقبولوا أمثال الإمام مالك والإمام أحمد بن حنبل وشيوخهما وتلاميذهما. إن العبرة عندهم ليست للصدق والعلم والأمانة والتقوى، بل للعصبية والحب والبغض، فكل من كان أشد بغضاً لأبي بكر وعمر وسائر أصحاب رسول الله وأزواجه الطاهرات (عدا ذلك العدد القليل من الصحابة) وكان لا يسمي عائشة إلا ويكتب في جانب اسمها «الملعونة» فهو أوثق تشيعاً وأصدق حديثاً، حتى لو عرف في حياته الشخصية بأنه أكذب الناس.

كان سيدنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يقول «اعرفوا الرجال بالحق ولا تعرفوا الحق بالرجال» فلوى هؤلاء الملتوون مذهبه وعكسوا أمره وصاروا يعرفون الحق بالرجال، وقد بلغ من تحزبهم وتعصبهم (لأسماء) عدد قليل من آل البيت أن اخترعوا لهذا العدد القليل من آل البيت مذهباً يرويه عنهم أشخاص عرفهم معاصروهم بالكذب والخبث والدس، ولخبثهم كذبوا ودرسوا على هؤلاء الاثني عشر من آل البيت ما لا علم لهم به، وقالوا: إن هذا هو المذهب الشيعي.

ولو قام أساس المذهب الشيعي على شريعة مصدرها معصومون بعد النبي ﷺ ورواها عنهم كذابون امتازوا عندهم بالعصبية لأناس والبغضاء لأناس آخرين لكان ذلك أقل شراً من حكاية الرقاع التي كانوا يكتبون بها الاستفتاء في شرع الله ويدسونها ليلاً في ثقب شجرة على مقربة من السرداب الذي غاب فيه إمامهم الثاني عشر وهو صبي دون الحلم ليجيئهم عنها

بزعمهم، فإذا كان الصباح وجدوا الجواب الشرعي مكتوبًا عليها بخط مجهول ووسائل مجهولة، ومثل هذه الرقاع لا يقام لها وزن في قضاء ولا في منطق ولا في عقل من عقول البشر، وهي من مصادر تشريعهم الذي يريد القمي أن يقرب بينه وبين التشريع الإسلامي الذي يعتمد على كتاب الله كما فهمه أصحاب رسول الله ﷺ، وعلى السنة المحمدية كما رواها الصادقون عن الصادقين عن هؤلاء الصحابة الكرام البررة المتقين.

وهذا الشاب الأنيق الذي يسمى تقي قمي جاءنا من بلاد هؤلاء، وفتح لعلمائنا وباشواتنا ناديًا في الزمالك سماه دار التقريب بين المذاهب، يتفق فيه وعليه عن سعة، ويريد منا أن نقرب بين مذهبنا ومذهبه، مع أنه لم يقم بهذه الدعوة في بلاده؛ لأنه لا يستطيع أن يقوم بها، ولا يجرؤ لا هو ولا غيره على الجهر بها، ولا يملك لا هو ولا أي عالم من علمائهم أن ينقض عقيدته أو يغير من مذهبه قيد شعرة. وهو يعلم أنه ليس في أهل السنة رجل يجرؤ على أن يعطي لنفسه الحق بأن ينقض عقيدة من عقائد أهل السنة، ولا أن يحول المسلمين عن كفرهم بكل عصمة للبشر غير عصمة الأنبياء، أو أن يزحزح أهل السنة شعرة عن الاعتقاد بأن أصحاب رسول الله ﷺ كالنجوم، وأن النبي ﷺ قال لنا: «بأيهم اقتديتم اهتديتم»، فجاء الشيعة يقولون لنا: إن اقتديتم بهم ضللتهم.

أنا صريح في أن من المستحيل التقريب بين مذهبين هذا أساسهما. وأسمع من يقول ينبغي «إزالة الفوارق أو بعضها ما أمكن» و«كلما قلت الاختلافات أمكن التعاون»!

ماذا يريدون أن يزيلوا من الفوارق؟ هل يريدون أن نلعن معهم أصحاب رسول الله ﷺ وأزواجه الطاهرات، وهن أهل البيت كما سماهن الله عز وجل في سورة الأحزاب ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿١٩﴾

أم يريدون منا أن نمزق صحيحي البخاري ومسلم وبقية الكتب الستة وما في درجتها؛ لأن ما فيها من أحاديث الرسول ﷺ رواه هؤلاء الأصحاب المغضوب عليهم من الشيعة؟

أم يريدون منا أن نعتقد العصمة في غير الأنبياء، وأن نتخذهم مصدر تشريع، عملاً بما اخترعه شيطان الطاق لهؤلاء الضالين، وأن نقبل من التشريع المنسوب إليهم ما رواه الكذابون المحترقون تعصباً وبغضاً لخير أمة أخرجها الله للناس؟!

وإذا كانت إزالة الفوارق من جانبنا في هذه الأمور مستحيلة؛ لأن الإسلام نفسه يتغير بها، فأشد منها استحالة أن يتحول شيعي عن شيعيته إلا بالرياء والتقية لدسيسة ينويها أو مكيدة يدبرها، لأن المذهب بني عندهم على التشيع، أي على التحزب والتعصب. وإذا كنا نحن نقبل في صفوفنا من يخالفنا على صدق وصلاح، كالحسن بن صالح بن حي وهو شيعي زيدي، فإن جماعة تقي قمي لا يقبلونه على شيعيته لفرق فرعي بينه وبينهم. وهل الذين هذا موقفهم من الزيدية يمكن أن يزيلوا شيئاً من الفوارق التي بينهم وبين أهل السنة أو الإباضية؟!

ثم من ذا الذي زعم أن المذاهب ملك لأفراد يعشون فيها كما يريدون؟ إن المذاهب الفرعية المتقاربة التي ترجع إلى أصل واحد، وهي مذهب الشافعي وأبي حنيفة ومالك وأحمد بن حنبل، لا يستطيع فقهاء أي مذهب منها في أي عصر من عصورها أن يزعموا أن لهم سلطاناً في إلغاء شيء من أحكامها أو تعديل شيء منها. فإذا كان لمس المتوضئ يد المرأة الأجنبية ينقض وضوءه عند الشافعي فهل يستطيع جميع علماء الشافعية، من بلاد الأكراد إلى حضر موت فإندونيسيا، أن يعدلوا فيه ويقولوا شيئاً جديداً غير المعروف في المذهب؟

وإذا كان هذا في اختلاف فرعي صغير بين مذهبين متقاربين بل متحدي الأسس كالشافعي والحنفي، فكيف باختلاف جسيم يقلب الدين كله رأساً على عقب؟!

نحن نعرف أن البابا له أن يعدل في بعض شئون الكاثوليكية إلى حد ما، ولكن لم نكن نعرف أن في الذين يترددون على دار «التخريب» من يتحل لنفسه في الإسلام مثل سلطان البابا في الكاثوليكية!

وبعد، فإن أصحاب رسول الله على مراتبهم - من أبي بكر وعمر إلى من يليهم - هم صفوة البشر والطبقة الممتازة من بني الإنسان في تاريخ الإنسانية، ونحن لا نقبل سبهم والبغي عليهم من يهودي فضلاً عن أن نقبله ممن يزعم الانتساب إلى الإسلام. ودار «التخريب» يجب أن تُقفل من الزمالك وتُفتح في طهران وأصبهان وقم وزنجان، وأن يكون رأس الدعوة فيها هناك الخجل

من التاريخ، بعد الخجل من الله، في ذلك الموقف المزري الذي يقفه الشيعة من خير أمة أخرجت للناس، فإذا غيروا هذا الموقف، وعدلوا عن القول بعصمة غير الأنبياء، وتبرءوا من كل ما بني على هذين الأساسين، حصل التقريب بذلك وتم ما يريدون، وإلا فالعلم وأهله لهم بالمرصاد.

محب الدين الخطيب



كانت هذه المقالة هي المقص الذي قطع الحبل الذي كان يربط محب الدين الخطيب بحسن البناء، وكان وقعها صادماً على البناء إذاحتوت مواجهة صريحة لفكرة التقريب التي كانت تسير على قدم واحدة، قدم عرجاء، تتجه ناحية إيران فقط، أما القدم الأخرى التي من المفترض أن تتجه من إيران إلى أهل السنة فقد ظلت ساكنة في مكانها جامدة متييسة يعرفونها «تراب الفتنة». كان الأستاذ الخطيب رحمه الله صريحاً وهو يقول للبناء («إزالة الفوارق أو بعضها ما أمكن» و«كلما قلت الاختلافات أمكن التعاون» ماذا يريدون أن يزيلوا من الفوارق؟ هل يريدون أن نلعن معهم أصحاب رسول الله ﷺ وأزواجه الطاهرات وهن أهل البيت كما سباهن الله عز وجل في سورة الأحزاب).

ثم يستكمل الخطيب كلامه وهو يهزبه عقل البناء - أو قل قلبه : (أم يريدون منا أن نمزق صحيحي البخاري ومسلم وبقية الكتب الستة وما في درجتها؛ لأن ما فيها من أحاديث الرسول ﷺ رواه هؤلاء الأصحاب المغضوب عليهم من الشيعة؟!).

وأخيرًا يواجه الخطيب تلميذه البنا بالحقيقة التي عرفها البنا ولكنه كان يدور حولها وهي: (وإذا كانت إزالة الفوارق من جانبنا في هذه الأمور مستحيلة؛ لأن الإسلام نفسه يتغير بها، فأشد منها استحالة أن يتحول شيعي عن شيعيته إلا بالرياء والتقية لدسيسة ينويها أو مكيدة يدبرها، لأن المذهب بني عندهم على التشيع، أي على التحزب والتعصب).

وكان الشيء الأكبر الذي هدم العلاقة بين البنا والخطيب هو ذلك اللمز الذي استخدمه الخطيب بخصوص المال الذي تم إنشاء دار التقريب به فقال (وهذا الشاب الأنيق الذي يُسمَّى تقي قمي جاءنا من بلاد هؤلاء، وفتح لعلماننا وباشواتنا ناديًا في الزمالك سماه دار التقريب بين المذاهب، ينفق فيه وعليه عن سعة، ويريد منا أن نقرب بين مذهبنا ومذهبه، مع أنه لم يقم بهذه الدعوة في بلاده؛ لأنه لا يستطيع أن يقوم بها، ولا يجرؤ لا هو ولا غيره على الجهر بها) كرر الخطيب كلمة «ينفق فيه وعليه من سعة» مع ما في هذه العبارة من مفهوم، وكان قد سبق أن استخدمها في كتابه عن الشيعة، وكان التلميح منصبًا على «البنا» الذي كان هو قائد مسيرة التقريب هذه.

والحق أن الأستاذ الخطيب لم يكن هو الوحيد من العلماء الذين وقفوا ضد التقريب وضد خطوات حسن البنا في إنشاء هذه الدار، بل وقف عدد من العلماء ينبهون إلى الخطر الداهم من الاقتراب من الشيعة، ليس الخطر على تراب الوطن ولكن الخطر على دين الوطن وعقيدته، ومع محب الدين

الخطيب في موقفه كان الدكتور أحمد أمين⁽¹⁾ وهو واحد من الذين وقفوا ضد خطوات الشيعة التي كانت تسير إلى ناحية العالم السني بشكل صبور وحيث.

كتب أحمد أمين في كتابه فجر الإسلام منوهاً إلى أن الفرس استولوا على التشيع فقال: (والذي أرى كما يدلنا التاريخ أن التشيع لعلّ بدأ قبل دخول الفرس في الإسلام ولكن بمعنى ساذج، ولكن هذا التشيع أخذ صبغة جديدة بدخول العناصر الأخرى في الإسلام وحيث إن أكبر عنصر دخل الإسلام الفرس فلهم أكبر الأثر بالتشيع)⁽²⁾.

ويقول في موضع آخر من الكتاب: (فنظرة الشيعة في عليّ وأبنائه هي نظرة آبائهم الأولين من الملوك الساسانيين، وثنوية الفرس كانوا منبعاً يستقي منه الرافضة في الإسلام فحرك ذلك المعتزلة لدفع حجج الرافضة)⁽³⁾.

ولم تكن الاعتراضات قاصرة فقط على من نظروا من بعيد فأوا خطورة التقارب ودعاويه، ولكن أيضاً كانت ممن خاضوا التجربة نفسها «ولا ينبئك مثل خبير» الذي خاض التجربة عرف وعاین وبصر واستبصر، وكان من

(1) الدكتور أحمد أمين هو واحد من كبار الأدباء والمؤرخين والعلماء في مصر، ولد عام 1886 وتوفي عام 1954 وكان عميداً لكلية الآداب بالجامعة المصرية، حصل على إجازته العلمية من الأزهر الشريف، ثم إجازة أخرى من مدرسة القضاء الشرعي، وعمل قاضياً شرعياً فترة من حياته، كتب موسوعة إسلامية ضخمة بدأت بـ «فجر الإسلام» وانتهت بـ «يوم الإسلام».

(2) فجر الإسلام للدكتور أحمد أمين ص 267.

(3) المرجع السابق ص 111.

الذين دخلوا في هذه المعمة - الشيخ عبد اللطيف السبكي⁽¹⁾ وهو واحد من علماء الأزهر الكبار الذين اتخذوا بشعارات دار التقريب ، فأصبح عضواً فيها، وحين أدرك ما وراءها غادرها إلى غير رجعة، ولم يكتف بذلك بل كتب ضد هذه الدار، وضد فكرة التقريب التي خدعت بعض العلماء، وأبدى الشيخ السبكي تعجبه من الإنفاق الذي يتم على هذه الدار ببذخ كبير، رأى الشيخ السبكي أن هذه الدار أعدت لنفسها مقراً في أرقى أحياء القاهرة هو الزمالك، وكان المقر فخماً مؤسساً بالرياش الغالية، ومجلته تطبع طباعة فخمة مغلفة، ومرتببات كبيرة للموظفين، وعطايا لأفراد كثيرين لتقريبهم من فكرة التقريب، فتركهم وهو يعرض بنان الندم على الأوقات القصيرة التي قضاها بينهم، وقال في ذلك في مقال له بمجلة الأزهر (هل صحيح أن علماء النجف مستعدون للتلاقي مع غيرهم لتعود وحدة المسلمين أو يتحقق شيء من التقريب؟ هل يمكنهم أن يجيدوا عن القول بأن لهم أئمة معدودين باثني عشر - مثلاً - وأن هؤلاء هم وحدهم المهديون، ومن بينهم الإمام المنتظر المختفي حيث يعلم الله وإلى أن يشاء، وهل هؤلاء الأئمة، من ظهر منهم ومن اختفى معصومون كعصمة الأنبياء وإن لم يكونوا أنبياء؟! وهل الوصية لعلي رضي الله عنه أمر معقول فضلاً عن صحته واعتباره من أصول الدين؟ وهل زواج المتعة قابل للتفاهم معهم في صحته أو بطلانه وهم يستطيعونه وإن خالفوا؟ وهل سب الصحابة والتكر لأشياخ الصحابة أمر يرتضيه

(1) كان الشيخ عبد اللطيف السبكي من كبار علماء الأزهر الشريف، ولد عام 1896 وتوفي عام 1969 وكان قد انضم إلى دار التقريب بين السنة والشيعة منخدعاً بشعاراتها ثم سرعان ما انسحب منها.

أدب الإسلام، وتسمح به تعاليم النبي ﷺ ويتفق مع ما صح عنه ﷺ من التنويه بفضلهم؟).

وسار مع الشيخ السبكي في محاربته لدار التقريب عدد من الشيوخ كان منهم الشيخ طه الساكت وغيره من العلماء، ولكن المفاجأة الأكبر كانت في موقف الشيخ محمد رشيد رضا من الشيعة، لم تكن هذه مفاجأة للعارفين الباحثين، ولكنها كانت مفاجأة شخصية لي أنا، فرشيد رضا في اعتقادي كان يجذ التقريب، وآية ذلك أنه كان هو صاحب المقولة الشهيرة «فلنعمل فيما اتفقنا عليه وليعذر بعضنا البعض فيما اختلفنا فيه» تلك المقولة التي استخدمها البنا في مواقف كثيرة أبرزها مواقفه مع الشيعة، وفضلاً عن ذلك فإن رشيد رضا كان تلميذاً غير مباشر لجمال الدين الأفغاني⁽¹⁾، وكثير من الكتابات لعديد من المؤلفين كانت تشير إلى أن الأفغاني كان شيعياً، ولم يكن من بلاد الأفغان ولكنه كان من إيران وأخفى هويته الجغرافية فما الذي كان عليه رشيد رضا إذن؟ وما هو موقفه من الشيعة وفكرة التقريب؟



منذ أكثر من ثمانين سنة حدثت داخل جماعة الإخوان أمور، كان «الشيخ رشيد رضا» من أمور الجماعة الأولى، وكان الإخوان يتفاخرون بهذا الشيخ الكبير الذي وقف مع حسن البناء، وشد أزره، ورسم له طريقاً طويلاً،

(1) لم يلتق رشيد رضا بالأفغاني ولكنه اطلع على آثاره ثم تتلمذ على يد الشيخ محمد عبده الذي كان صديقاً مقرباً للأفغاني.

وأوصاه ألا يخالف هذا الطريق، ولكن البنا شب عن الطوق، ووجد نفسه قد استقام عوده وبلغ سن «القطام» الدعوي وأصبح صاحب اسم، ولكن «رشيد رضا» المهيمن الأكبر على شخصية البنا ما زال يفرض نفوذه على البنا، والبنا يريد أن يتمرد، ما قصة هذا التمرد؟

عام 1996 كنت في أسيرة إخوانية في شعبة الحي الثامن بمدينة نصر بالقاهرة، وكان معي في الأسيرة حسن مالك⁽¹⁾، وأظن أن معظمنا يعرف من هو حسن مالك، والحق أن مالك كان رجلاً دمى الخلق حيًّا عفيف اللسان، وكان مواظبًا على صلاة الفجر بالمسجد، وكنت أتناوب معه آنذاك «إمامة المصلين» بالمسجد القريب من بيتنا، وبعدها كنا نعقد مقراءة يشترك معنا فيها بعض المصلين الذين أدخلناهم معنا في الإخوان بعد ذلك، وأثناء هذه الفترة دخل معنا في الأسيرة الدكتور رأفت حويت فأصبح «نقيبنا» والدكتور حويت هو إحدى القيادات الدعوية للجماعة وأحد المتخصصين في علوم الكمبيوتر وكان يعمل وقتها في موقع قيادي بهيئة الطاقة الذرية، وفي ذات الوقت كان يجيد أحكام التلاوة إجادة تامة فكانت فرصة سانحة لا تتكرر حيث تعلمنا منه «إتقان الأحكام» وأصبح الدكتور رأفت بعد ذلك إمامنا في صلاة الفجر، وخطيبًا للجمعة بالمسجد، وكنت أيضًا أتناوب معه الخطابة، وأشهد أنه كان خطيبًا مفوهًا، فاهمًا.

(1) حسن مالك هو أحد قيادات الإخوان وأحد أكبر رجال الأعمال الذين يديرون مال الجماعة وبعد نجاح مرسي كرئيس أصبح مسئولًا عن الملف الاقتصادي للدولة كلها، ويدير هذا الملف من خلال مركزه كمستشار اقتصادي للرئيس.

و ذات يوم وفد علينا وافد جديد انضم لأسرتنا، ظهر من مظهر هذا الوافد الجديد أنه غير مصري، شكله يوحي بأنه من بلاد الشام، لكنته مصرية ولكنه ينطقها بطريقته الخاصة وكان شاميته أثرت على مصريته، كان هذا الوافد هو رجل أعمال اسمه «فؤاد سعيد رضا» يحمل نفسًا مسالمة طيبة غاية ما تكون الطيبة، وأثناء تعرفنا عليه في الأسرة عرفت أنه حفيد الشيخ «رشيد رضا» وأنه من لبنان إلا أنه يعمل ويعيش في القاهرة، توثقت الصلة بيننا، وأصبحت زوجته «الحاجة ثريا» صديقة لزوجتي، وتبادلنا الزيارات خارج نطاق «الأسرة الإخوانية» وفي أحد الأيام وأثناء زيارة من زياراتي له وجدته يقدم لي بأريحية هدية اعتبرتها كنزًا من أثمن الكنوز، كانت الهدية عبارة عن الأعداد الكاملة لمجلة المنار التي كان يكتب فيها الشيخ رشيد رضا تفسيره للقرآن الكريم، ومع أعداد المجلة كان هناك كتاب عنوانه «السنة والشيعة أو الوهابية والرافضة» بقلم السيد الإمام محمد رشيد رضا.

وكان أن فتحنا حوارًا ظل قلبي يحمله، ولك أن تتعجب من هذا القلب الذي ظل يحمل أشياء كثيرة أعلى من طاقته، ولكن أسرار النفس البشرية كثيرة، وهناك من يستطيع أن يكتشف بعض أسرار نفسه، وهناك من يعجز عن ذلك، وحين يخرج الإنسان من ذاته يسهل له وقتها اكتشافها.

قلت للأستاذ فؤاد رضا: أظنك لم ترجدك؟

رد قائلاً: نعم فقد ولدت بعد أن مات بسنوات طويلة، ولكن الوالد رحمه الله حكى لي كل تفاصيل حياته وما مر به، لذلك أنا معني بجمع

تراث جدي، والتأريخ له، بل إنني زرت البلدة التي هي مسقط رأس جدي واسمها القلمون بلبنان، وأنوي أن أزورها مرات ومرات ففيها أقاربي.

سألته: هذا الكتاب الذي أعطيتني إياه مع أعداد مجلة المنار يدور حول الشيعة والسنة، ولكن عنوانه غريب فقد وضع جذك على غلاف الكتاب عبارة «الوهابية والرافضة» فهل كان يعادي الشيعة رغم أن البنا ردد مقولة جذك «فلنعمل فيما اتفقنا عليه وليعذر بعضنا البعض فيما اختلفنا فيه»؟!

- كان جدي يحلم بالتقريب لا شك في ذلك ولكنه كان يرى أن هذا الأمر سراب وأن الشيعة لن يقتربوا من السنة أبدًا، كما كان يرى أن عقيدتهم ضلال في ضلال وأنهم يرغبون في تشييع المجتمعات السنية، لذلك كتب هذا الكتاب الذي كان عبارة عن بحث وضعه في مجلة المنار ثم جعلناه كتابًا بعد ذلك.

- ولكن حسن البنا كان يرى عكس ما كان يراه جذك، فكان يسعى للتقريب ويرى إمكانية تحقيق ذلك؟

- هذه الفكرة - فكرة التقريب - طرحها البنا على جدي في بداية تعارفهما، وقد ظن أن تأثر جدي بالشيخ جمال الدين الأفغاني سيدفعه إلى مساعدته على هذا الطريق، ولكن جدي حذر البنا من دخول هذا الطريق، ولكنه فتح له بابًا آخر هو الاقتراب من المدرسة الوهابية، وأظن أن تأثير جدي على البنا في هذا الأمر كان واضحًا فقد كان جدي صديقًا مقربًا للملك عبد العزيز آل سعود، وكان من رأي جدي أن السنة والشيعة لا يلتقيان أبدًا، وقد نصح البنا بأن يقتفي أثر عبد العزيز آل سعود، وظل جدي على موقفه هذا حتى مات، بل من أجل موقفه الراض للشيعة كتب كتابه هذا

الذي كان بحثًا في مجلة المنار وأظن أنه كان في هذا البحث يرد على البنا ويوضح خطورة ولوج طريق التقريب، وقد ظلَّ البنا بعدها بعيدًا عن «تنفيذ فكرة التقريب» حتى مات جدي عام 1935، ثم بعد الوفاة أخذ حسن البنا يفتح لنفسه أبواب التقريب.

قلت له: لقد عثرت في مقر «الدعوة»⁽¹⁾ - منذ أربع سنوات على وثيقة هامة تكشف زيارة الخميني للإمام الشهيد حسن البنا عام 1938.

أبدى اندهاشه قائلاً: لا علم لي بهذا الأمر، ولكن على العموم بدأت الزيارات تتوالى على حسن البنا من رموز الشيعة بعد وفاة جدي، فكأن جدي كان هو حائط الصد الذي كان يحول بين اقتراب الشيعة من الإخوان، وبعد وفاته انفتحت الطرق.

كان أول ما فعلته بعد أن انصرفت من بيت فؤاد رضا في هذا اليوم هو التهامي كتاب «السنة والشيعة» وفي بداية الكتاب وجدت الكاتب الكبير يشير في الصفحة الرابعة إلى أن التشيع هو الذي فرَّق الأمة، وأن الذي ابتدع التشيع هو اليهودي عبد الله بن سبأ الذي أظهر الإسلام خداعًا للمسلمين، ودعا إلى الغلو في سيدنا علي بن أبي طالب لتفريق الأمة وإفساد دينها ودنياها.

ثم أشار الشيخ رشيد رضا في الصفحة السادسة من الكتاب إلى أن محاربة سيدنا أبي بكر الصديق وسيدنا عمر بن الخطاب لبلاد فارس والقضاء على

(1) مقر الدعوة هو التعبير الذي كنا نطلقه على مقر جماعة الإخوان، وقد جرى هذا التعبير على السنة الإخوان لأن مقر الجماعة كان في ذات الوقت مقرًا لمجلة الدعوة، فضلًا عن أن الإخوان يعتبرون أن مقرهم هو مقر الدعوة للإسلام! ولا يزال الإخوان يستخدمون هذا التعبير للدلالة على مقر الإخوان بالمقطم.

ديانتهم المجوسية، جعل في نفوس أمرائهم وزعمائهم موجدة من الصحابة الذين فتحوا بلادهم، وعندما حانت لهم الفرصة في الثأر، قاموا بنشر التشيع في إيران.

وفي الصفحات التالية شرح رشيد رضا أنه كان متوهمًا أنه يمكن التقريب بين عقلاء الشيعة والسنة، وسعى إلى ذلك فعلًا ولكنه وجد أن هذه الفكرة هي سراب أو وهم، وقد أدرك هذا عندما رفع «عبد العزيز آل سعود» راية السنة ومحاربة البدع وأصبح إمامًا لأهل السنة، فإذا بهذا الأمر يحرك الأحقاد في نفوس من ظن أنهم من عقلاء الشيعة، فكتبوا وحرفوا وأعلنوا الحرب ضد السنة وإمامهم عبد العزيز آل سعود، وأضاف أنه عندما حاول التقريب بين هؤلاء والوهابية، وجد أن الشيعة لا يقبلون شيئًا غير عقيدتهم فقط، حينها - يقول الشيخ رشيد رضا - كتب رسائله التي في الكتاب، ووضعها في أعداد مجلة «المنار» ليحذر أهل السنة من الشيعة، ويظهر للمسلمين ما خفي من عقائد هؤلاء الشيعة، وينبه من يريد أن يخطو خطوات التقريب إلى خطورة هذا الأمر إذ إن الشيعة لا يسعون للتقريب، ولكن يسعون فقط لتشيع أهل السنة.

حملت العبارات السابقة إشارة إلى أن هناك من يسعى من السنة للتقريب وهو يجهل مقصد الشيعة، ثم أضاف إلى ضرورة أن يكشف عن خطورة الشيعة لأن هناك من المسلمين «السنة» من يجهل حقيقة دين الشيعة، وأغلب الظن أن هذه العبارات كانت تشير إلى حسن البناء الذي كان يرغب في مساعدة الشيخ رشيد رضا له على فتح أبواب التقريب مرة أخرى.

والحق أن هذا الكتاب درة من درر العلم، شرح فيه الشيخ رشيد رضا عقائد الشيعة ومعتقداتهم وتولى الرد عليها كلها وتعقب أقوال علمائهم وفندها، ووضع في الكتاب مناظرات علمية، ثم قام أحد تلاميذ الشيخ رشيد رضا - هو الشيخ محمد حامد الفقي - بكتابة خاتمة للكتاب وضع فيها خلاصة ما ورد به، وكرر التحذير من الشيعة وخطورتهم ورغبتهم الجارفة في تشييع أهل السنة.

والملاحظ أن هذا الكتاب الذي كان فصولاً في مجلة المنار قام ورثة رشيد رضا باستخراجها ووضعها في هذا الكتاب عام 1947 وهو العام الذي نشأت فيه دار التقريب بين السنة والشيعة رسمياً، فبعد أن أعلن حسن البنا عن تشكيل هذه الدار مع محمد تقي القمي، وبعد أن ظهر أن بعض شيوخ الأزهر انخدعوا بشعارات التقريب، أرادت أسرة رشيد رضا أن تعيد التنبيه إلى خطورة هذا الأمر، فكان أن عهدت إلى الشيخ محمد حامد الفقي أن يقوم بتجميع هذه الرسائل ووضعها في هذا الكتاب.

كان للرافضين الحق في رفض التقريب، ذلك أن وجهة نظر الشيعة مختلفة عن هذا الذي اعتمل في عقل البعض من حسني النية من أهل السنة، كانت دعاوى التقريب مجرد فخ، وحين تقع الفريسة فيه فستكون ضحية، الهدف للصياد الشيعي هو تشييع المجتمعات السنية، وإبادة من يرفض التشييع، هكذا فعلت الدولة الصفوية في إيران فنجحت من خلال القتل والقهر والتعذيب في تغيير التركيبة العقائدية هناك، وبعد أن وصل الخميني إلى حكم إيران بدأت المسيرة الثانية للدولة الصفوية، فهناك في تلك البلاد التي قامت فيها ثورة نسبت نفسها للإسلام، حدثت أبشع مذابح لأهل السنة.

الفصل التاسع

دماء وإماء

(في السير الشعبية المصرية تجد أن الشطار والحرامية والأفاكين والسفاحين، إذا ما أرادوا خديعة العسس، فإنهم يرتدون ثياب الشيوخ والعلماء، فيمرون من بين العسس وهم في تمام الاطمئنان، ثم يدخلون إلى بيت الضحية وهم يقرءون القرآن، فيأنس لهم صاحب الدار، ويفسح لهم الدوار، ويدخل إلى أهل بيته حاملاً لهم البشري، فقد جاء لهم أهل الله وخاصته ليطرحوا البركة في الدار وأهلها، ويأمرهم بإعداد أطايب الطعام، وبعد أن يأكل الحرامية ويشبعوا، يسكبون قدرًا كبيرًا من البنج في طعام صاحب الدار، فيأكل ويغيب عن الوعي، فينفرد اللصوص بأهله، فيذبحون ويغتصبون ويسرقون على مهلهم، ولا يخرج من أهل الدار حس ولا خبر، فالمقتول لا حياة فيه، والنائم لا حياة له).

في يوم ما من فبراير عام 1979 هبطت الطائرة في مطار طهران، كانت هي ثالث طائرة تهبط في المطار منذ أن نجحت الثورة الإيرانية واتشحت بالشوب الإسلامي، فُتح باب الطائرة فنزلت منها مجموعة من الرجال يرتدون الثياب الإفرنجية ومعهم رجل يرتدي الغرة والعقال على هيئة أهل

المملكة السعودية، هيئتهم وبشرتهم توحى أنهم من مصر، كان في استقبالهم بعض رجال الدين الشيعة، وبعد مراسم الاستقبال حملتهم بحقائبهم عدة سيارات مرسيديس إلى أحد الفنادق، وفي المساء بعد صلاة العشاء توجهت بهم السيارات إلى المقر الذي يستقبل فيه آية الله الخميني ضيوفه، خلع الجميع أحذيتهم عند باب الدخول، كان الأستاذ غالب همت عضو مكتب إرشاد التنظيم الدولي هو أول المتقدمين للسلام على آية الله الخميني، وتبعه الأستاذ جابر رزق ممثلاً عن إخوان مصر، ثم تبعهما باقي الأضياف.

جلس الجميع على الأرض متكئين على الوسائد القطنية، دار الحوار بينهم، وما بين التهئة بالثورة، والمباركة بنجاحها، كانت الكلمات الأولى للمتحاورين، ثم أبدى أحد الإخوان رغبته في مبايعة الإخوان في كل العالم آية الله الخميني كي يكون خليفة للمسلمين، ابتسم الخميني شاكرًا ولم يعقب، عطف آخر قائلاً: لنا طلب عند ساحتك.

رد الخميني: اطلب ما تشاء.

تدخل جابر رزق: نحن طبعًا نبلغك هذا الطلب من أخيك المرشد فضيلة الأستاذ عمر التلمساني، وهو يرجو أن تسمح للإخوان بإنشاء جمعية لهم في إيران، على أن يكون اسمها جمعية الدعوة والإصلاح، نحن لنا مجموعة صغيرة هنا من أهل إيران تقوم بعمل دعوي فقط في محيط أهل السنة ولا تتعداهم أبدًا.

ابتسم الخميني موافقًا.

وفي أكتوبر من عام 1979 بدأت جمعية الدعوة والإصلاح خطواتها

الأولى بشعار أعلن هو الله أكبر والله الحمد وبجانبه سنبله محدودة على الشعار، كان أكبر المؤسسين هو الشيخ الكردي ناصر سببحاني - الذي أعدمه النظام الشيعي عام 1990 - وكان معه الشيخ الكردي أحمد مفتي زاده «الذي اعتقله نظام الشيعة سنوات ثم تم إطلاق سراحه عام 1993 وتوفي بعدها متأثراً بالتعذيب الذي كان قد تعرض له في السجن» ومعها عبد الرحمن البيراني الأمين العام الحالي لجمعية الإخوان، وهو أيضاً من الأكراد، وله عضوية في الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين.

تشكلت الجمعية وبدأت تمارس أنشطتها، وبالرغم من سماح الخميني لها بالعمل في حدود ونطاق أهل السنة فإنها تعرضت لاضطهاد، ولكنها مع ذلك كانت أحسن حالاً من الذي تعرض له أهل السنة في إيران على يد رجال الخميني، وكان من الرعيل الذي أنشأ الجماعة ومارس أنشطتها كل من:

- إبراهيم مردوخي وهو ينتمي لعائلة صوفية، وكان من رفقاء سببحاني وأحمد مفتي زاده وشارك في الثورة الإيرانية.
- عبدالعزيز سليمي وتربطه صلات قوية بالدكتور يوسف القرضاوي وهو الذي قام بترجمة كتبه إلى الفارسية، وكان أيضاً من رفقاء ناصر سببحاني.
- لقمان مصطفى ستوده وهو صيدلي ويشغل حالياً موقع مسئول العلاقات العامة لجمعية الدعوة والإصلاح الإخوانية.

ورغم الانتكاسة التي تعرضت لها الجمعية بسبب الاضطهاد الذي تعرضت له من الحكومة فإن الحال تغير بعد ذلك، وأصبح للجمعية نشرات ومجلات ودوريات، وفاعليات ومؤتمرات في إيران وخارجها، ورحلات مستمرة للحج والعمرة، ومساجد خاصة بها في بعض الأقاليم التي يوجد

فيها سنة، يقف عليها الخطباء، ويخوضون انتخابات بعض المجالس المحلية، أخذت جمعية الإخوان نفساً عميقاً، وتعافت مما ألم بها، ثم أخذت تقوم بدور سياسي في تقريب وجهات النظر بين التنظيم الدولي للإخوان والنظام الإيراني، وحين قام أحمد نجاد بزيارة مصر أوائل عام 2013 كانت للدبلوماسية الشعبية، الممثلة في تنظيم الإخوان، الدور الأكبر في تنظيم هذه الزيارة، وترتيب أحداثها، ولكن الأمور في إيران لا تسير بنفس الميزان مع أهل السنة.



من فوق مئات المساجد في طهران يرتفع الأذان بصيغته الشيعية:

الله أكبر الله أكبر	الله أكبر الله أكبر
أشهد أن لا إله إلا الله	أشهد أن لا إله إلا الله
أشهد أن محمداً رسول الله	أشهد أن محمداً رسول الله
أشهد أن علياً ولي الله	أشهد أن علياً ولي الله
المؤمنين وأولاده المعصومين	أشهد أن علياً أمير
عد أن علياً أمير المؤمنين	بالحق حجج الله، أشهـ
بالحق حجج الله	وأولاده المعصومين
حي على الصلاة	حي على الصلاة
حي على الفلاح	حي على الفلاح

حي على خير العمل حي على خير العمل
الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله لا إله إلا الله

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد

لا ينقطع هذا الأذان عن المساجد الجامعة هناك، فإذا أصغت السمع، وأرهفت الأذن لتسمع أذان أهل السنة، فإنك لن تستقبل إلا صفير الريح، ولن تصاب إلا بخيبة الأمل، وليس ذلك لأن أذان أهل السنة ممنوع، ولكن لأن مساجد أهل السنة نفسها ممنوعة، فطهران على اتساع مساحتها، وعلى وصول عدد أهل السنة فيها وحدها إلى أكثر من مليون نسمة، فإن الثورة الإسلامية لم تتح للسنة بناء مسجد جامع في الوقت الذي سمحت فيه ببناء الكنائس والمعابد اليهودية، ومعابد المجوس!

بعد الثورة بسنوات قليلة ذهب إلى إيران الشيخ محمد عبد القادر آزاد رئيس مجلس علماء باكستان، لم يكن في الزيارة وحده ولكنه كان على رأس وفد يضم 18 عالماً، وكان أن اجتمع بآية الله الخميني وبعض كبار المسؤولين الإيرانيين، لا شك أنه قبل الزيارة كان يأمل في أن يكون الشيعة قد أخذوا خطوات عملية لإنصاف أهل السنة هناك، ولكن هاله ما رأى، وإذ عاد كتب تقريراً عن أحوال إيران، وأحوال أهل السنة فيها، وستقتطف هنا في الكتاب نتفاً من هذا التقرير المطول، لنرى جانباً من الصورة، قال محمد عبد القادر آزاد:

(لا يوجد في طهران كلها مسجد واحد لأهل السنة، بالرغم من وجود

12 كنيسة للمسيحيين، و 4 معابد لليهودية، وبعض المعابد للمجوس.

ومنذ ثلاث سنوات، وعد الخميني في لقاء مع وفد أهل السنة، برئاسة الأستاذ عبد العزيز ملا زاده رئيس خطباء أهل السنة في زاهدان، بإعطاء قطعة أرض في طهران يشاد عليها مسجد لأهل السنة، ورغم أنهم دفعوا ثمنها فإن الخميني أصدر أمرًا بالاستيلاء على الأرض وسجن القائمين على المشروع.

ورغم مطالبتي للخميني في العام الماضي بإنجاز وعده لأهل السنة، فوجئت في المؤتمر الذي حضرته هذا العام بقول بعض أنصاره: لو أعطينا قطعة أرض ليقام عليها مسجد لأهل السنة، فإنه سيصبح مسجد ضرار.

وأصر الخميني على أخذ الأرض، واعتقال القائمين على المشروع رغم تدخل بعض سفراء الدول العربية والإسلامية، ويصلي بعض أهل السنة الجمعة في ملحق تابع للسفارة الباكستانية في طهران، ولولا ما يسمى بالحصانة الدبلوماسية لكان للسلطات الإيرانية مع هؤلاء شأن آخر، في حين يوجد لأهل السنة مساجد في كبرى العواصم العالمية كواشنطن، وموسكو، وباريس ولندن، وغيرها ولا يوجد لهم مسجد في طهران العاصمة الإيرانية!

وقد ناقش مؤتمر الأئمة العالمي، الذي عقد في طهران سنة 1982 موضوع مسجد أهل السنة، وجاء في التوصيات التي أصدرها: التوصية الثانية أن تعطي الحكومة الإيرانية قطعة الأرض التي وعدت بها أهل السنة، لبناء مسجد في طهران بعد أن سدد أهل السنة ثمنها، وقد صدرت هذه التوصية على الملأ في طهران، وعلى مسمع من الحكومة، مما يؤكد صحة الخبر وتواتره.

وكم كنت أتمنى على قادة الحركات الإسلامية الكرام الذين قاموا، ويقومون بزيارة إيران، وعاصمتها طهران مراراً أن يسألوا عن هذا الموضوع ويذكروا القادة الإيرانيين به، وليتهم عندما يكونون في طهران يسألون عن مسجد لأهل السنة للصلاة فيه بدلاً من الذهاب إلى ضريح الخميني للصلاة عنده).



المكان: مدينة مشهد الإيرانية أقاصي إقليم خراسان .
الموقع: مسجد «فيض» الخاص بأهل السنة في المدينة، وقد أقيم هذا المسجد منذ أكثر من مائة عام، ويقع بالقرب من مزار الإمام علي بن موسى الرضا، ويجاوره أيضاً منزل والد آية الله خامنئي المرشد الأعلى للثورة.
الواقعة: منذ قيام الثورة الإيرانية والمساومات مع أهل السنة لا تفر، كانت المخابرات الإيرانية هي التي تقود المساومات: «خذوا قدرًا من المال وسلموا لنا هذا المسجد، نريد مسجد فيض، سيكون للشيعة من بعدكم، إذ لا يليق أن يكون مسجدكم بجوار مزارنا وبجوار بيت والد مرشد الثورة». اجتمع علماء السنة وانتهوا إلى أنهم لا يبيعون دينهم ببضعة دراهم: «لا مساومات، وسيظل المسجد لنا».

الزمن: الأول من فبراير من عام 1994 «وهو نفس الشهر ونفس العام الذي حدث فيه مذبحة الحرم الإبراهيمي بالقدس».

الحدث: خمس عشرة جرافة كبيرة تحيط بمسجد فيض، ثم تبدأ في هدم

أسواره وأركانه، لم تضع الجرافات في خاطرها وهي تقتلع المسجد أن هناك عشرات المصاحف بالداخل، وكيف تضع هذا في اعتبارها وفي الداخل أيضاً عشرات المصلين؟! خرج المصلون من المسجد يهرعون، فقامت الشرطة بالقبض عليهم، وفي الداخل عدد من المصلين اعتصموا بالمسجد ورفضوا الخروج، فجرفتهم الجرافات ماتوا وهم يذودون عن المسجد وصاروا ذكرى.

ردود الأفعال: في اليوم التالي للحدث ترتفع الزينات في كل مكان، فالشعب الشيعي وحكومته يحتفلون بذكرى دخول الخميني إلى إيران، أما في العالم الإسلامي ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾.

توابع الحدث: في ذات يوم احتفال الشيعة بدخول الخميني إيران ينتشر بين أهل السنة خبر هدم المسجد، يسود الحزن ويترك ظلالاً كثيفة عليهم، فهذا هو أحد مقدساتهم يهدم أمامهم، ليس هذا فحسب، ولكن يقع قتلى مخرجين في دمائهم من جراء عمليات الهدم الغشيم، يجتمع علماء السنة في مدينة زاهدان عاصمة بلوشستان عند مسجد «المكي» والمدرسة الدينية التابعة له، وحول المسجد أخذت الأعداد تتوافد من كل صوب وحذب، كل أهل السنة في المنطقة راعهم ما حدث لمسجد «فيض»، تعالت الأصوات تعبر عن الغضب، وارتفعت أصوات البكاء من العامة بداخل المسجد وخارجه، وتوالى الخطباء على المنبر منددين بما حدث، كاد الزمام أن يفلت ولكن خطيب المسجد أخذ يهدئ روع الجمهور الكبير خوفاً من حدوث صدام مع الشرطة والحرس الثوري اللذين أخذت أعدادهما تتزايد بجوار المسجد والمدرسة، وفي الساعة الثانية عشرة وخمس دقائق نوّدي لصلاة الظهر، اصطف الناس للصلاة خلف الإمام، واكتظت الشوارع بمظاهرات

احتجاجية، وعن بعد وصل صوت أزيز المروحيات إلى الأسماع، تطلع الناس إلى السماء، فإذا بدوي إطلاق الرصاص يجتاح المدينة، وعلى الأرض يسقط عشرات القتلى والجرحى، صرير وعويل واضطراب وارتباك، يسارع الناس بالاختباء والاحتباء بالمسجد، يمسك شيخ المسجد الميكروفون مطالباً الشرطة بالكف عن إطلاق الرصاص، فيجيبه قائد الشرطة عبر ميكروفونه: لسنا نحن الذين نطلق الرصاص ولكنها طائرات المخابرات وقوات الحرس الثوري، استمر إطلاق الرصاص مدة ثلاث ساعات متواصلة، نزلت القوات من المروحيات وقامت مع الحرس الثوري بأسر عدد من الأهالي، ثم جمعوا الجثث وألقوا بها في المروحيات وسيارات الحرس الثوري، استطاع الأهالي تحبئة بعض الجثث لكي يتم دفنها في اليوم التالي في جنازة صامتة تحاكي صمت العالم، وصمت المسلمين في كل مكان.

ينتقل المشهد إلى استوديو قناة الجزيرة.

الزمن: 2005/1/10

يجلس الإخواني الكبير يوسف ندا أمام الكاميرات لكي يتحدث باسم الإخوان في برنامج شاهد على العصر، يسأله المذيع الإخواني عن تجاوزات الشيعة في إيران في مواجهة أهل السنة، فيرد عليه ندا وهو يقطب وجهه تقطيبه المفكر وكأنه يستحضر الحكمة: إن هذا الأمر المتعلق بالاعتقالات والإعدامات مؤلم إلا أنه طبيعي إذ «لكل ثورة أخطاء»! وفي هذا اللقاء يستطرد ندا مؤكداً أن الإخوان حاولوا حل مشكلة الرهائن الأمريكان التي كانت الحدث الأهم في العالم في بدايات الثورة، قص علينا ندا كيف أنه تحدث مع مسئولين كبار في البيت الأبيض كي يأخذ موافقة من الرئيس

الأمريكي على أن يقوم الإخوان بدور في المفاوضات مع وعد منه بأن المشكلة سيتم حلها على يد الإخوان! إلا أن ندا أكد في البرنامج، وخيبة الأمل تصيب صوته بالرعشة: انتظرنا أنا والأستاذ عمر التلمساني أمام الهاتف كثيرًا، ولكن الرئيس الأمريكي لم يتصل رغم أن مساعديه أكدوا لنا أنه سيتصل.

ملحوظة: لم يذكر الأستاذ يوسف ندا شيئًا عن تدخل الإخوان لإيقاف المذابح التي كانت تتم لأهل السنة، ولا حتى لإيقاف هدم المساجد!



اعتقالات، سجن، إعدامات لكثير من علماء السنة، خرج بعضهم من السجن وقد كف بصره من أثر التعذيب، وخرج البعض الآخر ليموت بعد أيام من خروجه، يموت البعض الآخر داخل السجن، والمشهد كان كافيًا قاتمًا غاية ما تكون القتامة، فبدلاً من أن ترتفع هامات المشايخ فوق المنابر إذا بها ترتفع على أعواد المشانق التي كانت تتم في الشوارع الكبيرة والميادين.

لم يسلم من مشانقهم وسجونهم أحد، فهذا هو الشيخ «نظام الدين روانيد» العالم والشاعر الشهير في بلوشستان يشرع في بناء مسجد صغير فكان أن تم اقتياده إلى السجن ولا يزال فيه إلى الآن لا يعرف مصيره أحد.

ومنذ أعوام قليلة تم اغتيال الشيخ «يار محمد كهرازهي» رميًا بالرصاص، والشيخ يار محمد هو إمام جمعية أهل السنة في مدينة خاش وكان يدير مدرسة دينية، وقبله بعامين قامت المخابرات الإيرانية باغتيال مدير المدرسة ذاتها الشيخ عبد الستار إمام الجمعة، والعالم الشهير لأهل السنة في مدينة خاش البلوشية، وذلك ضمن حملتها المسعورة بقيادة مرشد الثورة خامنئي لإخلاء إيران من علماء السنة، ليتسنى لهم تشيع البلد كليًا.

انتشرت الاغتيالات والمذابح في كل المناطق والأقاليم التي يقيم فيها أهل السنة، وكانت تستهدف الشيوخ والعلماء، وإذا أردنا أن نضع قائمة بالعلماء السنة الذين قُتلوا على أعواد المشانق أو رميًا بالرصاص، أو من جراء التعذيب في السجون فسيستغرق هذا صفحات الكتاب كله، ولكن على سبيل المثال نذكر بعضهم:

● الشيخ عبد الوهاب خوافي، من علماء أهل السنة في إقليم خراسان تم القبض عليه من قبل شرطة خاصة يتزعمها رجال الدين الشيعة، وحوكم وأعدم في عام 1990 بتهمة نشر التسنن.

● الشيخ قدر الله جعفري، من علماء أهل السنة في خراسان ومن خريجي الجامعة الإسلامية في باكستان أعدم دون محاكمة في عام 1990 م بعد عودته إلى إيران.

● الدكتور علي مظفریان، من الأطباء الجراحين المشهورين في مدينة شیراز، تحول من المذهب الشيعي إلى السني في عهد الشاه، وبعد الثورة اشترى بيتًا في شیراز بالتعاون مع عدد من أهل السنة من أبناء المدينة وأبدله إلى مسجد وصار خطيبًا، فكانت عاقبته أن تم اعتقاله وتعذيبه وبعد أن فرغوا من تعذيبه قاموا بإعدامه شنقًا.

● الشيخ محمد صالح ضيائي، من كبار علماء وقادة أهل السنة في ميناء بندر عباس كانت له مدرسة دينية باسمه وقد طلبت منه الاستخبارات الإيرانية إغلاقها إلا أنه رفض فتم قتله بطريقة بشعة حيث تم التمثيل بجثته وتقطيع أطرافها، ثم قاموا برميها في الصحراء.

● الدكتور مولانا أحمد صياد، وهو العالم السني الوحيد الحائز على شهادة الدكتوراه في علم الحديث من الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، وبعد

عودته من المدينة أسس مدرسة دينية صغيرة في أطراف مدينة كنارك في إقليم بلوشستان، ولكن بعد مدة تم استدعاؤه من قبل المحكمة الخاصة برجال الدين، وحكم عليه بالسجن مدة خمسة عشر عامًا بتهمة الدعوة إلى التسنن، وبعد خمس سنوات تم إطلاق سراحه فسافر إلى دولة الإمارات حيث قضى فيها عدة أيام لا غير، فإذا بهم يقبضون عليه عند عودته إلى مطار بندر عباس، وبعد ثلاثة أيام من اعتقاله وجدت جثته مرمية في العراء.

قد يفرغ الكتاب ولا تفرغ الأسماء، فحيثما تكون الفاشية المرتدية ثوب الدين تكون المذابح والاعتقالات، وحيثما تكون العنصرية وادعاء امتلاك الصواب يكون التكفير، لا مكان في الدولة الفاشية للعواطف أو الرحمة، ولا مجال لحقوق الإنسان، يعدونها شعارات يتم المتاجرة بها، أما عصمة الدماء، وحفظ كرامة الإنسان، والتراحم فلا دولة لها عندهم، فقط هي الدنيا وأعراف الملوك الذين «إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة»، وإذا دخلت العيائم الملكية إلى إيران، سالت دماء المسلمين بلا سبب، سالت دماء والإماء الجالسون الحاملون لسيفهم ذاك الحرب لا يعرفون سوى الجهالة والعمالة من قديم والسفاهة والخطب.

الخلاصة أنه: لم تكن العيائم تسعى للحكم من أجل الدين، ولكن كان الدين من أجل الوصول للحكم، ولم يكن الإخوان يسعون للدين وهم في طريقهم لحكم مصر، ولكنهم فقط كانوا يحملون شعارات الدين، لذلك عندما وصل هؤلاء هؤلاء فإننا لم نرهم دينًا، ولكننا رأيناهم مستذئين.



المشهد الختامي

ليس في دنيا السياسة ختام، فسيظل الحق والباطل في صراع إلى يوم الدين، ولكن لأن لكل كتاب ختامًا، فيجب أن يكون لهذا الكتاب خاتمة، ومشهد الختام أمامنا يظهر على شاشة العالم كله، تلك الشاشة التي احتوت على كل المشاهد ولم تغفل منها شيئًا، في خلفية الشاشة يظهر العم سام مرتديًا سترته الزرقاء وقبعته الشهيرة، يربت العم سام بيده على رأس الأسد البريطاني الذي استكان قابعًا بجوارره، وأمامهما خريطة العالم منبسطة، وفي منطقة خلاصة وأخذة من الخريطة تقع منطقة تحمل رائحة الزمن، كانوا فيها مضى يطلقون عليها «العالم القديم مهد الحضارات ومهد جميع الأديان» إلا أنها تخلت عن شموخها فأصبحت من جملة دول العالم الثالث التي لم تبلغ الحلم بعد، وحين وقعت هذه المنطقة في أسر واحتلال «العالم الجديد» صاحب الشعر الأصفر والعيون الزرقاء وماكينات الحضارة، إذا بهذا العالم الجديد يطلق على هذه المنطقة مهیضة الجناح «الشرق الأوسط».

كانت نظرات العم سام لهذه البقعة من الخريطة ثابتة، وكانت نظرات الأسد البريطاني مترقبة، وكأنه ينتظر الأوامر من صاحبه، كيف سنفترس تلك البلاد؟ وكيف سنلتهم ثرواتها وكنوزها، يظهر العم سام وهو يمد يديه إلى الأمام وكأنه ساحر يمسك بعصاه السحرية، والعصا تخرج منها شذرات سحرية.

تقترب الصورة من منطقة الشرق الأوسط، فإذا بنا نرى تيجاناً، وعروشاً، وجيوشاً، ومزارعاً، وجبالاً، وأنهاراً، ومناجم، ومصافي نفط، وصوبلجانات، وعمائم، وطرايش، وجلايب، ومساجد، وكنائس، ومعابد، وشيوخاً، وأفندية.

تتحرك عصا العم سام السحرية، فإذا بجيوش تشتبك مع جيوش، وجيوش تتحرك صوب دول لتحتلها، وعروش تسقط، وعمائم سوداء تجلس بدلاً منها على كرسي الحكم، ثم إذا بهذه العمائم تهوي بمطرقة فوق رؤوس الجلايب البيضاء، والجلايب تريد أن تتقي خطر العمائم السوداء، فتصب للعم سام النفط في أنبوب ضخيم يتصل بقبعته، لعله يحول بينها وبين المطرقة التي تهوي على رؤوسها، وبالقرب منها طرايش تشتبك مع عمائم أزهرية، وأفندية يشتبكون مع أصحاب الغترة والعقال، وأصحاب لحى خفيفة يشتبكون مع الجميع، ويتوددون إلى أصحاب العمائم السوداء وأصحاب لحى كثيفة غاضبون من الجميع، ثم ثورات تقوم، وجماهير تصيح، وأصحاب اللحية الخفيفة يركبون على ظهورهم، ليصلوا إلى كرسي الحكم، وأصحاب اللحية الكثيفة تدفع أصحاب اللحية الخفيفة للأمام، فإذا وصلوا واستقروا على الكرسي أو هبى لهم الاستقرار قاموا برفس الجماهير التي أوصلتهم، وأصحاب اللحية الكثيفة التي ساندتهم، ويشتبك الجميع مع الجميع.

وحال ذلك يظهر في الصورة صاحب اللحية الخفيفة المنمقة وله أكثر من يد، باليد الأولى يقطع بلدًا سمراء بسكين كبير فتنقسم البلد بلدين، ويمسك بيده الأخرى سيفًا على وشك أن يهوي به على بلد آخر ليقسمها، ويمسك

بيد ثالثة رقاب بعض الأفندية ليخنقهم، ويحمل قبلة في اليد الرابعة يلقي بها فوق الكنائس، ويرفع يده الخامسة ليعانق بها اليد الثانية لصاحب العمامة السوداء، والكل ينظر وقتئذ - للأمام تجاه العم سام وأسده القابع بجواره، يرجون منه إسباغ حمايته عليهم، لا ينظرون وراء ظهورهم لبعض لصوص يرتدون أقنعة سوداء على عيونهم، وهم يعبثون الذهب في أجولة يضعونها في سفن وطائرات متجهة صوب العم سام، وفي جانب من هذا المشهد حاخام يجلس هادئاً على قبة المسجد الأقصى، فتحنى القبة من ثقله، ويقف أسفل القبة بعض رجال يحملون دبابيس صغيرة يحاولون بها إزاحة «مؤخرة الحاخام» المتربعة فوق القبة، ولكن الحاخام لا يشعر بشيء، بل تند عنه ابتسامة خفيفة، وتستمر عصا العم سام في إخراج الشرر السحري، فيستمر الجميع في ذات الحركة، وفي الحركة بركة، للعم سام والحاخام والأسد العجوز.

وفجأة وعلى غير المتوقع تهب جموع من الأفندية والفلاحين والعمال نائرة فتركل صاحب اللحية الخفيفة فيقع متوجعاً من فوق كرسي الحكم، ويضطرب العم سام ويفقد اتزانه فتقع العصا السحرية من يده ويرفع الأسد العجوز رأسه متبهاً ثم سرعان ما يتشاءب ويعود إلى هدوئه وركونه، إلا أن بعض الفئران تندفع من خلف العم سام متوجهة صوب شعب الأفندية والعمال والفلاحين، ولكنه شعب تعود على اصطیاد الفئران.

الوثائق



وثيقة إنشاء جمعية السنة والشيعة بتوقيع السيد محمد القمي
مرسلة لحسن البنا..



خطاب مُرسل من صالح عشاوي رئيس تحرير مجلة الإخوان المسلمين؛
لنشر خبر زيارة الخميني لحسن البنا..

الفهرس

5	مقدمة.....
7	تقديم.....
15	حاشية الكتاب.....
19	الفصل الأول : Why not?
55	الفصل الثاني : المطية
83	الفصل الثالث : إشعال النار في القط
113	الفصل الرابع : الجذور
147	الفصل الخامس : مسرح العرائس
171	الفصل السادس : الطين المعصوم
203	الفصل السابع : الغزل السياسي الرفيع
247	الفصل الثامن : رفض الرفض
277	الفصل التاسع : دماء وإماء
289	المشهد الختامي
293	الوثائق.....

أحدث إصدارات

الأستاذ

ثروت الخرباوي

- سر المعبد .. الأسرار الخفية لجماعة الإخوان المسلمين.
- قلب الإخوان ..
- زمكان .. «رواية».
- أئمة الشر .. الإخوان والشيعة أمة تلعب في الخفاء.





أئمة التنمر

الإخوان والتبعية أمة تلعب في الخفاء

واهم من يظن تلقائية الأفعال الغربية في
منطقتنا وبلادنا... فبحكم التاريخ والجغرافيا
ما زال الغرب يعتنق ليومنا هذا ثقافة الاحتلال،
الذي تتغير صورته وتتطور دون أن يتغير الهدف
منه؛ لتظل السيطرة على مقدرات شعوبنا غاية
لا تنازل عنها في فكر هذا الآخر الغربي. قد
يرسل القوات العسكرية للأرض فيشعلها حرباً، وقد يتحكم في حركة الاقتصاد
ضاغطاً على كل مقاومة، ويبقى أخطر أشكال الاحتلال متجسداً في عمالة أبناء
الوطن الواحد، عن خيانة أو جهالة لا يهم، فيصبح هؤلاء المتآمرون على مصالحنا
تجسيدا لا ريب فيه لأئمة الشر مهما تنوعت ملامحهم.

في هذا الكتاب يكشف لنا الكاتب ثروت الخرباوي خط
الغربية بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية لتقسيم بلادنا و
الطائفية ونيرانها عبر دعم الشيعة في إيران- على غير المعتاد
الإخوان منذ عقود طويلة؛ لتكتشف عبر صفحات الكتاب وم
اليوم من أحداث لم يأت مصادفة ولكن بمؤامرة.

Bibliotheca Alexandrina



1202460

للطلب والاستفسار اتصل على

16766

www.nahdetmisr.com
our page/nahdet misr group



دار نهضة مصر

تنشيط



6 221133 348931